# الأوديسة





أخبار اليوم

هوميروس

# الأوديسة

دريني خشبة



إدارة الكتب والمكتبات

**غلاف ............................ محمود الهندى**



# الأوديسة

# مقدمة الطبعة الأولى

**... وها هى ذى قصة الأوديسة .. أو الحلقة الثالثة من روائع الأدب اليونانى التى أخذت على عاتقى تقديمها بطريقتى الخاصة لقرائى الأعزاء فى جميع الأقطار العربية .. أولئك القراء الذين أكرمونى فتقبلوا كتابىّ السابقين : أساطير الحب والجمال عند الاغريق ، وقصة طروادة ، متضمنة إلياذة هوميروس الخالد ، الذى فُتِنْت به ، فلم أبال أن أقدم طُرْفتيه المجيدتين لقراء الأدب الرفيع فى أقل من ستة أشهر ، ليشقا طريقهما وسط تلك الزحمة الصاخبة من مئات الكتب فى الأدب الرخيص .**

ها هى ذى قصة الأوديسة إذن .. كما رويتها ، وهذبت حواشيها ، منذ عشر سنين ، جارياً فيها على المنوال الذى اخترته فى تقديم كتابىّ السابقين .. ذلك المنوال الذى مازلت أراه أسلم الطرق لتحبيب روائع الأدب القديم إلى نفوس القراء فى هذا الزمن المُتْرَف العَجُولِ المَلُول .

وبعد .. فلقد قلت أكثر ما كنت أصبو إلى قوله عن هوميروس فى المقدمة الطويلة التى صدَّرت بها لقصة طروادة ، وذكرت فيها الشىء الكثير عن قصة الأوديسة ، والذى لا أزال أرجوه ، هو أن يوفقنى الله إلى إصدار ما أعددته للطبع من روائع الأدب اليونانى الذى كان فى إحيائه

إحياء أوربا الحديثة ، والذى لابد لمصر الحديثة ، بل للعـالم العـربى الحديث ، من الإلمام به ، إن كان فى نيتنا خلق أدب عربى حديث .

( القاهرة : ديسمبر سنة ١٩٤٥ ) .

**درينى خشبة**

# مقدمة

الأوديسة ، أو : رحلة اوديسيوس ، هى ثانية الملاحم الهومرية ، التى يميل أكثر نقاد الأدب ومؤرخى الثقافة الانسانية الى نسبتها الى هوميروس ، ولقد قيل ان هوميروس . الشاعر الاغريقى الضرير ، قد ترك ستا وعشرين ملحمة عن أبطاله الكثيرين بعد رحيلهم من حرب طروادة ، أو قبيل نشوب الحرب نفسها ، ولم يتبق منها جميعا سوى الالياذة ، والأوديسة التى تروى قصة الرحلة الطويلة المضنية التى قطعها أوديسيوس من طروادة ، الى وطنه ، ايثاكا بالقرب من أثينا اليونانية .

ورغم أن الأوديسة أقل عنفا وأقل أحداثا من الألياذة ، فإنها أكثر منها غنى وجمالا فى نواح عديدة :

إن أوديسيوس ، البطل الكهل ، ما يزال عظيم المهارة ، فى القتال ، ولكنه شديد الذكاء والشجاعة ، يملك قدرة على التعبير الحكيم ، والمناسب فى كل مقام ، وقدرة على الاقناع والمساومة مما يجعله شخصية أكثر تعقيدا أو تركيبا بكثير من شخصيات الالياذة : فهو محارب وبحار وحكيم وكاهن ومتكلم ذرب اللسان ولكنه يستطيع أن يكون متهورا يتحدى العمالقة القاتلة وآكلة لحوم البشر ، وفضوليا يريد أن يعرف ما لم يعرفه انسان ، وهو والد محب وزوج عاشق لزوجته وبيته ، ومنتقم قادر

على قتل عشرات الرجال دون أن يطرف له جفن ، وداهية يخدع بتنكره أقرب الناس اليه ، وملك محبوب ، يحبه شعبه وزوجته ، وتحبه أو تقع فى هواه نساء كثيرات ، كما تحبه السماء وتغفر له كثيرا من خطاياه .

× × ×

والالياذة ملحمة حرب ونهب وتدمير ومنافسة دامية بين الرجال وبين القبائل المحاربة الغازية والمدن المستقرة الآمنة ، أما الأوديسة فانها ملحمة ابحار طويل فى أصقاع وشواطىء البحار المجهولة ، وارتحال بين الأماكن الأسطورية والأماكن التى لا يملك البشر إلا تخيلها - مثل العالم الآخر - وهى ملحمة عن رجل يريد أن يعود الى بيته ولا يملأ مشاعره إلا تذكر البيت والابن والزوجة المحبة ، فهى ملحمة عن زمن ومجتمع مشغول بارتياد العالم ومعرفته - وربما الاتجار فيه ، كما أنها ملحمة « منزلية » فيها الكثير عن قيم الأسرة والوطن وعن آداب البيوت والضيافة وادارة المنازل والعلاقات بين الأبناء والآباء وبين الملوك ورعاياهم أو بين الرجال وزوجاتهم .

والاختلاف بين الملحمتين هو الذى جعل بعض الدارسين يقولون بأن الأوديسة تم تأليفها فى زمن لاحق لزمن تأليف الالياذة ربما بعدة قرون : فالمجتمع الذى تعكسه الالياذة يصعب أن يكون هو نفسه المجتمع الذى تصوره الأوديسة والذى لاشك أنه هو المجتمع الذى أنتجها ، ولكن أغلب الداوسين يقولون بأن العلاقات بين المجتمعين كبيرة وأوجه التشابه بينهما لا تحصى : ليس فقط فى مجال العقائد والطقوس والعادات ، ولكن فى العلاقات الاجتماعية وفى كثير من أدوات المعيشة وأساليب ممارسة

الحياة . وان كل الأختلاف الرئيسي بين بطولة أوديسيوس فى الأوديسة وبطولة أخيل او أجاكس فى الالياذة ، هو الاختلاف بين نوعين من النشاط ونوعين من الاهتمام قد يمارس الرجل الواحد ، فى العصر الواحد ، كلا منهما دون تناقض ، فأوديسيوس كان فى الألياذة زوجا محبا وبطلا كارهاً للحرب مولعا بالزراعة والحصاد ، وكذلك كان أجاممنون قبل أن يختاره الملوك لقيادة الحملة على طروادة ، وكذلك كان مينلاوس قبل أن تهرب زوجته مع الأمير الطروادى باريس فتشتعل الحرب . كذلك فان الطريقة التى ترسم بها الأوديسة العالم ، وهى صورة أسطورية مليئة بالوحوش الخرافية والأرباب الوثنيين والشعوب غير الانسانية ، والمعجزات السحرية والخرافات ، هى نفسها الطريقة التى رسمت بها الالياذة العالم ، ولكن السحر فى الأوديسة يستخدم بوفرة أكبر لأن مجالاته أكثر فى غربة الرحالة أو فى الحياة المنزلية فى ذلك العالم البعيد . ويستبعد الدارسون لذلك أن تكون الأوديسة من ابتكار مجتمع أكثر استقرارا من المجتمع الذى أنتج الالياذة ، لأن من يتأمل معالم العالم والمجتمع المرسومين فى الأوديسة يجدهما بنفس الدرجة من الاضطراب والاستعداد للفوضى ، ومن الابتعاد عن الالتزام بقانون حضارى سلوكى .. ولا يوجد مجتمع منتظم ومهذب فى الأوديسة ، سوى مجتمع « شيريا » المدينة البحرية التجارية الأمينة بعيدا عن ايثاكا وعن اليونان كلها - رغم أن هوميروس منحها ملامح يونانية .. إنه مجتمع يشبه فى الحقيقة مجتمع طروادة التى دمرها أوديسيوس ورفاقه فى الالياذه .. ولكنه هنا يستنجد بها لكى تعيده على احدى سفنها الجبارة إلى وطنه سالما وغانما .

فالأوديسة إذن ملحمة عن الارتحال والغربة وعن الاستقرار والأمن ، وعن وفاء زوجة وابنها ورعاياها للزوج الأب الملك ، فى وجه عربدة الأمراء الشباب الذين يريدون أن يرثوا ملكهم المغترب فى زوجته وقصره ومملكته .

ومع ذلك فان عددا آخر - لا يمكن تجاهله - من الدارسين لأدب هومير ، يرون أن أناشيد بعينها ، أو أن أجزاء كاملة من الأوديسة التى بين يدينا الآن ، قد أضيفت الى الملحمة الأصلية ، لأنها ترسم فى هذه الأجزاء صورة لعالم لم يكن قد وجد فى العصر الملحمى - عصر هومير : فيرون مثلا أن كل ما يرويه فى الأوديسة عن مصر ، وعن الفينيقيين - شعب لبنان القديم - لابد أن يكون قد أضيف الى الأوديسة خلال القرون الخمسة السابقة على الحياة مباشرة ، أو حتى بعدها بقليل : فانتشار اهل الجزر من اليونانيين - من بحر إيجة - فى مصر - بل ومحاولاتهم غزوها لم يحدث فى عصر هومير ، والمنافسة الشديدة بينهم وبين الفينيقيين لم تحدث فى عصره كذلك ، بل بدأت تلك الأحداث قبل عصره . بما لا يقل عن خمسة قرون : فكيف يرسمها أو يستوحيها فى ملحمته ؟

والخلاف - على اى حال - بالنسبة لتلك النقطة الهامة يدور حول طريقة الاضافة ومكانها: هل أضافها شعراء بعينهم قاصدين أم أضافها رواة مجهولون كانوا يشعرون بحرية التصرف فى هذا « التراث » الشديد المرونة والذى يسمح بناؤه الأدبى بالتوسع وبمسايرة العصر الذى يروى فيه ؟ وهل تمت هذه الاضافات فى المراكز اليونانية - التجارية والحربية والبحرية - التى انتشرت فى حوض البحر المتوسط الشرقى ،

أم تمت فى القواعد اليونانية الأصلية - فى جزر البحر الأيجى - وسواحل « أخايا » - اليونان - القديمة ؟ وما دور شعراء الاسكندرية وأساتذة مكتبتها فى كل هذه الاضافات التى تعكس اهتماما خاصا بمصر وفينيقيا التى نافس أهلها ، اليونانيون منافسة شديدة على التجارة مع مصر وعلى النفوذ لديها ؟

xxxx

ولقد قارن بعض الدارسين الغربيين والعرب بين بعض أحداث الأوديسة وبين ما ورد فى بعض الحكايات الشرقية والعربية من أحداث : يقارنون مثلا بين قصة أوديسيوس مع العملاق ذى العين الواحدة ( السيكلوب ) وبين حكاية السندباد البحرى مع المارد وكيف تطابقت الحكايتان تماما تقريبا ، ويقارنون بين هبوط أوديسيوس الى العالم الآخر لكى يعرف الطريق الى وطنه من روح الحكيم الميت تيريزياس ، وبين ما جاء فى رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى من رحلة بطله الى الدار الآخرة بحثا عن الحقيقة والحق وعن العدالة المفقودة فى الحياة الدنيا ، ويقارنون بين بعض ملامح البحر الأسطورية فى الأوديسة وبين الملامح المشابهة التى وردت فى سيرة الملك سيف بن ذى يزن ، أو فى ألف ليلة وليلة .

ولم يستقر هؤلاء الدارسون على رأى قاطع : هل تأثر اللاحقون من أهل الشرق بما جاء فى الأوديسة ؟ ، أم أنه كانت هناك أساطير وحكايات شرقية - فى الثقافات الشرقية الأقدم من الثقافة اليونانية بكثير - نقلت عنها الأوديسة كما نقلت عنها الأعمال الشرقية اللاحقة بينما ضاع الأصل الشرقى ولم يعد له أثر الا أشياء متناثرة كما فى حكاية الملاح الغريق

الفرعونية ، أو فى ملحمة جلجامش البالية القصيرة ، أم أن الثقافات تطرح أجوبتها فى أساطير تحمل نفس السمات وتتكون من نفس التفاصيل أو « الموتيفات »؟؟ هذه كلها « احتمالات » تستند الى نظريات قوية ، تتناقض أو تتكامل ، فى نشأة وتطور الثقافات ، وفى تفاعلها ، وكل من هذه الاحتمالات تسندها وتؤيدها شواهد وأدلة قوية توحى بأن الحقيقة قد تكمن ـ متناثرة ـ فى تكامل هذه النظريات كلها .

× × ×

والصياغة العربية التى بين أيدينا الآن ، أصبحت مثل صياغة « الالياذة » واحدة من عيون الأدب العربى الحديث بعد أن عربها درينى خشبة بنفس الأسلوب العربى الرائع الذى صاغ به الالياذة ، حتى لا تجد الآن مثقفا أو قارئا عربيا محبا للأدب ، من الأجيال الثلاثة الأخيرة ، إلا وله علاقة خاصة بهاتين الملحمتين من خلال تعريب درينى خشبة لهما وقدرته العظيمة على أعطائهما روح البيان العربى ، بينما يحافظ على جوها الأصيل وبيئتها الثقافية وجمالها وقوتها الخالدة .

**سامى خشبة**

## بيــن مينــرقا وتليمــاك

أنشد يا هوميروس !

وظل فى فم الأبد قيثارته المُـرنّة ، ونَـايَه المـطرب ، وعـوده الآنّ ، ونغمته الحلوة الحنون !

أنشدْ يا شاعر العُصُر الخالى .

وحُلَّ فى الأسماع موسيقى مـدويّة ، وفى العيـون دمـوعاً جـارية ، وفى القلوب رحمة ومحبة ، وانفح عرائس الشعر من لدنك سلطاناً ، وحـكمة وبياناً ، وسريراً وصولجاناً .

تَغَنَّ يا شاعر أولمب !

ولْترسلْ مِن جنتكِ نغمةً تنتظم الأفلاك ، ورنَّـةً تجلجـل فى الأفـق ، وآهةً تزلزل قلوب الجبارين !

* * *

سقطت إليوم(١) ونزح المغير بخيله ورجْله . فتعالىْ يا عـرائس الفنـون فافتقدى أوديسيوس فى ذلك البحر اللجى يَـذرعه ؛ مـوجة تلبسـه ومــوجَة تخلعه ، لا يعرف لمملكته ساحلا فيـرسوَ عليـه ، ولا شـاطئاً فيقصـد إليه . . . يخبط فى اليّمّ على غير هدى ، فيرسل عينيه فى الماء والسماء على غير بصيرة . . . زرقة متصلة فى العُلْو والسفل ، وتيـه لا نهـائى يخبـط فى أحشائه أسطول السادة المنتصرين . . .

والأقدار وحدها تعلم لماذا ضل أوديسيوس بجنوده فى ذلك العبـاب ،

---

(١) Ilium هى طروادة .

وقد عاد كل أقرانه إلى هيلاس بعد طول النأى وشحط المزار ، إلا هو وإلا هم ، ممزقين فى دار الغربة كل ممزق ، يتجشمون المصائب والأهوال ، ويتخبطون بين موج كالجبال ، ويخلصون من بحر إلى بحر ، ومن روع إلى روع . فإذا أرسوا على أرض وظنوا أنهم نجوا ، أفزعهم فيها غير الذى رجوا . . .

ولقد رقت قلوب الآلهة ، وودوا لو أدركوا برحمتهم أوديسيوس . . . إلا نبتيون الجبار ، رب البحار ، الذى يضمر للبطل فى أعماقه كل كراهة وكل بغضاء ، والذى آلى أن يصب على رأسه كل تلك الأرزاء . . .

وحدث أن كان نبتيون فى حرب مع الأثيوبيين ، فانتهزتها الألهة فرصة سانحة ، وعقدوا مجلس الأولمب فى ذروة جبل إيدا ، وتفضل الإله الأكبر ، زيوس [1] ، فافتتح الجلسة بكلمة مخلصة توجع فيها لما يلقاه بنو الإنسان من صروف الحِدْثان ، واستطرد فذكر مأساة أجاممنون المسكين وما لقيه على يدى زوجه وعشيقها الأثم إيجستوس من غدر وجهلة ، ثم أنحى باللائمة على هؤلاء البشر البائسين الذين يقولون إن كل ما يصيبهم من خير وضير هو من عند الآلهة ، وما هو إلا من عند أنفسهم . . . ولكن لا يفهمون !

ثم نهضت مينرفا ربة الحكمة ، ذات العينين الزبرجديتين ، فأيدت ما قال أبوها سيد الآلهة ، وأثنت عليه ، ثم ذكرت أوديسيوس . . « ذلك التعس المسكين الذى تخبّطه [2] وصحبَه البحر ، وقُضى عليه ـ دون أقرانه جميعاً ـ أن يشقى هذا الشقاء الطويل ، عند عروس الماء

(1) Zeus أو Jove أو Jupiter

(2) أضله وأفسد عليه طريقه .

الفاتنة كالپسو فى جزيرة أوجينجيا ، ثمانية أعوام أو يزيد . ما ذنبه ؟ ما جريرته ؟ لماذا يُنفى هذا العبد الصالح فى أقصى الأرض يا أبى ؟ إنه خير عبادك أجمعين . أذكر كم ضحى الأضْحَيَاتِ باسمك ، وقدم القرابين من أجلك ، وحارب أعداءك ، وجاهد شانئيك ! لقد نمى إلىَّ أن كالبسو تحاول جاهدة أن تستميل قلب البطل ، وأن تنسيه وطنه إيثاكا . . . يا للهول ! كيف يا أبتاه ! وهذه الزوجة التاعسة پنلوب ؟! بنلوب المحزونة المرزَّأة ! بنلوب التى صبرت وصابرت طوال هذه السنين على ما كرثها الدهر به من بُعد زوجها ؛ بنلوب التى حافظت على طهرها وإخلاصها ؛ أتظل هكذا سجينة فى قصرها المنيف الباذخ ، ويظل هذا القصر محاصراً بعشاقها المجانين من أمراء الأقاليم ؟! أبى ! يا سيد الأولمب ! ألا تدرك برحمتك أوديسيوس ، وترده إلى وطنه ليذود هذه الكلاب التى ولغت فى حوضه ، وكادت تخوض فى عرضه ؟ تداركْه يا أبى ؛ تداركْه بعطفة واحدة منك ، وإنك على إنقاذه لقوى مكين » .

واستجاب لها سيد الأولمب ، وقضى أن يعود أوديسيوس إلى إيثاكا ؛ لكنه ذكَّرها بَرب البحار نپتيون ، وذكرها بما بينه وبين البطل من تِراثٍ وثارات ، « سببها هذه الفعلة الجنونية التى فعلها أوديسيوس بواحد من السيكلوبس[1] ، أبناء نبتيون إذ اقتلع عينه الواحدة التى كان ينعم بسبيلها بزينة الحياة . . . إطمئنى يا بُنية وقرى عيناً . . . إننا نحن الأعلون ، وسيرى نبتيون أنه لن يغلب الآلهة مجتمعة أبداً . . . » .

وشاعت الغبطة فى أعطاف مينرڤا ، وتضرعت إلى مولاها أن يُنفذ ولده

(١) سيأتى ذكر ذلك فى الكتاب العاشر من الأوديسه .

هرمز إلى جزيرة أوجيجيا ، فيأمر عروس الماء كالبسو أن تعد مركباً عظيما لأوديسيوس ورفاقه ، ليعودوا عليه إلى أوطانهم ؛ ثم ذكرت أنها ستمضى من فورها إلى إيثاكا حيث العشاق المآفين يحاصرون قصر بنلوب ، وحيث ابن أوديسيوس المنكود ، تليماك ، يشهد خراب مملكة أبيه ولا يستطيع أن يحرك ساكناً ، لصغر سنه . . . « إنى سألهب إحساسه ، وأفتح عينيه على ما ينبغى . . . سأجعله يخرج من هذه العزلة المعيبة ليبحث عن والده ، فإنه لم يعد طفلا بعد . . . » .

وانطلقت مينرڤا فربطت نعليها السحريتين ، على قدميها الجميلتين ، وحملت رمحها العظيم الذى تَقطر المنايا من سنانه ، ووضعت تاجها المرصع على رأسها الكبير ، وأطلقت ساقيها للريح ، حيث كانت بعد لحظة على مقربة من قصر أوديسيوس ، فهبطت من السماء الى الأرض ؛ وفى لمحة انقلبت فاتخذت شكل الآدميين ، وتخايلت فى جسمان الأمير منتِس[1] وطيلسانه ، ثم تقدمت فدخلت ردهة القصر الواسعة ، حيث اجتمع العشاق المجانين من أجل وليمة ، وتلفتت يمنة ويسرة ، ورأت الفتى السادر الساهم الحزين تليماك ، وقد تعقدت فوق جبينه هموم . . . وهموم ، وتغضنت ملء أساريره آلام . . . وآلام .

وما هو إلا أن لمحها تليماك حتى أخذه من هيبتها شىء عظيم . . فهب للقائها مسرعاً ، ثم مد إليها يده مصافحاً وهو لا يعرف من هى ، وقال : « مرحباً مرحباً بالغريب المكرم ! هلم فشارك فى ذلك القِرى ،

(١) يروى أن منتس كان بحاراً غنياً وكان يحمل هوميروس فى رحلاته الواسعة من غير أجر ، ولذلك كافأه هوميروس فخلد اسمه بذكره فى الأوديسة .

ولنتحدث بعدها فيما أقدمك إلينا .. مرحباً مرحباً وأهلا وسهلا ! ...»
ودلف نحو الصالة المزخرفة ، وتبعته مينرفا ، وفي يمناها رمحها الجبار الذى يقدح من سنانه الشرر ؛ حتى إذا بلغا العمود الأكبر الذى أُسندت إليه مئات الرماح ، والذى كان أوديسيوس يسند إليه رماحه وعدة حربه ، تناول تليماك الرمح وأسنده بعد جهد ، حيث برز بكل عظمته وكل جلاله بين رماح العشاق الفاسقين . وتقدم نحو أريكةٍ وثيرةٍ منعزلة ، وسأل مينرفا فاستوت عليها ، وكانا ثمة بمأمن من أن يستمع إليهما أحد .. وأقبلت جارية فينانة رائعة تحمل طَسْتاً وإبريقاً من الذهب ، فصبت الماء على يدى الضيف ويدىّ تليماك ؛ ثم مضت فأحضرت مائدة نُسِّقت عليها الورود والرياحين ، ونشط النادل[1] يحمل أطباق الطعام والفاكهة والحلوى ، فيأتى بها ملأى ويمضى بها فارغة ... والندمان[2] فيما بين ذلك يجذب الزق[3] إليه ويسقى ... ثم يسقى ... وشرع العشاق المجرمون بدورهم يلتهمون ما لذ وطاب من أُكُل وشراب ... حتى إذا انتهوا شرع فيميوس نايه وانطلق يغنى .

وانتهز تليماك فرصة انصراف القوم إلى لهوهم وشرابهم فساءل الضيف قائلا :

« يا أعز الأصدقاء ! أرأيت إلى أولئك الفُسَّاق ، لو أن رب البيت هنا ، أكانوا يلهون لهوهم هذا أو يفسقون فُسُوقهم هذا ؟ كلا ! لقد كانوا إذن أسرع إلى الهرب ، منهم إلى ذلك الطرب ؛ ولكن ... أواه ! ...

(١) النادل خادم المائدة .

(٢) الندمان ساقى الشراب .

(٣) الزق قربة الخمر .

أين هو ! أين أوديسيوس العظيم الذى انقطعت عنا أخباره ويئست من أوبته دياره . ولكن حدثنى بربك من أنت ؟ ومن أى الأقاليم قدمت ؟ ومَنْ رجال البحر الذين ألقوا مراسيهم عند إيثاكا ؟ أغريب أنت أيها السيد ؟ أم كنتَ فيما خلا من الزمان من أصدقاء أبى وأحبائه ؟ ».

وقالت مينرڤا ذات العينين الزبرجديتين :

« ليهدأ بالك يا بنى ، فإنى مجيبك على كل ما سألت . إنك ترى الآن منتس أمير ( جزيرة الطافيان ) البحَّارين ، وسليل انخيالوس الكبير . ولقد أبحرنا من جزيرتنا ميممين شطر جزيرة النحاس من أجل ذلك المعدن الثمين ، وسفائننا ملقية مراسيها بالقرب من غابات ( نيوس ) . ولقد كنا ولانزال من أحب ضيفان أبيك وأودهم إلى فؤاده ، فلما سمعنا بما حل به من شدة ، وبيته من لأواء ، إستوحينا آلهتنا فخبَّرتنا أنه لابد عائد إلى وطنه سالماً غانماً ، وأنه لابد منتقم من هؤلاء الفجار الأشرار . . ولكن خبرنى بأربابك ، أفى الحق إنك لأنت ابن أوديسيوس العظيم ؟ إن ملامحك تشبه ملامحه ، وإنك لقريب الشبه منه جداً ، وإن هذا البريق الذى يشع من عينيك هو نفسه الذى كان يشع من عينى أوديسيوس ، يا للآلهة ! كم سَمَرْتُ إلى أبيك قبل أن يشد رحاله إلى طروادة ! فهل يُقَدَّر لى أن أسْمُرَ إليه مرة أخرى ؟ إننى من وقتها إلى اليوم لم أره ، وهو كذلك لم يرنى . . . ألا ماأشوقنى إليه ! ما أشوقنى إليه !. . . » .

وشاع بارق من الأمل فى نفس تليماك فقال : « ويحك أيها الصديق ! إننى أنا ابن أوديسيوس ما فى ذلك ريب ، والعالم كله شهيد

على ذلك » .

ثم اختلطت الزرقة بالخضرة فى عينى ربة الحكمة وقالت : « على رسلك يا تليماخوس ! إذن فما هذه الولائم وتلك السُّمُط ؟ وهذا الزحام من أين أقبل ؟ إنى لأقلِّب ناظرى فى القوم فلا أرى شريفاً ذا حسب يستأهل أن يُحتفى به أو يقام له وزن !» .

ويبتئس تليماك ويجيب : « أيها العزيز ... لقد هاجرت الفضيلة من هنا إثر المهاجر العظيم ، وكأنها آلت ألا تعود إلا معه ! وكان هو ، تداركته السماء ! يلقنها هؤلاء بنظرة واحدة تكفى لتزول منها الجبال ... وا أبتاه ! لقد أطمع العاديات فينا بطول نأيه . فيا للنوى ! إننا لا ندرى اليوم أين مقره ولا أيان مستودعه . ولو قد خر تحت أسوار إليوم لاجتمع الإغريق من كل حدب هنا ... هنا ... فى حاضرة إيثاكا ليذرفوا دموعهم من أجله ، وليقيموا له نصباً عالياً رفيع الذرى شاهق الأرواق ، وليكتبوا اسمه الكريم فى صحائف صدورهم بمداد أبدى من التبجيل ... ولكن !... وا أسفاه !... لقد انتصر انتصار الأبطال ، ثم مضى على وجهه وراء البحار فى فجاج الثبج ، وغدونا لا تحلم العين بنظرة مفردة منه ، ولا الأذن بلفظة عذبة من لسانه المبين !... تباركت يا آلهة الأولمب ! ماذا عندك من الأقضية المخبوءة لى ؟ الذئاب ! إى يا آلهة هذه الذئاب ! وحوش البرية التى اجتمعت من كل فج ... من الجزائر المتناثرة فى البحر ، ومن المدائن المترامية فى البر .. من ساموس ودلشيوم وزاكنثوس ومن كل إقليم وكل مصر ... كلهم يرابطون حول هذا القصر ولا يستحيون .. الفُسَّاق ! الأوباش العرابيد ! يطلبون

يد الزوجة الوفية ... الأم المكلومة ... بنلوب ! الباكية المحزونة المصدعة ! كنز أوديسيوس الذي لا يفنى ! يطلبون يدها ولا يرحمون وفاءها وبكاءها ولأواءها ... فلا تستطيع أن تردهم لعجزها ، ولا تستطيع أن تجيبهم وهى لا تدرى من أمر زوجها ... وهم طوال هذه السنين يريغون نعماء أبى ، فكههين فى أشربات وآكال ، حتى أقفر الزرع وجف الضرع ، وما أحسبهم مبقين على شيء ... حتى على !» .

* * *

وانثال الحنان فى فم مينرفا ، إذ هى تجيب الفتى المحزون :

« ويح لك أيها الفتى ! رحمتا لك يا بنى الصغير ! أواه ! لو أن أباك هنا اليوم ليذود أولئك المناكيد ! وحق السماء لو أنهم رأوه وهو يلاعب رمحيه أو يداعب سهامه لأجفلوا وولوا مدبرين ! إن له لسهاماً مسمومة سقاها أبى بعد إذ رفض أن يسمّها إيلوس بن مرمريس[1] ... وهو لو صوبها إلى أولئك المفاليك لأبادهم ... يا رحمتاً له ! إن أحداً غير - الآلهة - لا يعلم إن كان لا يزال حياً يرزق أو هو قد ابتلعه اليم أو عاجلته المنون ... تليماك يا ابن أعز الناس علّى ! أصغ إلّى ، وَع الذى أقول : إنك لست طفلا بعد ! فلم لا تشمر عن ساعد الجد وتبحث بنفسك عن أبيك ! لِمَ ترضى أن يلطخ شرف بيتك هؤلاء الفجار ؟ لم لا تكلمهم بنفسك فى أمر أمك ؟ ولم لا تصرفهم عن هذه الدار إلى بيت جدك ليطلبوا إليه يد ابنته إن شاءوا ؟ أليس أبوها أليق لهذا الشأن من كل رجل سواه مادام أوديسيوس لم يؤب ؟ لِمَ يربضون هنا

(١) أورد هنا هوميروس أسطورة لم نر أن نوردها تخفيفاً

كسباع الفلاة يوهون ثروتك ويأكلون مالك ويذهبون بـالأخضر واليـابس ممـا ترك أبوك ؟ إستمع لما أقول يا تليمـاك ! نبىء القـوم فليجتمعـوا لك ، ولتسمعهم كلمتك ، ولتصارح أمك إن هى أرادت منهم بعلا فلتنصرف إلى بيت أبيها فهو أولى بهذا الأمر من كل أحد . ثـم انهض أنـت يـا ابـن أوديسيوس ! فابحث عن أوديسيوس . أعِدَّ ما استطعت من سفين وزاد ، وميرة وعتاد ، ولتبحر على بـركة الآلهـة ، فلتـذهب أولا إلى ( پيلـوس ) حيث الحكيم الباسل نسطور ، ثم إلى أسبارطة حيث صاحب هذه الـداهية منلوس[1] . . . أقلع بفلكك إلى هذين فسائلهما أين مضى أبـوك فقـد تقـع منهما له على خبر . . . ولتكن لك أسوة فى الفتى الجرىء المقدام اورسـت الذى قتل قاتلى أبيه[2] ، وفيهم أمه . . . بـوركت يـا أورسـت ! بـوركت يا أورست ! هلم يا تليماك فقد تعود بأبيك حياً فيـرد الشرف والمجـد إلى هذا البيت ، وقد تعود به ميتاً فـترفع ذكره ، وتقيـم قبـره ، وتخلـد فى العالمين أثره ! والآن ، فلأنهض أنا إلى رجـالى وسـفنى . فلقـد بعـدت طويلا عنهم . . وكلى يقين يا بنـى أن تقـدر نصـيحتى وعلى الآلهـة فلتتوكل ! » .

وحين انتهت مينرفا من هذا الحديث ، حـدجها تلماك وقـال : « أيهـا الصديق حباً ، ويا أبر الأوفياء سمعاً ! لقـد أيقـظت فىّ ضـميراً أنـت أحييته . فألف شكران لك . . أبـداً لن أنسى كلمتـك : أنـا ابـن أوديسيوس ! فلأبحث عن أوديسيوس » وحاول الفتى أن يقدم لمحدثه هـدية سنية تكون تذكار هذا اللقاء ، ولكن مينرفا شـكرته وأبـت أن تـأخذ شـيئا

(١) زوج هيلين أخت بنلوب والتى كانت سبب حرب طروادة .

(٢) أجاممنون .

« فإذا نجحت فى مسعاك يا بنى فسوف أعود ، وسوف أقبل أية هدية منك ! »

ثم انطلقت ربة الحكمة ، ذات العينين الزبرجديتين . ولشد ما ذهل الفتى ووقف مسبوهاً مشدوهاً حين رأى هذا الأمير ( منتس ) ينتفض انتفاضة هائلة فيكون نسراً قشعماً يضرب الهواء بجناحيه ، ثم يعلو ويعلو . . . فيكون فى السماء ويغيب عن ناظريه !

ولم يحس الفتى يوماً بما أحس به الساعة من هذه الذكريات الملحة على فؤاده تهيج فيه الشوق إلى لقاء أبيه ، وجدد الثقة عنده وأكدها فيه يقينه أن إلهاً يساعده ، هو هذا الضيف الذى أرسل جناحيه وغاب فى السماء .

وانطلق تلياك حيث جلس الفساق يستمعون إلى أغانى فيميوس ، وحيث وجد أمه فى الشرفة العليا تستمع هى الأخرى إلى تلك الأغاريد بين قيانها من وراء ستار صفيق وتبكى . . وتسأل فيميوس أن يتغنى غير هذا الغناء غناء لا يثير شجوها وشجنها . . وتثور النخوة فى قلب الفتى فيصيح بأمه : « علام العويل يا أماه ؟ وما ولولك هذا الموقف تسترقين الغناء ؟ وما اعتراضك على المغنى ؟ دعيه فليتغنَّ ما يشاء ، فلقد غدونا سخرية القضاء وهُزُوَ المقادير . ولقد ذهب أوديسيوس وذهبت معه كرامة هذا البيت ، وإلى لصاحبها بعده . . فادخلى ، وليدخل معك قيانك ، ولتقمن جميعاً بشؤون المنزل ولتَخلنَّ إلى مغزلك ومنسجك ، ودعى كل ما عدا ذلك للرجال . . لى . . لى أنا وحدى : سيد هذا القصر ! » .

وأثرت مقالة الابن فى نفس أمه ، فانثنت مع قيانها الى مخدعها بالطابق العلوى ، حتى إذا خلت إلى نفسها ذرفت من الدمع على أوديسيوس ما شاء

لها حزنها أن تذرف . أما تلياك فقد انطلق وسط القوم ونادى بأعلى صوته : « أيها الفساق ! يا عشاق أمي ! خذوا في لهوكم ، وتمتعوا قليلا أو كثيراً ، فإذا كان الغد فاجتمعوا في الساحة الكبرى ، فإن لي كلاماً معكم . . . سأطلب إليكم أن تشدوا رحالكم من هنا ! أتسمعون !

لقد طالما أتلفتم لنا زاداً وعتاداً . . . ألا فلتلتمسوا الزاد والعتاد من عند أنفسكم ؛ ولتقيموا أفراحكم وولائمكم في غير هذا المكان ؛ فإن أبيتم فإني مستعين بالآلهة عليكم ، ولتقتص منكم السماء بما جرحتم . . . » .

وما كاد يفرغ من قالته حتى عضوا على أصابعهم لمفاجأتهم بهذا الكلام الخشن الذي لم يعتادوه . ونهض أنتينوس من مجلسه وقال : « تلياخوس ! لقد حق لك أن تخاطبنا بهذه الشجاعة ، ولكن . . . يا لشؤم اليوم الذي تتوجك السماء ملكا فيه على إيثاكا . . عرش آبائك وأجدادك ! » .

ويجيب تلياك : « ليس أحب إلىَّ من الملك حين تخلعه علىَّ السماء . . . غير أن أمره إليكم اليوم إن كان قد قضى أوديسيوس . . أما أنا . . فلا أريد إلا أن أكون سيد هذا القصر . . ولا غرو . . فإن هذا من حق ! » .

وأجابه يوريماخوس : « إن من حقك أن تقول ما تشاء يا أخانا تلياخوس . . أما مُلك إيثاكا فالسماء وحدها تؤتيه من تشاء . ولكن قل لنا بربك من هذا الضيف الذي كان معك الساعة ؛ هل من قِبل أبيك أقبل ؟ أم إن له عليكم لَدَينا ؟ إن أحداً منا لم يلقه ولم يره ، ولكنا لحناه من بعد ؛ عليه سيماء النجابة والجلال . من أين أقبل يا تلياخوس وفيم قدم ؟ . . . » .

وأصلح تلياك من شأنه وقال : « أيها السيد يوريماخوس ! إن يقيني أن أبي قد انتهى .. ولن تغريني هذه الكلمات المعسولة التي يتشدق بها المنجمون .. أما هذا الضيف .. ف ... هو من أصدقاء أبي طبعاً ، وقد أقبل لمجرد الضيافة ، وهو الأمير منتس أمير البحارين وسيد تافوس ، وابن سيد هذا الزمان ، الملك الشجاع أنخيالوس . »

قالها تلياخوس وهو أعرف الناس بضيفه ؛ ثم انثنى كل إلى مخدعه ، وانثنى تلياك الى مخدعه بالطابق العلوى .. حيث كانت مربيته يوريكليا تنتظره ، وتوقد له الشموع والسرج . يالها من أنثى طيبة تخلص لمولاها وتحنو عليه .. لسرعان ما خلع ملابسه فعطرتها وحفظتها ! ... ولسرعان ما هيأت له فراشه الوثير ..

وقضى تلياك ليلة نابغية ممتلئة بالهواجس والأفكار .



# تليماك يجادل العشاق

موّهت أورورا[1] ، ابنة الفجر الوردية مشرق الأفق ، فهب ابن أوديسيوس من مرقده ، وأصلح من شأنه ، وتقلد سيفه[2] ، ثم انفتل مختالاً ، كأحد آلهة الأولمب من باب مخدعه ، وجعل يقلب عينيه في هذه الخيام المضروبة التى تملأ حديقة القصر ، والتى يثوى فيها أولئك الفجار الأشرار عشاق بنلوب ؛ وتلبّث قليلا وفي القلب لظى ، وفي النفس كلوم ؛ ثم صاح بالملأ فهبوا مسرعين ، وأخذوا يَنْسِلون إلى الردهة الكبرى ، حتى إذا انتظم عقدهم والتأم شملهم تقدم هو متهدجاً نحو عرش أبيه ، وفي يمينه رمح ظامىء إلى تلك الدماء النجسة التى تتدفق في أبراد تلك الذئاب ، وعن جانبيه كلباه الضاريان ، وفي عينى كل منهما جمرتان . وكانت مينرفا نفسها تضفى على الشاب سيماء النبل ، وترقرق فوق ناصيته أمواهاً من العظمة والمجد ، لتقذف منه الرعب في قلوب أعدائه ، حتى لبهرهم أن يروا في تليماك ذاك الضرغامة المختال .

وما كاد الفتى يستوى على عرش آبائه الصيد ، وأجداده الصناديد ، حتى نهض شيخ يحمل فوق كاهله السنين الثقال ، وتشتعل في رأسه شيبة التجاريب وجلائل الفعال . وكان هو إيجبتوس بعينه .. إيجبتوس المسكين الذى بعث بولده أنتيفوس في أسطول عظيم وجند لجب ، ليشارك في حرب إليوم مع أوديسيوس ، فنازل وناضل ، وكر وفر ، وجال

---

( ١ ) ربة الفجر في الميثولوجية اليونانية وإحدى تابعات أبوللو وهادية عربته - الشمس - عندما تبزغ من أبواب المشرق .

( ٢ ) في الأصل ( صفيحته ) وهى السيف العريض القصير Faulchion .

وصال ، وصمد وانتصر .. ولكنه .. وأسفاه !.. لم يعد إلى أوطانه فى العائدين ، بل صحب أوديسيوس فى رحلته المشئومة وراء البحار حيث أكله السيكلوب الوحش فيمن أكل . وقف إيجبتوس بين أبناء له ثلاثة ، أحدهم من عشاق بنلوب ، ثم قال :

« أيها الرفاق ! يا أبناء إيثاكا النبلاء ! إنها أول مرة منذ أن بارح أوديسيوس بفلذات أكبادنا نُدعى فنجتمع مثل هذا الاجتماع . فما الذى دعا إليه ، وماذا يبتغى ؟ أنفحة من نفحات الشباب ، أم زفرة من زفرات الشيب ، أم خبر من جيشنا الهالك يبشر بعوْدٍ ؟ لينهض باركته السماء فليحدثنا عما دعانا إليه » .

وتناول تلياك صولجانه من قواسه ، وتقدم حتى كان فى وسط القوم . وجهر فقال .

« أنا أيها السيد الوقور صاحب هذه الدعوة : أنا تلياخوس بن أوديسيوس ، صاحب هذه الدار وصاحبكم ومولاكم من قبل .. لقد دعوتكم لأشكو إليكم بثى وحزنى .. لا لأزف إليكم بشريات الجيش المفقود الذى لا يعلم مصائره إلا زيوس ! لقد فقدت والدى ، ووالد الايثاكيين جميعاً ، ثم أنا اليوم حبيس هذه الدار ، أسير هؤلاء العشاق [1] الذين يطمعون فى الزواج من أمى ، غير متقين فى عرضى إلاّ ، ولا راعين لأبى ذمة ، يذبحون النَّعم [1] ، ويرغون [2] الزاد ، ويعاقرون ابنة العنب ،

( ١ ) يلاحظ القارىء أن الاجتماع كان عاما ولم يكن قاصرا على العشاق فقط ، بل ضم جمهوراً من أهل إيثاكا كذلك .

( ١ ) الماشية .

( ٢ ) يدسمون .

ولا يبالون أن يهلك الزرع والضرع ، ما داموا يبيتون وبطونهم ملأى ، ويبيت غيرهم على الطّوى . . . ! لقد استباحوا هنا كل شيء ، مادام لا أوديسيوس هنا فيردعهم ، ولا حول لى فأغل أيديهم ، ولا ضمائر فيصيخوا إلى قولى ، ويرحموا ضعفى ، ويذهبوا من فورهم إلي جندى فيخطبوا إليه ابنته إن أرادت إحدهم بعلا ، فهو بها أولى وبشأنها أحق . . إنكم ضعفاء أيها الإيثاكيون الأولياء . . ولو استطعتم لرددتم عنى غائلتهم . . فلقد طفح الكيل ، وحزب الشر ، وعم الأذى . . والآن ، أوجه إليهم قولى . . ، ولن أستحى أن أصارحكم مرة أخرى أيها العشاق . . . اخجلوا إذن ! ولتصبغ الفضيلة وجناتكم بحمرة الحياء ! أذكروا ما عسى أن يعُيّركم به جيرانكم ! واخشوا قارعة تحل عليكم من أربابكم . . . واتقوا يوم تلقونهم تودون لو تلقفتكم الصواعق . . . يا قوم ! أستحلفكم بسيد الأولمب ، بربة العدالة ثيميس ، إلا ما تركتمونى أقضى البقية الباقية من أيامى فى شقوتى وحدى ! هل أجرم أبى مرة مع أحد منكم فأنتم اليوم تأخذوننى بجريرته ؟ فيم إذن مقامكم هنا ؟ وفيم إذن تستنزفون آخر قطرة من خمرى دون مقابل ؟! إذهبوا ! إذهبوا ، ودعوا تليماخوس البائس تحز فى نفسه أشجانه ، وتبرى اصطباره بلواه !!» .

ودق الأرض بصولجانه ، وانفجر يبكى ، وكأنما انهمرت دموعه فى نفوس القوم ، فوجموا وجوماً شديداً ، ولم ينبس أحدهم ببنت شفة . حتى نهض أنتنيوس آخر الأمر فقال :

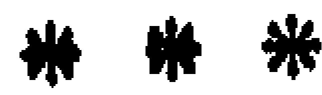
« لله بيانك يا تليماخوس ! لقد كنت مصقعاً حقاً ! ولكنك لم تصب كبد الحقيقة حين قصرت علينا اللوم ، وحين لا ملوم إلا أمك ! لقد

خدعتّنا جميعاً طوال سنوات ثلاث كادت أن تتم أربعاً ، إذ رسائلها تترى علينا ، تُحيى فى نفوسنا الآمال ، وتذكى فينا الأمانى ! لقد كانت وعودها تترادف كالبروق الخُلَّب ، وتتراءى كالسراب المضيل ! لقد إتخذت لها منسجاً وطفقت تعمل عليه وهى تغرر بنا ، وتقول : « أيها الإغريق : لقد قضى أوديسيوس ما فى ذلك ريب ، وكلكم تطمعون أن تفوزوا بزوجته ، ولكن أبى ليرتيس رجل شيخ ، وهو يدب بخطى وئيدة إلى حافة القبر ، أفليس أخلق بى وبكم أن تنتظروا حتى أنسج له هذا الثوب ، لتكون منه أكفانه ، وحتى لا أكون مضغة فى فم الإغريقيات إن تركته برغم ثروته الطائلة وليس له كفن يضم رفاته » . ولقد أجبنا سؤالها وتلبثنا طويلاً ، نرجو لو تفرغ من نسج هذا الكفن ، بيد أنها كانت تنقض بالليل ما تنسجه بالنهار ، وهكذا دواليك ، ظلت تخادعنا تلك السنين الثلاث ، حتى فضحت سرها إحدى وصيفاتها ، إذ حدثتنا به ، واستطعنا أن نضبطها وهى تنقض غزلها أنكاثا فى ضوء المشاعل ، فى جنح الليل ، فأجبرناها على إتمامه بالرغم منها .. هذه هى الحقيقة يا قوم ! والآن ! فلترسل أمك أيها الفتى إلى أبيها ، وليختر لها من بيننا بعلا ، أو فلتختر هى لها بعلا .. أما إذا عكفت على ختلها بنا ، فلتثق أن شيئاً منه لم يعد يجوز علينا ، مهما ظنت أنها أحذق من تيرو ، أو أكيس من ألكمينا ، أو أبرع من ميسينيه[٢] ... حسبها ما خدعتنا ! وإنا نقاسمك يا تلماك أننا لن نبرح عاكفين على ما شكوْت ، من ذبح لنعمك ، وإراغة لزادك ، ومعاقرة لخمرك ، حتى تختار لنفسها ؛ أو ... فَلْتَعْفُ هذه الدار ، ولينضب معين خيرها » .

(١) من ربات الفنون .

وشاعت الكبرياء فى كل جارحة من جوارح تليماخوس فقال :

« أنتينوس ! ماذا أصابك ؟! كيف تسألنى أن أقهر أمى التى غذتنى ونشأتنى على غير ما ترضاه ؟ كيف أطردها من قصر بعلها الذى لا يعلم غير الله إن كان حياً أو ميتاً ؟ لبئس ما أجزيها به ، ولشد ما أغضب أبى وأثير غضب الآلهة علىّ إن فعلته !! إنها ستعدو إيرينيس كى تنتقم لها منى ، وستنصب على لعنات الناس جميعاً !؟ ويحك أيها الرجل ! لن أقولها أبداً . . . بل اذهبوا أنتم فسلوها ما شئتم ؛ فإما أجابت لطلبكم ، وإلا فانصرفوا غير مأحورين . . فأولموا ولائمكم فى غير هذا القصر ، وأريغوا من زادكم ، وأنفقوا مما تحبون !! أما إن رأيتم أنه أحلى لكم أن تأكلوا مال غيركم ، فأنى سأهتف أبداً بالآلهة أن تقتص لى منكم ، فهى محيطة بكم ! . . . »



وما كاد يفرغ تلياك من مقالته حتى أرسل سيد الأولمب نسرين عظيمين طفقا يضربان الهواء بخوافيهما ، ثم جعلا يُدَوِّمان فوق الملأ ، ويقدحان الشرر من أعينهما . . نذيرَىْ ردى ، وصيحة منون ، ثم انطلقا نحو المدينة وغابا فى ظلام البعد .

وشده القوم ، وريعت أفئدة العشاق ، وأخذوا يتخافتون . . . ثم نهض فيهم القديس هاليتير بن نسطور المعروف بورعه وصدق نبوءته ، فقال :

« أيها الناس ! يا أبناء إيثاكا ! اسمعوا وعوا ! ليحذر العشاق المعاميد

ما يخبىء لهم الغيب مـن شر أوشـك أن ينقـذف على رؤوسـهم ! إن أوديسيوس حى يرزق ، وإنه عائد إلى وطنه ، بل إنه ليُغذّ السير إلى هنا ! وإنه ليحمل الموت الأحمر إلى خصومه ، والخير الأخضر إلى مـواطنيه ! أنـا هاليتير ، قدّيسكم الذى لا يكذب قد أنبأته قبل أن يبحر إلى طروادة بذلك النبأ وأنه عائد إلى وطنه بعيد أن ينتصر على أعـدائه ، ويـذيقهم ضـعف ما صَنعوا ، ولن يجديهم أن يتوبوا او ينـدموا . وليـأتينكم نبـؤه بعـين حين !» .

وسخر القوم منه واستهزأوا به ، وقام يوريماك يرجمه بهذه الكلمات !

« انقلب إلى دارك أيها العجوز الخرف ! هلم إلى أحفادك الكسالى فتنبـأ لهـم بما ينبغى أن يأخذوا حذرهم منه ! لقد قصف المنـون عـود أوديسـيوس الفينان .. فليته قصف عودك كذلك ! طير ؟! هـا ! إن الـطير طـالما يستنسر فى سماء إيثاكا ؟ إن أكبر الظن أنك تطمع فى منحة من ابـن مـولاك تليماك .. ولكن اصغ إلى ؟ لتكن لك منحة منا إن تنبـأت لـه عما يـكاد يذهب بك وبه من بطشتنا إن لم يختر لنفسه ! أسمعت ؟ لقد نصحنا لـه أن يرسل أمه إلى بيت أبيها ليختار لها الكفء الذى ترضى ، فلم ينتصح ، وأنا أرسلها كلمة صريحة فى غير مين[1] ، أننا لن نبرح عاكفين على ما نحن من هذا الخير ، حتى تخضع بنلوب ، فنمضى مـأجورين .. وثـق ، أيهـا الشـيخ المهيب الخرف أن نبوءاتك لن تفزعنا ، بل هى تضـاعف سـخطنا عليـك ، وبغضاءنا لك .. ألا ما أطيب الإقامة هنا ؟! لتزدد بنلوب عنـاداً ، فـإنا لا نزداد إلا جلاداً ...» .

(١) مين : كذب وتزويق .

ونهض تليماك فقال :

« على رسلك يا يوريماخوس ! وعلى رسلكم أيها العشاق جميعاً . . . لقد أرسلتها كلمة حق فلم تستمعوا لها ! أبداً لن أضرع إليكم مرة أخرى . . . الآلهة بيني وبينكم ، والإغريق أجمع أعلم بأمرى وأمركم ؛ غير أن لى طلبة إليكم بودى لو أنلتمونى إياها .. فهل تسمحون لى بمركب وعشرين بحاراً فأقلع من فورى هذا إلى بيلوس ثم إلى أسبرطة ، عسى أن أسمع خبراً عن أبى ، أو أتلقف نبوءة من سيد الأولمب الذى بيده ملكوت كل شىء . . . إنى إذا أيقنت أن أبى لا يزال حياً فقد أوفق إلى العثور عليه ولو بعد حين ، أما إذا استيقنت من هلاكه فإنى عائد إلى إيثاكا ، لمقيم له نصباً يتفق وهذا المجد الباذخ والذكر التليد ، ثم يكون لى مطلق الحرية فى منح أحدكم يد أمى فتكون زوجه المخلصة إلى الأبد ، بعد أن أتم لأبى كل المراسيم الجنائزية ، لتقر روحه العظيمة ، وتسكن إلى ربها فى ظلال هيدز (1) .

وكان فى المجتمعين رجل تبدو عليه مخايل النبل ، وتتقد فى رأسه جمرات المشيب ، تهالك على نفسه حين وقف ينافح عن تليماك ، فإذا هو الشيخ منطور ، الذى كان أوديسيوس قد استخلفه على أهله قبل إبحاره إلى طروادة ، لصداقة قوية كانت تجمع بينهما . . . قال منطور :

« إسمعوا إلى يا أهل إيثاكا ! ما لكم اليوم قد نسيتم آلاء مليككم أوديسيوس عليكم ، وهو الذى كان يرعاكم كأب ، ويغدق عليكم من فيضه العميم ؟ ما لكم قد تقاعستم دون هؤلاء العشاق الذين يذهبون بخير مولاكم ويأكلون مال ابنه بغير الحق ، وهم قُلٌّ وأنتم كُثْر ، آمنين

---

( 1 ) إسم الدار الآخرة فى الميثولوجيا .

مطمئنين ، لا يرهبون أوبة مفاجئة من البطل الشريد ... ؟ ».

وهاجت كلمة الرجل كوامن العشاق فهب أحدهم وهو ليوكريتوس ، يقول :

« رويدك يا منطور ! أيها الثرثارة العجول ! كيف تجرؤ أيها الرجل فتثير الشعب على العشاق وهم سادتك ؟ هل أعجبتك كثرتهم يا منطور ؟ إذن فابشر بعجزهم دون ما ابتغيت ، وثق أن ملك إيثاكا نفسه لن يستطيع معهم شيئاً إذا حاول إخراجهم من بيته هذا ، إذا قدر له يوماً أن يعود ؛ إنه إذا فعل فسيذوق وبال أمره ، ولن تنال منا حماقاتك ولا نبوءات هاليتير ، وبنلوب نفسها لن تسر بأوبة أوديسيوس ؛ ولكن إسمع أيها الشيخ ، إنه لن يضيرنا أن يذهب تلماخوس فيذرع البحر باحثاً عن والده ، وله أن يتخير من السفن ما يشاء ... » .

وتفرق القوم ، وأهرع العشاق إلى خيامهم ، وانقلب تلماك إلى سيف البحر ، حيث وقف فوق صخرة ناتئة يناجى مينرفا :

« أيتها الربة المباركة ! يا إلهة الحكمة مينرفا ! يا من كنت أمس ضيفة مكرمة تحت سقف هذا البيت ؛ أصلى لك ، أنا تلماخوس التعس ، وأبتهل أن تباركيني وتسددى خطواتى ، وأن تكونى رائدى الأمين فى عباب هذا البحر ، وأن تشدى أزرى وتكونى معى إلباً على هؤلاء الفساق العرابيد ، وأن تشرقى فى ظلماتى البعيدة ، وأن تحلى أمناً وسلاماً على ... يا مينرفا ، يا مينرفا ، إستجيبى يا ربة العدالة ... » .

واستجابت مينرفا ، وأقبلت فى صورة الأمين منطور حتى كانت قبالة تلماك ، ثم شرعت تكلمه كلماتٍ هن أروح من أنفاس الفجر ، وأندى من

نسمات الورود ، وأعذب من قطرات الندى :

« السلام عليك يا تليماخوس ! السلام عليك حين تثبت أنك ابن أوديسيوس الوفى وفرع دوحته الوارف ، وحين تبدو فيك بَدَوَاتٌ من حَوْله وطَوْله وقوة بأسه ، وحين تقُلع على بركة السماء وفى عناية الآلهة ورعاية سيد الأولمب ، فى رحلة لن تكون عبثاً ... أنت ابن أبيك يا تلماك ... أتى بك من پنلوب ... وآية ذلك هذه الروح القلقة التى تشيع فيك من أجله ، وهذا الجبروت الذى هو نفحة منه ، وذاك الصوت الجبار الذى يتلجلج فى فمك كأنه فيض من لسانه ، وذلك الذكاء الوقاد الذى هو قبس من ذهنه العظيم .. بشراك يا تلماك ! لا يحزنك خبال أعدائك فقد أوشك القضاء أن ينقض على رؤوسهم فيَحْطمهم ... أنا ... أنا هذا الشيخ المهدّم ، صديق أبيك وأمينه منطور ، سأكون معك ، وسأخدمك . وأسهر عليك ، وأفديك ... لكن لتمضى الآن فلتعد للرحلة ما هو حَسْبها من زاد وعتاد ، ولنخبئ أولى بأس من رجالك الأقوياء ، وسأنتق أنا نفسى أشدهم مراساً وأصدقهم عزيمة ... إمض على بركة الآلهة ... إمض ... لا وقت لدينا فنضيّعه ... هلم ... » .

وسكتت مينرڤا ... ولكن حرارة كلماتها أشرقت بالآمال فى نفس تلماك ، فذهب وقلبه يخفق بألف أمنية ... إلى القصر ... حيث رأى العشاق يُذبّحون ويعدون نار الشواء ، وحيث قفز أنتينوس للقائه ساخراً مستهزئاً :

« تلماك ! ناشدتك الآلهة إلا ما شاركتنا غداءنا واطرحت بغضاءك هنيهة ! هلم ! تحسُّ من هذه الخمر قرقفاً أيها الصديق ... لا يشغلك أمر

هذه الرحلة . . . فقد أمرنا أن يعد لك الآخيون سفينة عظيمة وقدراً من الزاد كبيراً ، وعصبة من الرجال أولى قوة . . . وستبحر قريباً لتذرع البحار وراء أبيك . . . هلم . . . هلم . . . » .

ولكن تلماك عبس عبوسة قاتمة ثم قال :

« أنتينوس ! إليك عنى فما أستطيع مشاركة خصومى السفْلة غداءهم ، ولا لى قلب فأشرب النخب من يدك ! لا بورك لكم هذا الذَّبحُ الذى لا يحل لكم ، والذى استبحتموه من غير حق ، إذ أنا طفل أحبو . . . أجل ! لأستعجلن لكم الخراب ولأسعين فى حتفكم ، ولأذهبن إلى بيلوس فأنتصر إذ عزلى النصر فى إيثاكا ! أيها الذئاب ! حتى سفالتى وعتادى تنكرونها على ! » .

وكان اللئيم قد أمسك بيمين تلماك كالمصافح المستهزىء ، ولكن تلماك جذبها ساخطاً ، وترك الكلاب تغمزه وتلمزه ، وتستهزىء بهذا العون الذى يرجوه من بيلوس ، وتلك الجحافل التى يأمل أن يجردها عليهم من أسبرطة . . . « ومن يدرى ؟ فقد يهتدى إلى إيفير المثمرة ، فيجد فى أعشابها بقلة يدس لنا منها فى كؤوسنا فتريحه منا . . . » . . . « . . . بل من يدرى ؟ إنا إذن نقتسم هذا المتاع وتلك الضياع ، ثم نمهر أحدنا الذى تختاره بنلوب بعلاً لها ، بهذا القصر المنيف ! . . . » .

تركهم تلماك ، ومضى قُدُماً إلى غرفة أبيه بالطابق العلوى ، حيث كنوزه التى لا تقدر ، من عدة للحرب وذهب مدَّخر ، وخمرة معتقةٍ ، ورَوْح إذْفر ، وخَزّ وديباج ، ودُرّ وجوهر ، ومغافر[1] أُعدت لليوم

---

(١) المغفر والمغفرة زرد يلبسه المحارب تحت القلنسوة

المنتظر . . . يوم يعود أوديسيوس فيظفر ويقهر ، ويطهر بيته من ذاك النفر . . .

ووجد عندها حارستها يوريكليا فصاح بها :

« ربيبة ! يوريكليا ! هيا ! صبى من خمرك فى زقاق ! من مدامتك التى ادخرتها لأبى . . . لا . . . لا . . . ليس من صفوتها يا ربيبة ، احتفظى بصفوتها له ، املىء اثنى عشر دِنًّا ، وهيئى عشرين جوَالِقاً من دقيق ، هيا . . . أعدِّيها كلَّها لتحمل إلى سفينتى بعد أن تنام الملكة . . . لا يعلمن أحد بأمر رحلتى إلى بيلوس واسبرطة . . . حتى ولا أمى ! سأرحل ثمة . . . سأتسمع أخبار . . . » .

وصمت تليماك هنيهة . . . واستعبرت ربيبته يوريكليا ، وأرسلت هذه الكلمات على أجنحة من الجنان ، وفى أنسام من الرحمة :

« رويدك يا بنى ! أى سفر وأى نوى ؟! لقد انتهى أوديسيوس وانتهى معه كل شىء ! وهو اليوم رفات سحيق فى رمس عميق فى بلد لا نعرفه ! أتسافر يا تليماك ليأتمر هؤلاء الذئاب ، وقد يسلطون عليك من يغتالك ، ثم يستصفون كل مالك بعد ذلك ؟ حاشاك يا بنى ! لتبق معنا نحن الذين أحببناك واصطفيناك ! فيم تذرع عباب هذا البحر ولا رجاء لك فى مطمح . ولا ثقة لك فى شىء ؟ » .

وأجاب تليماك فى رفق :

« رويدك أنت يا ربيبة ! إنى لم أعتزم شيئاً من تلقاء نفسى . . . إنها السماء هى التى توحى إلى ! ولكنى أستحلفك بكل أربابك ألا تقصى شيئاً مما اعتزمته على أمى إلا بعد أحد عشر يوماً أو اثنى عشر يوماً من

رحيلى ... فإنها لو علمت بسفرى لأظلمت فى عينيها مباهج الحياة وذهبت نفسها علىّ حسرات » .

وأقسمت يوريكليا بكل أربابها ، وانثنت تهيىء دنان الخمر وأحمال الدقيق .

أما مينرفا ! أما ربة العدالة والحكمة الخالدة ، ذات العينين الزبرجديتين ، فقد يممت شطر البحر وقصدت إلى المرفأ ، حيث لقيت نويمون بن فرونيوس سيد الملاحين ، وسألته إحدى جواريه المنشئات ، فأعد لها واحدة من خيارها . وما كادت ذُكاء تَلِجُ فى جِذْر الأفق ، وما كاد الشفق يبكى فيصبغ بدموعه جبين السماء ، حتى كان الملاحون قد هيأوا القلوع ونشروا الشراع ، وخبروا مجاديفهم وأحضروا عُددهم ، وتزودوا من السلاح ؛ وكانت مينرفا نفسها تستحثهم ، فسرعان أن تهادت السفينة ، ورقصت نشوى فوق هامات الثبج .

وذهبت مينرفا ، فى صورة منطور وفى طيلسانه فأشرفت على عصبة العشاق ؛ وتمتمت بكلمات فانتشر الظلام فوق خيامهم ، ولعب النعاس ملء جفونهم ، وكانت الكؤوس لاتزال تقهقه فى أيديهم ، فسقطت من غير عمد لتسق الأرض من تحتهم شرابا !

وطفقوا ، تحت طائف الكرى ، ينسلون إلى خيامهم ...

وأدلفت مينرفا نحو القصر لتلق تلياك :

« تلياك ! هلم ! البدار ! أنت هنا وكل رفاقك فى الفلك المشحون ينتظرونك ! هلم يجب ألا نضيع وقتنا سُدى » .

ونهض تلياك ! وسارت مينرفا ، وسار هو فى أثرها حتى كانا عند

سيف البحر ، وحتى أشرفا على السفينة .

« مرحباً يا رفاق ! هلموا فاحملوا هذه الدنان وتلك الأحمال إلى السفينة ! لا أحد يعلم أمر رحلتنا حتى ولا أمى ! إلا ربيبتى ! » .

وامتثل الملاحون أمر سيدهم ، ثم تقدمت مينرفا فركبت السفينة ومن ورائها ابن أوديسيوس وجلست هى عند الدفة ، ونشط البحارة فهيأوا المركب ، وحدجت المغرب ربة العدالة بعينيها الزبرجديتين فهبت النسمات رخاءً ، ورقصت تحتها الأمواج من طرب ، وانتصب تلماك واقفاً يحث رجاله ؛ واضطرب الماء تحت السفينة واصطخب ، وصب القوم دنانا من الخمر تقدمة للآلهة وقرباناً لمينرفا وتحية لاتينيد !

وأحلو لك الليل وتدجّى غيهبه ، ثم انجاب ظلامه عن فجر مبين !

# فى بيلوس ...

## تليماك يسائل نسطور عن أبيه

برزت ذُكاء من لجة المشرق فصبغت آرادها[1] الذهبية جبين الأفق النحاسى ، وسكبت الأضواء الجميلة لتهديَ إلى السبيل السوى ، وألقت السفينة مراسيها تلقاء بيلوس ، مدينة نليوس[2] ؛ حيث وجدوا القوم على الشاطىء يقربون القرابين باسم پوسيدون ، ذى الشعر اللازوردى ، وقد جلسوا فى صفوف تسعة ، وفى كل صف خمسمائة شيخ عتيد . وذبحت

(١) أشعة الشمس .

(٢) نليوس هو ابن بوسيدون ( نبتيون ) إله البحار وألد أعداء أوديسيوس .

كل فئة قرابينها : تسعة عجول سمان ذوات خوار ، فأكلوا الحوايا[٣] ، وضحوا بالسواعد والأفخاذ ؛ ثم أقبل تليماك وبين يديه مينرفا تتهادى وتقول :

« تليماخوس ! تشجع يا بنى ، ولا تجعل للاستحياء سبيلا إلى نفسك ، وتقدم إلى أمير هذه البلدة الصنديد ، نسطور ، فقد تكون لديه أخبار عن أبيك ، وقد يجلو لك الشكوك التى تخامرك ، وثق أنه لن يخفى عليك من أمره خافية ، فقد تقلمت به السن ، وهو اليوم أحكم الناس » .

ويقول تليماك :

« أواه يا منطور ! ما أحسبنى أقوى على لقاء الرجل ، وأنا من تعرف من قلة الشأن ورِقة الحال أنا الفتى الحدَث . أنَّى لى بلقاء الشيخ ذى التجاريب ؟ » .

وتجيبه ذات العينين الزبرجديتين .

« لا عليك يا بنى ! إن هى إلا كلمات تقولها وعلى الله قصد السبيل ! العالم كله يعرف أنك نشأت فى ظروف قاهرة ما كان لك بها بدان ! » .

ودلفت مينرفا ، ودلف فى إثرها تليماك ، حتى كانا فى وسط القوم ، وحيث جلس نسطور العظيم بين أبنائه ، وحيث اشتغل أهله بالشواء ، وهب الجميع للقائهما . وتقدم ابن نسطور الأكبر ، بيزستراتوس ، فصافحهما هاشاً ، وتلقاهما باشاً ، وأجلسهما فوق الفراء المبثوث إلى

---

(٣) الأمعاء وما إليها .

جنب أبيه ، وأخيه الأصغر تراسميديس ، وقدم لكل مضغة من حَوِيَّة ، ثم كأساً ذهبية من خمر معتقة ، تذوّقها قبل أن يحيى بها ، ثم قال مخاطباً مينرفا :

« مرحباً بك أيها الضيف المكرم ! لقد شرِّفت فى عيد نبتيون ، وبودّنا لو أفرغت باسمه ما فى هذه الكأس من خمر صلاةً له وزكاة ! ونرجو لو أشركت فى التقدمة زميلك ، فما أحسبه إلا محباً للآلهة ، خابتاً لها » .

وتبسمت مينرفا ، وتناولت الكأس فى وقار ، وأرسلت هذه الصلاة باسم رب البحار :

« نبتيون العظيم تقدس اسمك ، وأحاط باليابسة ملكوتك .. يا منقذ الضالين ومغيث المتضرعين ، أدرك بلطفك التائبين إليك ، ونجهم من دأمائك ببركة أسمائك ، مولاى وتقبل من نسطور ومن ذريته ، وتقبل من جميع أهل بيلوس أضحياتهم ، ثم تفضل يا مولاى فسدد خطى تليماخوس وخطاى إلى ما أقلعنا فوق هذا المركب الشاحب من أجله ... آمين آمين !.»

وتناول تليماخوس الكأس بدوره ، ثم أفرغ ما فيها ، وتمتم بصلاة قصيرة ؛ وما كاد يفرغ حتى تفرق المدعوون من أهل بيلوس طاعمين شاكرين ، إلا مينرفا وصاحبها ، وإلا نسطور وولديه .. ثم قال نسطور :

« أما وقد فرغنا من غدائنا فماذا أيها الوافدون ؟ من أنتم ؟ ومن أين حملكم هذا البحر ؟ أتجار أنتم ؟ أم قرصان تملأون الشطئان ذعراً وفزعاً ؟»

واستجمع تليماك شجاعته ، ونفخت فيه مينرفا من روحها ، وتكلم

فقال :

« علي هينتك يا ابن نليوس العظيم ، يا فخر هيلاس ، إنى أنا ابن صديقك وصفيك أوديسيوس ، سعيت إليك من أقصى الأرض أسائلك عن أبى ! أبى ! صفيك وخليلك الذى صال معك تحت أسوار اليوم وجال ، ثم لا أحد يعرف من أنبائه اليوم شيئا ! لقد انتهت إلينا أخبار الأبطال اليونانيين جميعاً وعرفنا مصارعهم ، إلا إياه . . . أين رقد ؟ وأين ثوى ؟ وأين قوت رفاته إن كان قد شالت نعامته ، أو مضى على وجهه فى الأرض إن كان لا يزال حياً . . . إن الآلهة نفسها لا تشاء أن تدلنا من أخباره على أثر . . ولشد ما أخشى أن يكون قد ثوى هناك . . فى أعماق مملكة نبتيون ، مع الجميلة أمفتريت[1] . لذلك سعيت إليك يا فخر هيلاس كيما تحدثنى عن أبى ، وكيما تذكر لى بعض ما تعرف عما ألم به إن كنت قد شهدته ، أو تقص على ما عسى أن تكون قد سمعته من بعض حاشيتك التى تجوب هذه البحار . قل . لحدث يا نسطور ، ولا تخف عنى شيئا . . . قل . . . إنى أستحلفك بكل ما كان يفتديكم به فى ساحة اليوم أن تقص على أنباءه . لقد كان يحبك ويجلك ويوقرك ، فاجز ابنه بعض ذلك » .

وكأنما رأى نسطور حلماً لذيذاً فقال :

« ويحك أيها الصديق الشاب ! ما أروع ماهجت ذكريات الماضى المفعم بالأشجان ! ذكريات السادة الذادة والمغاوير الصناديد ، الذين سقطوا تحت أسوار اليوم العتيدة فأرووا ثرى الميدان بدمائهم ، وسطروا آية المجد بمهجهم ! إيه أخيلوس يا سليل الآلهة ! وبتروكلوس يا معجز الأنداد

(١) ملكة البحار وزوجة نبتيون .

والأقران ، وأجاكس ! أجاكس الذى كان أُمَّةً وحده ! لقد رقدوا جميعاً تحت قلاع بريام الجبار الشيخ ! ورقد معهم ولدى ! آه يا ولدى ! أواه يا قطعة قلبي وفلذة كبدى وثمرة حياتى وسُؤْدَدِى ! يا أشجع الشجعان يا أنتيلوخوس ! أية قصة وأية مأساة ! يا رعاك الله أيها الشاب المحزون ! أنى لى أن أقص عليك أحداث سنين تسع كانت هموماً متصلة وأحزاناً فاجعة وآلاماً تَتَسَعَّر فى جميع القلوب !؟ أى لسان ذرب يقص فلا يمل ، وأى مِقْوَل رطب يحكى وما يعيى ؟ ألَا لو أنك أقمت تسمع الأعوام الطوال فما أحسب القصة تنتهى ! القصة التى لم تُجْدِ فيها شجاعة الألوف لولا خدعة أوديسيوس وحيلته ، وطول أناته وهمته ! ولكن حدثنى بربك أيها الشاب : إإنك حقاً لولد أوديسيوس ؟ أجل !إنك بملامحك وقسماتك غصن دوحته ، وإنك بكلماتك العِذاب عُسلوج أرومته ! أوْه ، أوديسيوس ! يا رفيق الشباب وحبيب القلب ! لشد ما تعتلج فى النفس تلك الخاتمة الهائلة التى قضاها على الأرجيف[1] سيد الأولمب ، غِبَّ انتصارهم ، وقبيل أوبتهم ، لقد حنقت مينرفا على وَلَدَىْ أتريوس إذ تنازعا فقال قائل منهما نضحى لربة العدالة عند سيف البحر تلقاء إليوم ، ولكن الآخر أبى ، وأجمع على أن يقدم لها القرابين فى آرجوس ! يا للتعسين ! أجاممنون البائس ومنلوس المسكين ! إنهما لم يصليا لمينرفا فحاق بهما غضبها ، وعبثاً حاولا بعد ذلك أن يترضياها !

اختلف الأخوان ونام الجند حتى مطلع الفجر ، ثم أقلع نصف الأسطول فى موج ثائر مصطخب من غضب الآلهة ، بقيادة أجاممنون ،

(١) جند آرجوس إحدى مقاطعات اليونان .

وما هى إلا سويعات حتى هدأ اليم ونام الموج ؛ وبلغنا تندوس فذبحنا الأضحيات باسم الآلهة ، وسبحنا لرب البحار نبتيون ، فتطامن العباب ؛ ولكنا ما كنا ندرى ما تنسجه يد چوف[1] حولنا ، بل لم يكن يخامرنا أقل شك فى وصولنا إلى الوطن سالمين . ذلك أن أوجه النظر اختلفت ثمة ، ونشب بين القادة نزاع فى الرأى : هل يقلعون من تندوس ، أو يتلبثون بها حتى تنجلى العاصفة التى شرعت تهب فى عنفوان وشدة ؟ وهنا ، آثر ملاحو أبيك أن يعودوا أدراجهم بسفائنهم إلى طروادة ، وذلك مجاملة للقائد العام . بيد أنى لم أر هذا الرأى ، بل فررت من العاصفة بسفائنى إلى جزيرة لسبوس ، ولحق بنا ديوميد ، ثم وصل منلوس فى إثره ؛ وأرسينا ثمة ؛ وانتظرنا إذناً من السماء ، أو قل بارقة من الآلهة ، نقلع بعدها . وكانت العاصفة تشتد وترقص فوقنا ومن تحت أساطيلنا ، فلم نر بُداً من المجازفة وإلا تكسرت جوارينا على الصخور وفوق الأواذى ، ... ياللهول ! لقد بلغت قلوبنا الحناجر قبل أن نصل إلى جيريستوس ! حمداً لك يا نپتيون وثناء عليك ؛ وقل أن نذبح باسمك ألف قربان من كل عجل جسد وكبش حنيذ ! ولقد فاز ديوميد فوصل بجنوده سالماً إلى آرجوس ، وكذلك فاز الجبابرة الميرميدون ، جنود أخيل ، بقيادة شبله العظيم نيوبتوليموس ، فوصلوا إلى أوطانهم غانمين ، ووصل من بعدهم فيلوكتيتيس ... كذلك وصل أجاممنون وليته لم يصل ! لا ريب أنك سمعت بما حاق به ! لقد قتله المجرم إيجستوس ، ولكنه دفع روحه ثمناً لفعلته ؛ إن العيش لم يطب لابن

---

(١) زيوس أو چوپيتر كما يسميه الرومان وهو كبير الآلهة .

أجاممنون حتى ثأر لأبيه ، فانقض كالصاعقة على قاتله وغاله بيده ! يا للفخار أيها الصديق الشاب حين تنتقم لأبيك فتسجل اسمك فى سجل الخالدين !» .

وشاع « العُجْب فى نفس تلماك ، فقال :

« ويك نسطور ! إنه سيكون انتقاماً عادلا بحق السماء ، وستتغنى الأجيال القادمة بقصته ، وسيرويه الخلف عن السلف . كم ذا وددت لو مكنت لى الآلهة من أعناق هذه العصبة الفاجرة من العشاق الآثمين الذين يدلون علىَّ بعَددهم وعُددهم ، والذين يقذفون فى وجهى بالإهانة تلو الإهانة . . . واأسفاه ! ليت شعرى لم لا تؤيد الآلهة حق على باطلهم ؟ لقد نفذ اصطبارى وكلت حيلتى . . فماذا أعمل ؟» .

وقال نسطور : « أيها الصديق ، لقد أذكرت منى غافلا . . ويحك تلماخوس ! لقد تناقل الناس ما كان من حماقة هذه الطغمة التى تستبيح عرض أوديسيوس ، وتستنزف ثروته . . ولكن ، من يدرى ؟ هل أمنوا أن يعود يوماً فيستأصل شأفتهم ، ويديل منهم ، وتكون له الكرة عليهم ؟ لقد كان أبوك العظيم حبيب مينرفا وصفيها ، وهى لابد آخذة بناصرك كما أخذت بناصره من قبل ، وهى لابد مدركتك وشيكا ، وحائلة بين أعدائك وأعداء أبيك ، وبين هذه الزيجة المجرمة » ويجيب تلماك :

« ألا من يدرى ؟ إنه لا أمل لى فى ذلك قط ! آه أيتها الأحاسيس الغريبة التى تجيش فى قلبى ! الآلهة فقط هى القادرة على تحقيقك بمعجزة !» .

وهنا ، حدجته مينرفا بنظرة هائلة من عينيها الزبرجديتين ، وقالت له :

« تليماخوس ! أية كلمة هائلة زل بها لسانك ؟! ما أيسر على الآلهة أن تقول للمستحيل كن فيكون ، أنا نفسى كم تجشمت أهوالا فى أسفارى ثم عدت بعناية أربابى سالماً إلى أرض الوطن ؟ بل كم من أناس ظنوا أنهم نجوا من الموت فى يم غشيهم بموج كالظُّلَل ، فلما وصلوا إلى البرْ حاقت بهم مناياهم كما حاقت به منيته أجاممنون ، حين خر صريعاً بيد إيجستوس الأثيم ، ويد زوجه الملكة[1] الغادرة الفاجرة الزنيم ! حقاً ، إن الآلهة لا تملك أن تحول بين المرء وبين المنون مادام قد جاء أجله ، مهما يكن حبيبها وأعز عبادها عليها . »

وعبس تليماك عبوسة خفيفة ، وقال :

« مهما يكن من الأمر فلندع هذا الآن يا منطور ! إننى لا أمل لى مطلقاً فى عودة أبى ، ولكنها أقضية من السماء ومقادير أن أذرع وراءه البحار وأن أعود فأسأل فخر اليونان نسطور ، اللبيب الأريب الذى حكم كما هو مأثور أجيالاً ثلاثة ، والذى يتألق فى عينيه سناء الآلهة ... أعود فأسائله كيف قتل أجاممنون ؟ وكيف تهيأ لايجستوس أن يقتله ، وهو من هو أعلى منه نسباً وأعز حسباً وأشرف قدراً ، وأين كان منلوس الملك شقيق أجاممنون ؟ ألم يكن قد عاد بعد إلى أرض الوطن أم كان لا يزال يطوى الآفاق ، فشجع ذلك إيجستوس ونفخ فى قلبه ؟» .

وقال نسطور : « رويدك أيها الصديق الشاب فإنى قاصٌ عليك نبأ

(١) كليتمانسترا

ما لم يأتك به علم . . تالله لو لم يُقتل إيجستوس قبل عودة منلوس ، ما أقيم على رفاته جدث ، وما بكت عليه عين ، ولألقى بدنه النجس لكلاب البرية وطير الفلاة تنوشه وتمزقه وتغتذى به ، جزاء فعلته الشنعاء وجرمه اللميم وخطيئته التي لا تغتفر . إصغ إلى . . لقد أناب أجاممنون عنه حارساً أمينا يسهر على أمور المملكة . ذاك هو أتريدس الحميم ، الذى تغفد إيجستوس ، واتصل بمولاته سراً وهو لا يدرى ، واستطاع أن يدبر معها هذه المؤامرة الشنيعة التي انتهت بنفى الحارس الأمين ثم قتله فى برية موحشة غالبته فيها السباع الضارية والأوابد[1] الكاسرة ، حتى إذا خلا لهما الجو أسلست له المملكة القياد فحكم وساد ، وطغى واستبد ، وسُلط على البلاد أعواماً سبْعة طوالاً . . . كل هذا والسماء ساهرة لا تغفل ، فقد عاد أورست بن الملك الغائب ، وابن الملكة الفاجرة ، فانتقد عرض أبيه وقتل الوحش اللئيم الذى دنّس شرف المملكة ، ولطخ بالوحل هذا المجد الأثيل ، ثم قتل أمه . . . أجل ، قتل أمه وجمع حوله الأرجيف البؤساء يحتفلون بهذا النصر ويصلون للآلهة التي أنقذتهم من ذاك الشر . . وبيناهم فى أفراحهم وانشراحهم إذ بالملك العظيم يصل بأساطيله بعد رحلة طويلة محفوفة بالمخاطر . . فلقد أبحرنا ( أنا ومنلوس ) من طروادة معاً ، وما كدنا نبلغ صنيوم[2] ، أول مرافىء أثينا ، حتى وقع ما لم يكن لنا بحسبان . . ذلك أن رب الشمس أبوللو غال بسهامه التي لا تطيش ربان الأسطول العظيم ، فرونتيس ، فاضطر الملك أن يلقى مراسيه حتى يصلى على صديقه ويقيم

(١) الوحوش .
(٢) Sunium .

الشعائر على جثمانه ؛ ثم أقلع ، وما كاد ، حتى اضطرب البحر ، وفغرت اللجج أفواهها ، وتدافع الموج حول الأسطول كالجبال ، وعم الجو ، وغامت السماء ، وانقضت الصواعق فانشعب الأسطول وتفرقت سفائنه ، وانشطرت وحداته ، فبعضها شرّق ، وبعضها غرّب ، وبعضها يمم شطر سيدون عند كريت ، وبعضها اتجه برغمه نحو شطئان مصر ، وبعضها غاص إلى الأعماق ، وخمس فقط .. وصلت بعد طول الجهد إلى هنا »

« بنى .. أيها الصديق الشاب .. أخلق بك أن تذهب من فورك إلى منلوس فتسائله عن أبيك ، فلقد لقى الأهوال فى البحر ، ولا ريب أنه سمع كثيراً مما جرى فيه من مختلف الأمم فى رحلته المشئومة ... هلم ... إنطلق اليه ... وإن لم تسعفك سفينتك فإنى ممدك بكل ما تحتاج من مركب البر أو البحر ، وها هم أولاء رجالى معك أينما توجهت ، بل ها هم أولاء أبنائى ، ليصحبك أحدهم ، أو كلهم ، إلى منلوس ، فإن عنده الخبر اليقين »

وكانت الشمس قد توارت بالحجاب ، والليل قد نشر ظلامه فوق الطبيعة المنهوكة الخامدة فنهضت ابنة زيوس العظيم ، مينرفا الخالدة ، وهى لا تزال فى صورة منطور أمير البحر وطيلسانه ، فقالت : « مرحى يا فخر هيلاس ! لقد قلت حقاً وتكلمت صدقاً ، هلم ، البدار البدار ، قطعوا ألسن القرابين[1] وأريقوا الخمر باسم الآلهة ، وباسم نبتيون قبل كل شيء ... »

وانتشر الولدانُ بين المدعوين يصبون الماء على أيديهم بعد إذ أدوا

---

( ١ ) كان من التقاليد الشائعة أيام هومير أن تقطع ألسن القرابين وتحرق باسم الآلهة لينصرف الجميع .

التحية الخمرية المقدسة لأربابهم ، ثم تفرقوا شيعاً ، ونهض تلماك وصاحبه لينصرفا ، لولا أن صاح بهما نسطور :

« حاشا يا رفاق ! أنتما ضيفى[1] ، فكيف تبيتان فى سفينتكما تحت طل الليل وهذا بيتى فيه كِنٌّ لكما وفراش وثير ، وفيه ، والحمد للآلهة ، خير كثير ، وهؤلاء أبنائى سُمّاركما ، وهم ثمة طوعٌ لكما » .

وشكرت مينرفا للملك عطفه ثم قالت : « بوركت أيها الملك ، ليبق تلماك هنا ، ولأمض أنا إلى البحر لأسهر على صوالح مركبى ، ولأطمئن بحارتى ، فكلهم أتراب تلماك ، وكلهم متطوعون لخدمته وفاء وحباً ، وليس يجمل إلا أن أبيت أنا معهم تلك الليلة ، على أن نقلع صبيحة الغد إلى كوكون ، ولتأذن فتمنحه عربة وزوجاً من صافنات جيادك ليلحق بناثمة ، يصحبه أحد أبنائك ، مادمت قد عرفت فيه ابنا لأعز أحبائك وأوفى أصدقائك » .

ثم حدثت المعجزة . . . فإنه ما كادت مينرفا تتم كلامها ، حتى انتفضت انتفاضة هائلة ، وتحولت من صورة منطور أمير البحر الى نسر عظيم مهوب اللفتات ، ما عتم أن ضرب الهواء بخافيتيه ، حتى حلق فى السماء ، وغاب فى لا نهايتها ، بين دهش القوم ، وشديد حيرتهم .

وتناول نسطور العظيم يد تلماك ، وظل يقلب فيه بصره ، ثم قال :

« أيها الصديق ؛ لشد ما عظمت منزلتك ، وسمت مكانتك . حتى لتكون فى رعاية الآلهة وعناية السماء ! هذه دون ريب ابنة سيد الأولمب - الكريمة مينرفا - التى ما وقّرتَ أحداً من أبناء هيلاس كما وقّرتْ أباك .

---

( ١ ) بصيغة الفرد .

« ولكن أنتِ ! أنت يا مليكة العدالة ! ضرعت إليك أن تتلطفى بنا جميعاً ! أمنحينى بركاتك ... أنا وأبنائى وشعبى .. اكتبى أسماءهم فى الخالدين ، وسنصلى لك ونذبح باسمك خَيْر بقرة ؛ لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث ؛ مُسَلمة لاشية فيها ؛ منضورة بالورد ، محلاة القرنين بالذهب » .

وقبلت مينرفا صلاته ، ولبت دعاءه ، ونهض وفى إثره أبناؤه وأحفاده ففتحت أبواب القصر وتقدمت ندمانة الشراب فقدمت إليه كأساً من خمر لها نسب من عهد أولمب ، فأفرغها فى الأرض تحية لمينرفا ، واقتدى به ملؤه فأفرغوا كؤوسهم ، ثم مضوْا إلى غرفاتهم ، ومضى الملك مع تليماك إلى مخدع وثير ، وفراش من حرير ، وأمر ابنه بزستراتوس فقام معه ، ثم ذهب حيث وجد الملكة فى انتظاره .

ونشرت أورورا غلالتها الذهبية فى مشرق الأفق ، فاستوى نسطور على عرشه المرمرى المتألق عند بوابة القصر ، حيث كان أبوه نليوس يجلس كإله للنظر فى صوالح العباد ، وأقبل بنوه الستة ومعهم تليماك الذى جلس إلى جنب أبيهم ، وتحدث إليهم نسطور فقال :

« هلموا يا بنى ، لنذبح القربان المقدس باسم مينرفا الكريمة التى باركت حَفْلَنا أمس ؛ لينطلق أحدكم إلى الحقل فليحضر ثوراً [1] سميناً ، وليذهب آخر فليدْعُ رجال تليماخوس - إلا اثنين - من السفينة ؛ وليمض ثالث فليأت بالصناع الفنان ( ليرسيوس ) ليجلل قرنى القربان بالذهب ،

---

(١) كان على نسطور ان يذبح بقرة مسلمة .

وليبق الآخرون هنا ، ثم لتحضر كل حاشيتنا من النساء ليكسبن الوليمة بهجة ورواء » .

وأطاع أبناؤه الأوفياء ، وأحضر القربان ، وأقبل الملاحون الأمناء ، ثم قدم الفنان ليغطى قرنى البهيمة بالذهب ... ثم ... وافت مينرفا ... مينرفا نفسها لتشهد الطقوس التى تقام باسمها ... وبدأ الفنان عمله ، فأخذ يرقق صفائح الذهب ويثبتها بمهارة فى القرنين الصغيرين . وتقدم أريتوس بن نسطور وفى إحدى يديه باقة كبيرة من الزهر وفى الأخرى سلة من أفخر أنواع الكعك ، وتقدم ابنه الثانى تراسيميد وفى يده شاطور كبير ليذبح الثور ووقف قبالته برسيوس يتلق الدم فى وعاء كبير .. ونهض نسطور الأب فسبح وصلى أمام نار كبيرة مضرمة ، وتمتم باسم مينرفا ، وقذف فى اللظى بكعكتين كبيرتين ، وبناصية القربان ، وبقدر قليل من الماء المقدس . وإذ انتهى الجميع من صلاتهم شمر تراسيميد عن ساعده وجزر القربان ، وانكب الجميع يجهزونه ، وكانت يوريديس الجميلة المفتان تُعنى أشد عناية بالفخذين ، فسترتهما بثوب غال من الديباج ، وكان نسطور نفسه ينثر الخمر المقدسة و العطور والأرواح .. وهكذا أخذ الجميع فى شغلهم ، وشرعوا يلقون فى الجمر بالحوايا ، وشرعت بوليكاست تنثر البهار والتوابل .. وتهادى تليماخوس بعد هذا فاستوى الى جنب الملك ، وانتصب الولدان والندامى يصبون الخمر ، وبدأ الكل يأكلون هنيئا ويشربون مريئاً .

وما كادوا يفرغون حتى أمر نسطور فهيئت الصافنات الجياد لرحيل تليماخوس ، وأحضر القواص عربة كبيرة مثقلة بكل ما تحتاج الرحلة من زاد

وعتاد .

وأخذ تليماك مكانه من العربة الأولى ، واستوى إلى جانبه بيز ستراتوس أشجع أبناء نسطور ، ثم سلم تليماك وودع ، وشكر وأثنى ، وجذب أعنّة الخيل فانطلقت تنهب الرحب ، وتبتعد عن بيلوس وتطوى الزمان .

وبلغوا ، مع مغرب الشمس ، إبيريه ، حيث تلقاهم رب البيت بالبشر والترحاب ، وباتوا عنده ، حتى أيقظتهم أورورا المشرقة . فواصلوا رحلتهم إلى أسبرطة .

## العشاق يتآمرون

وصل الركب إلى أسبرطة بعد أن غوّر فى وهادها وأنجد ، وانطلق تليماك وصاحبه من فورهما إلى باب منلوس الملك حيث وجدا ، لحسن الطالع ، وجوها مسفرة ، وجماهير مستبشرة ، وموسيقى تصدح ؛ ومنشدين يرددون أناشيدهم ويرسلون أغنياتهم ، ووليمة ملكية حافلة اجتمع لها الملك وأبناؤه وخلصاؤه وندماؤه ، يأكلون ويشربون ويسمرون ويطربون ... ماذا ؟ لقد اجتمع القوم من كل حدب ، وأقبلوا من كل صوب ، يحتفلون بابنى الملك : بابنه الذى زوجه أبوه من أجمل غادات أسبرطة وأكثرهن وسامة وقسامة وفتنة ، ابنة ألكتور العظيم ؛ ثم بابنته المفتان اللعوب الطروب التى رزقها على كبر من هيلين ، والتى نافست بجمالها ودلها هرميون ابنة فينوس .

وما كادا يجاوزان الوصيد حتى لمحهما إتيون ، كبير أمناء الملك ، فانطلق إلى مولاه وحدثه عنهما ... « إن لهما لمهابة وإن عليهما لرواءً ،

فهل يأذن لهما مولاى ، أم يأمر فنردهما من حيث أقبلا ؟» .

وأومأ الملك برأسه الكبير الذى يزيد فى وقاره وحسن سمته شعره الذهبى ، وأمر إتيون أن يذهب اليهما ، فيسير بين أيديهما إليه .. « ... إذ كيف يُرد عن طعامى الغرباء ، ولقد طعمنا طويلاً زاد الغرباء ؟» .

ودعا إليه إتيون طائفة من الخدم وذهب إلى الوافديْن الكريمين فحيّا وسلم ، وحل اللجم وأناخ البُهم ، ومضى بهما إلى داخل القصر من طريق يشرف على مكان الحفل وترى منه الجدران التى ازدانت بأحسن زينة ، وقبة العرش التى تلألأت فى الأنوار الوضاءة والسُّرُج الوهاجة ... ثم لقيتهما فتيات من عذارى القصر فقدنهما إلى الحمامات المرمرية الباذخة فاغتسلا وتضمخا ولبسا ثياباً ملكية ، ثم ذهبا للقاء رب هذه الدار .

وهش الملك لهما وبش ، وأجلسهما إلى جانبه على مقعدين وثيرين ، وهما فى دهش من ذاك المنظر العجب . وأقبلت فتاة فصبت على أيديهما الماء ، وذهبت فأحضرت مائدة رائعة منسقة ، عليها قدر غير قليل من أفخر الأشربات وأشهى الآكال ، ووقف خادم آخر يقدم طبقاً بعد طبق ، وكأساً من ذهب بعد كأس من ذهب ، والملك فيما بين ذلك يبالغ فى إيناسه لهما والحفاوة بهما ، وينظرهما حتى يفرغا من طعامهما فيخبراه عن أمرهما ، وكان يتلطف فيقدم لهما قطعاً من شوائه بيده .

وسارّ تلهماك صاحبه فقال .

« بيزستراتوس يا صديقى ! ما أجمل وما أفخم وما أروع ؟! هذا الحفل الباهر يتألق فى الذهب والفضة والعاج والكهرمان ودروع النحاس !

أبداً ما ترى العين مثل ذلك ، ولا تسمع الأذن إلا عن قصر سيد الأولمب فى شماف جبل إيدا ! أية ثروة وأى كنز ؟!

وسمعه منلوس الملك فقال :

« بنى ! لا تقرن قصر أحد منا ـ نحن بنى الموتى ـ إلى قصر سيد الأولمب ! وأنت على حق حين ترى أن لا أحد يملك ما أملك أنا من أذخار وكنوز ، فقد سحت فى أقصى الأرض سنين عدداً ، وجمعت الدرر الغوالى من كل فج ... من كريت وقبرص وفينيقية ومصر ، ومن أثيوبيا وإيرمبى ... ومن صيدا ولوبيه ... ورؤوس الشاء والوعل هذه ... الوعل الوحشى السائم ... والشاء التى تمدنا بخيرها بغير حساب ... لقد طوفت فى الآفاق وتركت فى كل منها ذكرى . ولا غرو ، فقد نبأكم آباؤكم أنباء منلوس الملك الذى دك المعاقل وهدم القصور ... ما أنس لا أنس هذا القصر العتيد الذى جعلت عاليه سافله بما فيه من أذخار وقُنى ، ووددت لو كان فى قصرى شيء منها ، وود الإغريق لو حصلوا فى بلادهم جميعاً على بعضها ! هناك ! هناك تحت أسوار طروادة يا صاح ! يا ويح نفسى ! يا رحمتا للأصدقاء الأحباء الأعزاء الذين ناموا ثمة ! لشد ما أسلى النفس عنهم بالتأسى ؟ لشدّ ما يندلع الأسى فى قلبى عليهم جميعاً ، ولاسيما صفى وخليلى وأعز أوداثى علىّ ... أوديسيوس ! أوديسيوس الكريم ! ليت شعرى يا صديقى فيم شطت بك النوى وطال عليك الأمد ؟ أحى ترزق ؟ أم ثويت فى بطحاء بلقع ؟ يا ويح لك ، ولأبيك الشيخ ، وزوجك الملتاعة ، وابنك المحزون اليتيم تليماخوس ، الذى غادرته فى المهد ما بلغ الفطام ، إلى حومة الوغى وحلبة

الحمام ... » .

ولم يملك الفتى دموعه حين سمع هذا الهتاف باسم والده فنشج نشجياً مؤلماً ، ثم استخرط فى البكاء ، وطفق يُذرى شئونه فى طرف ثوبه ... بين دهشة منلوس وحيرته ، وذهول الحاضرين . وانعقد لسان الملك فلم يسأل الشاب عن حاله ، حتى أقبلت هيلين فجأة ، فتلفت القوم ينظرون إلى هذا الرشأ الذى يتثنى مياساً فى ظلال من الفتنة ، كأنه ديانا ربة القوس الذهبية ...

واستوت على عرشها المنضد ، الذى أصلحته يدا أدرستا وعناية أكليب ، ثم أحضرت الطرَف والهدايا واللُهى ... فهذه سلة من الفضة المزخرفة بالتصاوير هدية من ألكندرا زوج بوليب أمير طيبة ، عروس المدائن المصرية ؛ وتلك عشر بِدَر من النضار الخالص ، وطستان من الذهب ، ودنان من الإبريز ... يقدمها كلها ملك أسبرطة إلى زوجه البارعة الرائعة الهيفاء ... ونظرت هيلين إلى الضيفين الغريبين ، وسألت زوجها :

« ملكى ! نشدتك الآلهة أن تخبرنى من هذان ؟ إن أحدهما شديد الشبه بطفل أوديسيوس ... الصغير تليماخوس ... الذى تركه أبوه صبياً فى المهد من جراء حرب إليوم المشئومة » .

وقال الملك : « وأنا مثلك يا هيلين ، لقد دار بخلدى ما دار بخلدك من أمر هذا الفتى ! ألا ما أشبه الساقين والساعدين وتفتير العينين واسترسال اللّمتين [1] بما كان لأوديسيوس ؟! لقد ذكرت ما قاسى صاحبى

(١) اللمة الشعر الذى يجاوز شحمة الأذن .

من أجلى وفى سبيلى تحت أسوار إليوم ، فسرعان ما رأيت الشاب يبكى ويبكى ويبالغ فى البكاء ، ثم يغلبه حزنه فيخفى وجهه ، وفيه روحه ، فى ثيابه من الهم » .

وانتهز ابن نسطور الفرصة فقال :

« حقاً أيها الملك إنه هو ! ولكنه خجول حيىّ ، ولقد أوشك حياؤه أن يمنعه من لقائك ، وقد هاج تباريحه ما ذكرت عن أبيه . أما أنا ، فإنى ابن نسطور صديقك الآخر ، وقد أمرنى أبى أن أصحب تليماخوس إلى هنا عسى أن يسمع خبراً عن أبيه الذى ذهب يذرع الأرض ، ولا يعلم أحد أيان قد ذهب . . . وهاك ابنه المكلوم يجتر أشجانه ، وتطحن فؤاده أحزانه » .

وشُدِه البطل - ذو الشعر الكهرمانى - فقال :

« ياللآلهة ! أهكذا أفاجأ بلقاء ولدى ! أنت ؟ أنت ابن أوديسيوس الذى شقى طويلاً بسببى ، وبذل نفسه من أجلى ، ولايزال يناضل الويلات من جرائى ؟ كرامة وحباً يا ابن خير الأصدقاء ! لو عرفت أنك تسعى للقائى لشدت لك مدينة فى آرجوس ، تتيه على المدائن وتزهى على القرى ! ورفعت لك عماد قصر منيف طالما كنت إخاله يؤوينا جميعاً فنسعد سعادة لم يحلم بها قوم من قبل ولا من بعد . . . ونلتذ ، أنا وأبوك وأنت ، وجميع أهلى وأهله ، ذكريات الماضى المترع . . . آه يا أوديسيوس ! لقد طاشت الأحلام وذابت الأمانى ، وقست عليك السماء . . . فحرمتك كل شىء ، حتى الأوبة إلى أرض الوطن !» .

وأثارت كلمات الملك شجون القوم ، فبكى تليماخوس ، وأذرفت

الملكة ، وانبجس الدمع من عينى پيزستراتوس حين ذكرت طروادة فأذكرت قتل أخيه تحت أسوارها ، ثم قال : حسبك أيها الملك ! لقد تذاكرنا ، أنا وصاحبى ، جلائل أعمالك فعرفنا فيك المليك الأجل ، والمقدام البطل ، ولكن ماذا تجدى دموعنا ؟ لقد غالت يد الردى أخى وابن أمي وأبي فى سبيلك كذاك ! ألا تذكر ؟ أنتيلوخوس ! البطل المغوار والفارس الكرار الذى لم تكتحل عيناى برؤيته ! أوه يا ابن أورورا الغادر ، شلت يداك بما فتكت بأخى !... » .

وتعطف الملك فطيَّب ابن نسطور بكلمات عاليات ، وأمر الندمان فصب الماء على أيديهم صباً ثم أخذوا فى آكالهم ، وصبت هيلين قطرات من طيب مُذْهِب للأحزان فى كأس تليماك ، وكأس صاحبه ، لا يعرف من يذوقها إلى الأسى من سبيل ، وهى قطرات عجيبة أهدتها للملكة ، زوجة ( ذون ) الأميرة المصرية بوليدامنا ، وكم فى مصر من سحر مبين !

وتكلمت هيلين ، فذكرت ما كان من أوديسيوس يوم التقى الجمعان عند إليوم ، وكيف استطاع أن يتسلل مستخفياً فى ثياب شحاذ إلى داخل المدينة العتيدة ، وكيف قابلها فى حجرة باريس ليطلعها على خطة اليونانيين ، وما كان من رجائه إياها ألا تفضحه عند أعدائه حتى يعود سالماً إلى معسكره ومخيمه ، وأنها برّت فلم تنبىء أحداً بوجوده ... ثم رأت أن تتنصل من فضيحة فرارها مع باريس فادعت أنها كانت مسوقة إلى ذلك برغمها لأن ڤينوس كانت قد سحرتها عن نفسها ( لما وعدت به باريس من أنها ستهبه أجمل غادات هيلاس إذا هو قضى لها

بالتفاحة[1] ) . « واخجلتاه ! لقد أزرى بى أن أفر راغمة فأهجر فراشى الطهور وطفلتى اليافعة إلى بلاد قاصية لا ناقة لى فيها ولا جمل . . . » .

وأعذَرَها الملك ثم ذكر أوديسيوس فقال :

« أبداً ما رأيت أثبت جاشاً ولا أربط قلباً من أوديسيوس ! وإن أنس لا أنس يوم الروع الأكبر ، يوم فكر أوديسيوس وفكر ، ثم دبر هذه الحيلة العجيبة ، حيلة الحصان الهُولة الذى قهر لنا طروادة فى يوم وبعض يوم ، وقد عيينا بها السنين الطوال ، لقد اختبأ داخله فرسان هيلاس[1] الصناديد ، وكنت أنا ـ سقى الله الشباب ـ واحداً منهم ، فما أنسى قط حين أقبَلْتِ فى عصبة ذوى أيد مَن مذاويد الطرواديين ( إذ هتف بهم هاتف إن الحصان يحمل لهم شراً ويطوى لقريتهم ثبوراً ) فجعلت أنتِ تنادين بأسماء الفرسان اليونانيين واحداً بعد واحد لِتَرىْ هل اختبأ منا بداخله أحد كما تنبأ بذلك المتنبئون . تالله لقد كدت أرد عليك نداءك حينما هتفت باسمى ؛ وتالله لقد أوشك زميلى ديوميد يرد عليك هو الآخر ، لولا أن فطن أوديسيوس فحذرنا وحبس ألسنتنا الشقشاقة التى كادت توردنا موارد الهلاك ، لو أن أحداً منا خدُع فنبس ببنت شفة ـ وَاحَربَا ! لقد صمتنا جميعاً ولكنك عاودْتِ ، فما كدت تهتفين باسم انتيكلوس ، حتى أوشك المجنونَ أن يلبى ، لولا أن كتم أوديسيوس أنفاسه بكلتا يديه ، وعاد معك القوم المنكرون » .

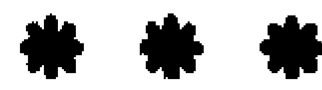
---

(١) قضى باريس بالتفاحة لفينوس وحرم منها مينرفا وحيرا وذلك سبب عدائهما للطرواديين . ( كتابنا قصة طروادة ) .

(١) إسم يونان القديمة وتنطق إيلاس .

ثم كان الهزيع الأخير من الليل ، فتلطف تليماخوس واستأذن الملك فى الانصراف ليأخذ كلٌ نصيبه من النوم ، فتأذن ، وأشارت هيلين إلى وصيفاتها فأهرعن إلى مخادع الأضياف ، فأصلحن فرشها ، واعددن الملاحف والوسائد والحشايا ، ثم نهض أمين الملك ، ونهض فى إثره بيزستراتوس وتليماخوس ، حتى كان كل فى مخدعه ، وحتى اطمأن كل فى سريره ، وناما فى حرير وسمور وفى قماقم وفى سنجاب وتهاويل غير ذاك من الرقم ومن سندس ومن زرياب[1] .

ونهض الملك والملكة كذلك فدخلا القصر ، واستسلما لأطيب الرقاد .



وذرٌ قرْن أورورا ، ربة الفجر ، فى المشرق الوردى ، فهب الملك وأصلح شأنه ، ورف بازيٌه الأشهب فوقف على غاربه ، ثم مضى إلى مجلسه حيث لقى تليماك فى انتظاره ، فحيّا وجلس وبدأ حديثه فقال :

« أى بنى ! تليماخوس ؟ أيها البطل وسليل البطل ! فيم شددت رحلك إلى هنا ؟ إلى رحاب ليسديمون[2] فى فلوات البر وسروات البحر ؟ ألإمْر عام ، أم لشأن يخصك ويتعلق بشخصك ؟ » .

وأجاب تليماك : « مولاى الملك ! منلوس العظيم ! لقد جئت أتحسس خبراً عن أبى ، وأقبلت أُحَدِّثُ عن أعدائه الذين آوَوْا إلى بيته فما يريمون ، يستنزفون غلته ، ويهلكون حرثه ، ثم هم مع ذاك ينافس

---

(١) الشعر لابن الرومى لم نجد أحسن منه فى ترجمة أبيات هومر .

(٢) من أسماء اسبرطة .

بعضهم بعضاً فى كبر وزهو وخيلاء ... من أجل زوجه ! يا للعار ! إنهم استباحوا كل شىء ... كل نَعَمه وكل شائه ، ولم يعَفُّوا آخر الأمر عن عرضه . إنى أستجيرك يا مولاى وأضرع إليك أن تخبرنى عما تعلم من أمر أبى ؟ هل قضى تحت أسوار إليوم ؟ أم غالته يد المنون فى ركن آخر من أركان الأرض ؟ لقد كان خليلك وصفيك وآثر أصدقائك ، وأعز أودَّائك عليك ، فبكل آلاء ذلك عندك أستحلفك أن تصدقنى ... ماذا تعرف من أخباره ، وماذا عسيت سمعت من أنبائه ؟ » .

وتنفس الملك تنفسة عميقة وقال :

« يا أرباب الأولمب ! أبلغت حقارة نفوسهم أن يفضحوا أوديسيوس فى عرضه ؟! ألا باءوا بما صنعوا ! ألا ما أشبههم بهذه الوعلة التى أجاءها المخاض فولدت فى عرين الأسد ، فلما عاد الأسد إلى عرينه لم يبق عليها ولا على أغفارها[1] ! حنانيك يا آلهة ! زيوس ! مينرفا ! أبوللو[2] ! أين هو فيبطش بالجبارين كما بطش بفيلو ميليدا[3] العَتى من قبل ؟ تالله لقد اقتربت ساعتهم وأزفت آزفتهم ... فطب نفساً يا بنى ؛ إنى منبيك بما علمته عن أبيك من ( بروتيوس ) راعى الأعماق ، وكاهن الأغوار .

ضلت بنا الفلك بما نسينا من التضحية باسم الآلهة ، فبلغنا شط مصر ، ورسونا عند جزيرة فاروس ، بحيث كان فى مقدورنا أن نروى من كوثر هذه البلاد التى تجرى من تحتها الأنهار ، ثم لبثنا ثمة عشرين يوماً لا تجرى بنا ريح ، ولا يرفه عنا نسيم ، حتى نفد الصبر ، وفرغ الزاد ، وظننا أنه المعاد ، لولا أن رثت لنا إحدى عرائس البحر فبرزتِ إلينا ،

---

(1) جمع غفر وهو ولد الوعل .

( ۲ ) كان ابوللو من خصوم اليونانيين فى حرب طروادة ولذا يدهشنا هذا الدعاء .

( ۳ ) أحد العمالقة الذين سجنهم زيوس وابناؤه فى أحد اقبية الجحيم لتمردهم على الالهة .

وكانت لنا غوثاً أى غوث ، كنت أجلس وحدى فى منعرج بأحد أطراف الجزيرة ، وكان بقية صحبى وأكثر الملاحين يرتادون الماء بشصوصهم (٣) عسى أن يحصلوا على سمك طرى يكون غـذاء لنـا ، إذ بـرزت عـروس الماء ( إيدوتيا ) الجميلة ، ابنة كاهن الأعماق بروتيوس ، وتهادت حتى كانت تلقائى ، ثم جَلست بجانبى ، وحدثتنى فقالت : « أيها النازح الغريب ! أكبر الظن أنك مذهوب بك ، أو ان بك مساً ، أو أن طائفاً من الجنون قد ألم بك ، أو أنك قد آثرت الشقاء السرمدى حيث لصقت بأرض هـذه الجزيرة فما تنـوى مضـياً ، ولا تلتمس مخـرجاً ، ولـو هلك كل أصحابك ! » .

ولم أبال أنى شدهت ، فسألتها قائلاً : « حسـبك يـا ربـة ! إنى ما لصقت بأرض هذه الجزيرة بأمرى ، ولا أقمت فيها برضائى ، بل كان ذلك قدراً على مقدراً ؛ ولكن خَبِّرى بحقك ، إذ الآلهة تعلم كل شيء - مَنْ أرباب السماء يحبسنى هنا ؟ . . . وهل مقدور لى أن أرتد إلى وطنى فوق غوارب هذا اليم المضطرب ؟ . . . » .

وقالت عروس الماء : « أيها النازح الغريب ! سأكلمك وأصدقك ! إنك الآن مقيم بشطآن مصر التى تقع تحت إشراف أبى ، بروتيوس ، سيد الأعماق ، ورب المياه المصرية ، والمتصل برعايا نبتهـون فى أغـوار هـذا البحر ، فإذا استطعت أن تتغفله فتقبض عليه وتشد وثاقه ، فإنه يقفك على أبعاد هذا اليم ، والطريق السوى الذى ينتهـى بـك سـالماً غـانماً إلى بلادك . بل ربما - إذا طلبت إليه ذلك - وقفك على كل ما حصـل فى

(٣) الشص حديدة عقفاء يصاد بها السمك ( السنارة ) .

بيتك من خير أو شر خلال سفرتك الطويلة ، لأنى أعرف أنك صفى السماء وحبيب الآلهة » .

غير أنى لم أدر كيف تستطيع أيدى بنى الموت أن تقبض على هـذا الإلـه البحرى الكريم ؛ ولم أُخف عليها ذلك ، بل حدثتها به ، وذكرت لهـا أنـه ربما ولى دبره إذا شعر منى بهذه المحاولة فلا أستطيع لقاءه بعدها أبـداً . بيـد أنها طمأنتنى ، وذكرت أن أباها يخرج من الأعماق فى الظهيرة إلى جَوْنٍ قريب حيث يستلقى برهة وسط قطعان كثيفة مـن عجـول البحـر ، مـن ذرارى هاليسودنا الجميلة ، تأتى هى الأخرى فى أثره لتنام ثمة . . . « فـإذا كانـت هذه الساعة فإنى سأقودك بنفسى إلى هناك ، وليكن معك من رجالك ثـلاثة هم أشجعهم وأكثرهم قوة ، وسأدلكم على منعرج آمـن تنتـظرون بـه حـتى يكون قد غلبه الكرى ، ثم تنقضون عليه فتكبلونه وتشدون وثاقه ، وإيـاكم أن يرهبكم بشىء أبداً ، إنه سيكون تارة سـيلارابيا ، وتـارة سـيكون نـاراً ترمى بشرر كالقصر ، كأنه جمالات صُفر ، وأخـرى يـكون أفعـواناً هـائلاً ينفث السم . . . ولكن خذوه أخذاً شديداً ولا تقتلـوه فتهلـكوا . . . فـإنه إن آنس فيكم قوة عاد فانتفض إلى صورته الأولى الـتى رأيتمـوه عليهـا ، ثم ترونه بعد ذلك وقد أسلس قياده ، وهـدأ وتـطامن . . . فـإذا فعـل ذلك سألكم عن حاجتكم ، ففكوا وثاقه وأطلقوا سراحه وسلوه ما شئتم ، فـإنه مجيبكم عما تسألون » .

* * *

ثم غابت عروس البحر فى طيات الثبج ، وتركتنى فى حيرة مما ذكرت ، ثم إنى عدت إلى الرق فى السـفينة ، وعـاد كل إلى قـرته ، وبعـد أن

تعشينا ، وكان الليل قد أرخى سدوله ، نمنا لا آمناً ولا قريراً .. وبزغت أورورا تموه المشرق بأصباغ الورد ، فنهضت أصلى للآلهة فوق السِّيف الممتد ، وأبتهل إلى السماء أن توفقنا لما فيه خيرنا ، ثم انثنيت فتخيرت من رجالى ثلاثة هم أصلحهم لهذا الأمر ، وهم موضع ثقتى ومعقد رجائى . وبرزت من الماء عروس الماء وأحضرت لنا أربعة من جلود عجول البحر لنلبسها ، ونستخفى بها ، ولتتم الخدعة على أبيها . وأعدت لنا مهاداً فى رمل الشاطىء . ثم دلفنا نحوها ، ونام كل فى مهده ، وألقت فوقنا ما مغها من الجلود المنتنة التى أَرْوَحَتْ حتى كدنا نختنق برائحتها ، لولا أن نثرت العروس فوقنا طيباً عبقاً ملأ خياشيمنا وأنقذنا من صلول[1] تلك الجلود .

وتلبثنا نرقب اليّم حتى برزت عجول البحر فنامت فى الجون ، ثم كانت الظهيرة فبرز بروتيوس وطفق يعد قطعانه . مبتدئاً ، لغفلته ، بنا ، وكأن اثارة من الشبك لم تخامره فى حالنا ، فانطرح ونام . وانتهزنا الفرصة ، فانطلقنا نعدو إليه ، وقبضنا عليه ، وشددنا وثاقه بحيث لا يستطيع إفلاتاً . . . يا عجباً ! لقد انتفض انتفاضة هائلة ، فإذا هو أسد غضنفر ذو لبدة ، ثم انتفض فإذا هو أفعوان أرقم يتحوى ويتحوى ، ثم انتفض فصار نمراً رائعاً ذا أنياب ، ثم صار خنزيراً برياً ، فسيلا رابياً ذا عباب ، فأيكة باسقة ذات غصون وأفنان ! ولما لم يجد بداً من أن يبدو لنا على حقيقته ، انتفض فكان على صورته الأولى ، ثم قال : « عَمْرَكَ الله يا ابن أتريوس أى إله جبار حبسك فى مياهنا وسلطك علىّ ، تمسك بى وتشد وثاقى ؟ ماذا تريد ؟ » فقلت له : « حسبك يا رب هذا البحر ،

(١) أروح اللحم صار نتناً وصلوله رائحته المنتنة .

إنك كنت بى عليما ! لقد طال مقامنا بهذه الجزيرة ، ولست أدرى أى إله عادل حبسنا فيها ، ولأى شيء ؟!» . وقال بروتيوس : « ويك يا منلوس ! لم لم تُصَلِّ لسيد الأولمب ثم تُضَحِّ للآلهة يوم غادرت طروادة ؟ لقد غضب الجميع فكتبوا أن تضل فى تيه هذا البحر حتى تكون تلقاء مصر ، فتقيم ثمة حتى يثوب إليك رشدك وتصلى للآلهة خاشعاً خابتاً متصدعاً ، ثم تذبح القرابين وتجزر الأضحيات فتعود إلى أوطانك !» وعرانى مما ذكر ما عرانى ، فقلت له : « الحمد لك أيها الإله القدوس .. سأفعل ، سأفعل كل ما تأمرنى به ، ولكن قل لى بحق ربوبيتك ، هل وصل كل رجالنا إلى أوطانهم سالمين كما تركتهم أنا وصاحبى نسطور عند طروادة أم أن منهم من غرق أو قتل أو مات حتف أنفه » .

وكأنما ضاق بى ، ولكنه قال : « ويك يا ابن أتريوس ما هذه الأسئلة ! أتبتغى أن تقف على كل أسرارى ؟ إذن فاعلم أن أكثر رجالك قد عادوا سالمين إلى أوطانهم ، وأن قليلا منهم من مات ، ومن هؤلاء قائدان فقط قد قضيا ، ولايزال واحد يذرع رحب هذا البحر ، ضالا على غير هدى !... لقد هلك أجاكس بما تحدى الآلهة ، وبما ادعى أنه ناج برغم السماء من البحر اللجى الذى كان يناوح سفينته ، فبرزَ نبتيون غاضباً وشطر السفينة نصفين بضربة قاصمة ، من رمحه السمهرى ذى الثلاث شعب ، ثم رطم حطامها بعد ذلك فوق صخرة موحشة .. مسكين أجاكس لقد غص بالأجاج ، وشَرِق بقطرات لمات !... أما أخوك[1] فلقد نجا ! لقد دفعته موجة هائلة فوق شاطىء ( ماليا ) ... أرض ذيستيس وإيجستوس ...

(١) اجاممنون .

ومن ثمة ركب البحر إلى وطنه آمناً ، ألا كم كان أخوك رائعاً حين وطىء أرض الوطن فراح يقبل رمالها ويناجى كثبانها ! ألا ليته ما نجا ! لقد لمحه أحد الأوغاد من جواسيس إيجستوس فانطلق يخبر سيده الذى أعد كميناً من عشرين رجلا من أفسق رجاله فاغتالوه كما يذبح العجل ؟ الأوشاب الفجرة ! لقد باءوا بما صنعوا ، وأبيدوا على بكرة أبيهم ... » .

ولم يكد يصعقنى هذا الخبر حتى خذلتنى رجلاى ، وانطرحت أتقلب فى الرمال من الغم ، وذَرَفْتُ الدمع من الحرقة على أخى . ولكنه خاطبنى قائلا : « انهض يا ابن أتريوس . إنك تبكى ولات حين بكاء ... هلم فعد إلى وطنك لترى بعينيك قبره ولتشهد ابنه العظيم أورست ينتقم له ، ويستأصل شأفة قاتليه » .

وكأنما سرى عنى بما قال بعد ، فنهضت وساءلته بعد أن شكرته على ما أنبأنى : « ... إذن من هذا البطل الثالث الذى ما يفتأ يذرع البحر ضالا فى رحابه ؟ » .

فقال : « ذاك ابن ليرتيس ، وسيد إيثاكا ( أوديسيوس ) ! لقد شهدته بعينى حبيساً فى جزيرة عروس الماء كاليبسو ... لقد حل عليها ضيفاً برغمه ، فلقد تحطمت سفائنه ، وهويته عروس الماء ، وهو لايزال عندها لا يجد مركباً يحمله إلى وطنه ... أما أنت ... أيها الملك منلوس ، فطوبى لك ! إنك ستحيا سعيداً ، ثم تنتقل إلى دار الخلد ونعيم لا يفنى ... جنات الإليزيوم .. حيث لا برد ولا زمهرير ، ولا يوم عبوس قمطرير ، بل تسق ، ومن معك من الأناسى من ماء معين ، لا لغو فيه ولا تأثيم ... مقام كريم وجنة نعيم ، وغادتك الحُسَّان هيلين ،

يا ذرية زيوس العظيم !» .

ثم غاص فى اليم ، وعدت ورجالى إلى الفلك ، وفى القلب لوعة ، وبالنفس أسى . وتبلّغ كلٌ بلقمات ثم أسلمنا عيوننا للكرى ، وكأنما نام أسطولنا فى ظلام الشاطىء .

* * *

وانبلجت أورورا فنضرت بالورد جبين المشرق ، وهبت أنفاس الصباح المنداة فأهرعنا جميعاً ، وجزرنا الأضاحى باسم الآلهة ، وصلينا لها خاشعين ، وأقمت لأخى رمساً فوق ثرى مصر الخالدة ، ثم هبت الريح رخاءً فنشرنا الشراع وأصلحنا القلوع ، وأقلعنا من فورنا إلى أرض الوطن ، فبلغنا هيلاس سالمين .

وبعد ! فلتقم معنا ههنا أياماً تمرح وتفرح ، ونسعد نحن بك يا ابن أعز الأصدقاء ، ثم لنعد لك الهدايا واللهى التى تليق بك ، ولتعد إلى وطنك على عربة فاخرة تجرها ثلاثة من الصافنات الجياد ؛ ولنزودك بكأس ذهبية تصب منها قرابين الخمر للآلهة فتذكرنا أبداً .

وشكر تلماك واعتذر ، وأبدى من الحنين إلى وطنه ، وما عليه من واجبات ، وما ينبغى من عودة ابن ملك بيلوس ، ما برر عنده أن يستأذن فى الأوبة . . . فأعذره ملك أسبرطة ، وأهدى إليه كأس فيديموس الفضية ، ذات الشفة الذهبية ، الكأس الخالدة التى صنعها الإله فلكان بيديه لينفح بها ملك سيدونيا .

وهيأ الندل مقصفاً فاخراً به جَزُور وخمر ، وأقبلت أزواجهن يحملن

الخبز ، فأكل الملك ومن معه ورَوَوْا .

* * *

هذا ما كان من أمر تلياك ومنلوس .

أما ما كان من أمر العشاق آنئذ ، فقد كانوا يلعبون ويمرحون فى بيت ملك إيثاكا ، يلاعبون الأسنة ، ويقذفون القرص ، ويتصارعون ويمزحون . كانوا جميعاً يأخذون فى هذا اللهو لتزجية الوقت ، إلا أنتينوس ويوريماك ، فقد جلسا بمعزل يتحادثان . إذ أقبل الفتى نومون إبن فرنيوس وقد تغضن جبينه ، وانتشرت على أساريره سحابة كئيبة فقال :

« أرأيتَ إذ أعطيت سفينتى للفتى تلياك فإنى أريد أن أبحر إلى إيليس لأرعى أفراساً لى اثنتى عشرة لا تزال ترضع أفلاءها[1] ؛ متى يرجع من بليوس يا أنتينوس ؟ » .

ورُوِّعَ الرجلان لهذا الخبر ، فلم يكن أحد يعلم أن تلياك قد غادر إيثاكا ، بل كانوا يظنونه يجتر آلامه وأحزانه فى أحد الأدغال النامية فى مزارعه . قال أنتينوس :

« أحقاً أنه أبحر يا نومون ؟ وهل صحبه أحد من ذويه ؟ وعلى سفنتك ؟ سفينتك أنت ؟ وهل أبحر عليها بدون إذن منك ، أم أنت الذى أذنت له بها أول ما طلبها منك ؟» .

وأجابه نومون : « بل أبحر عليها بإذنى . وماذا عساك كنت صانعاً لو سألك أمير فى مثل بأسائه أن يبحر على سفينتك ؟ أكنت ترفض وتتأبى ؟ لقد أبحرت معه ثلة من أشجع البحارين ، كلهم فينان العود ، غريض

(١) الفلو ولد الفرس لم يبلغ عاما .

الشباب ، وقد رأيت معه أمير البحر منطور . ألا كم كان يبدو منطور بهيا وقوراً رائعا ! تالله لقد خلته ـ بل أكبر ظنى أنه ـ أحد الآلهة ! وكيف لا يكون إلهاً وقد رأيته بعينى هاتين صباح أمس وهو قد أبحر إلى بيلوس قبيل ذلك ، فأنَّى عاد ؟» .

وفرغ نومون ، وعاد أدراجه إلى دار أبيه ، واستولى الذهول على الرجلين ، وكان العشاق قد فرغوا مما أخذوا فيه من لهو ولعب ، وجلسوا يستريحون من التعب ، فيمم شطرهم أنتينوس ، وهو يتميز من الغيظ ، وينقدح الشرر من مقلتيه ، فقال :

« يا أرباب السماء ! أفيقوا أيها الرفاق ! عمل باهر ! باهر جداً ! لقد أبحر الفتى تلياك فى عصبة من شباب الملاحين ليؤلب عليكم العالمين ، ويرسل علينا حسبانا ! الويل له ! أعدوا لى مركباً وعشرين فارساً من أبسل صناديدكم لأفجأ ، بين أواذىّ ساموس ونُتُوء إيثاكا ، التاعس الذى ذهب يستروح أخبار أبيه ليسعى إلى حتفه بظلفه » .

وتحمّس الملأ وعلا هتافهم ، وهرولوا إلى الرحبة الداخلية فى بيت أوديسيوس يتآمرون ، وكان على مقربة منهم الأمين ميدون ، الذى انطلق بدوره ينقل ما عقدوا خناصرهم عليه من إفك إلى الملكة الباكية المفئودة . . پنلوب ـ وما كاد يقص عليها ما اعتزموه من قتل تلياك حتى تضعضعت وتخاذلت ومادت من تحتها الأرض ، وتحبّست أنفاسها هنيهة ، ثم سألت ميدون فيم أبحر ولدها . « ألكى ينقرض اسمه من صفحة الوجود ؟» وأجابها الرجل ! إنه ذهب يتسمّع الأنباء عن أبيه ، ثم ذهب لِطيّته ، وجلسَت الملكة المرَزَّأة لدى الوصيد تبكى وتنتحب ، ومن حولها الغيد

الرعابيب والعجوز الشمطاء من خادمات القصر ، يُعولن ويكَفكِفْن . . .

قالت الملكة : « ويح لى أيها العذارى ! أبداً ما أحسب واحدة من النساء قد لقيت بعض الذى لقيت مما كتبته علىّ السماء ! لقد فقدت زوجى ، أسد هيلاس ، الكريم أوديسيوس ، الأمير الحلاحل ، رجل الفضائل والمروءات ؛ ثم لم يبق إلا أن يرحل عنى ولدى .. دون أن أعلم أمر رحيله من إحداكن ، فكنت أحول بينه وبين ما اعتزم ولو أدّيت ثمنا لذلك روحى ! ولكن . . . هيا . . . لتمض دليون - خادمتى الوفية ذات التجاريب - إلى ليرتيس - فلتحدثه عما تآمر الذئاب وَىْ ! لم يبق إلا أن يقتلوا ولدى وسليل أوديسيوس !» .

ونهضت يوريكليا مرضع تلماك ، تنثر دموعها وتقول :

« واأسفاه علىّ أيتها الملكة ! سأعترف بما كان ولك أن تَقْتُليني .. أو تبق علىّ ! لقد زدوت الأمير بكل ما أمر من زاد وخمر ، وأخذ على موثقاً إلا أبوح بسره حتى تمضى إثنا عشر يوماً بتمامها . . . حتى أنت يا مولاتى ! لقد أمرنى ألا أُعلمك بشىء ، فاهدئى يا مولاتى ولا تضاعفى أحزان القصر بحزن جديد ، وامضى إلى مخدعك فاستريحى ثمة ، ولنصلّ جميعاً لربة العدالة مينرفا - باللا الطيبة - أن تصون مولاى الأمير وترعاه ، وتكلأه من كل خطر وليعد إلى عرش آبائه ليحكم ويعدل ويدبّر شؤون البلاد .

ورقأ الدمع فى عيون الحاشية ، ونهضت بنلوب فصعدت إلى الطابق العلوى ، وأمرت بسلة من الكعك فنفحت بها العذارى قرباناً لمينرفا وتقدمة ، ثم أرسلت هذه الصلاة :

« إسمعى يا ابنة سيد الأولمب ! يا مينرفا العادلة ! باسم ما ذبح لك

أوديسيوس فى هذا القصر وماضحى نضرع إليك ونتوسل بك ونصلى لك ، أن تصونى ابنه الأمير وأن ترسلى عبوسة من شواظ غضبك على أعدائه .. أولئك الأضياف الظالمين .. آمين » .

وانهمرت الدموع من عينى الملكة فاستجابت مينرفا لصلاتها ، ثم علا ضجيج القوم وارتفع صخبهم ، وكان فيهم شاب نزق التاثت فى أذنيه صلاة بنلوب فحسبها أشرفت تناغى وتغازل ، فراح يعرض بها فى كلمات قوارص ، قطعها عليه أنتينوس بتحذيره القوم، ونصيحته لهم أن يستعينوا على حزم أمرهم بالكتمان .

وتخير أنتينوس عشرين من خيرة رجاله ، ويمم بهم شطر البحر ، ثم ركبوا فى سفينة أعدت لما اعتزموه من تلصص وقرْصنةٍ وفتكٍ إعداد كافياً فنقلت إليها الأسلحة وحملت إليها أحمال الزاد والذخيرة .. وأقلعت ، لا باسم الآلهة مجراها .. ولا سلكت سبيل الرشاد .



واضطجعت بنلوب فى فراش حَشْوه فكر وهم ، وجاشت فى قلبها الوساوس ، وطفقت الأوهام تفتك برأسها القلق الحيران بسبب ولدها ، وما دبر له الكلاب وما كادوا . مسكين أيها الأسد ! لولا قوتك وجبروتك ما أكثر صائدوك حولك الأحابيل .

وأخذتها سنة من النوم ، فأقبلت مينرفا الكريمة فى رؤيا عجيبة تواسيها وتذهب عنها طائف الحَزَن ، فتزيّت بزى الأميرة المفتان ، إفتيما ، ابنة البطل الكبير إيكاريوس ، ثم وقفت عند رأسها ، وشرعت ترسل هذه الأحلام .

أهكذا تنامين ملء عينيك الجميلتين يا بنلوب العزيزة ؟ ليفْرخْ روعك ، وليصف بالك ، فالسماء ترعى ولدك ، وهو عائد إليك عما قريب ! إنه لم يقترف شيئاً مما يغضب الآلهة ، ولـذا فهـى تـكلؤه وتـرعاه وتحفظه ، فقرى عيناً واسلمى وانعمى !» .

وتقول بنلوب و هى تحلم :

« من ؟إفتيما ؟ عجباً ! فيم قدمت يا أختاه وقد نـدر مـا كنـت تلمين بهذا القصر ، ألتواسينى وتسلينى ؟ لقـد تـكاثرت الأحـزان على قلبى وتكسرت النصال على النصال ، لقـد فقـدت زوجـى أسـد هيلاس ، وفخر آرجوس ، وعزى الأبدى ! ثم ها أنا ذى انتفض فرقاً على ولدى . . . ولدى الطرى الفينـان ، الـذى لا قـدرة لـه ولا احتمال . . . فى هذا البحر اللجى . لقد أقلعت به سفينة كأنها تسبح فى بحر من دمى وأحزانى !

وها قد تعقبه الأشرار فى سفينة أخرى يـريدون غيلتـه قبـل أن يـرتد الى وطنه !» .

وتجيبها مينرڤا : « لا عليك يا ملكة ، ولا عليه هو الآخر ! إن معه راعياً يحفظه ويوقيه . . راعياً يتمنى الجميع أن يـكونوا فى رعـايته أبداً . . . مينرفا ! إنها أيضاً تبشرك وترفه عنـك ، وأنـا هنـا رسـولها إليك ، اقبلت بأمرها أواسيك !» .

وهلعت بنلوب ثم قالت : « وَىْ ! أما إنك إذن لرَبة وقد كلمتـك الأرباب . . ألا قُصى على إذن ما كان مـن أمـر رجُلى ، ألا يـزال حيـاً يرزق ؟ أم تخطفته يد المنون ؟» .

وتضاحك الشبح العابس فقال : « لا ! ليس الآن ؟ لن أذكر لك إذا كان رجلك لا يزال حياً أو إنه قد قضى ، ما لنا ولذلك ؟» .

ثم رفت فى ظلام الغرفة ، وصعدت فى سماء الأحلام .

ونهضت الأم وقد سرى عنها بهذا الحلم ، وانجاب كابوس الغم الذى كان يجثم على قلبها .

**

وأقلع العشاق بفلكهم فى اليم المضطرب ، كل تحدثه نفسه بمقتل تليماخوس ، حتى كانوا عند برزخ أستريس ، بين ساموس وإيثاكا .. فأرسوا ثمة يتربصون .



# أوديسيوس يبحر من جزيرة كاليبسو

هبت أورورا من فراش زوجها الدافىء الحبيب ( تيتون ) فنشرت فى المشرقين غلالة سنيةً مـن فيض ضـوئها ، بينمـا كان مجلس الآلهـة منعقدا فى ذروة أولمب ، وقد استوى زيوس على عرشه ، ومينرفا . . . ربة الحكمة والموعظة الحسـنة ، قـائمة بيـن يـديه ، تحصى آلام أوديسيوس ، وتبث أشجانه وتصور للآلهة صنوف العذاب التى يتجـرع غصصها وحده فى هذه الجزيرة النائية السحيقة ، فتقول :

« أبتاه ! يا سيد أرباب أولمب ! جوف ! إصغ إلى ! وأنتـم يا آلهة الخلود ! أعيرونى انتباهة واحدة منكم ، فإنها حسبى ! إلى أين تصير الأمور إذن ؟ ها كم قد أصبح أمـر النـاس فـوضى . . . والطغاة يعيشون فى الأرض مفسدين ، وكأنمـا أغمضـتم أعينكم عـن خيارهم ، ولم يضركم ألا تكفوا أشرارهم ، فنسـيتم الرجل الصـالح أوديسيوس الذى طالما منحكم محبته ، والذى بذل لشعبه مهجته . . . يثوى اليوم فى تلك الجزيرة الموحشة يجتر همـومه ، ويبعثـر فى صـفحة السراب آمـاله . . . كلاً على كاليبسـو عـروس الماء . . . لا يملك سفينة فيقلع إلى الوطن ، ولا يجد قلباً إلى جانبه فيبثـه حـزنه ويشـتكى إليه لأواءه . . وكأنما لم يكن بحسـبه بعض ذلك ، بـل تسـلط عليـه الأقدار القاسية عصبة من الأعداء الألداء يتربصون بـابنه الشر ، وينتوون غيلته ، إذ هو عائد من أقصى الأرض ، من أسبرطة وبيلوس بعد رحلة منهكة باكية ، قام بها يتنسم خبرا عن أبيـه ، يشـفى فى قلبـه غلـة ، ويبرىء فى نفسه كنوماً »

ويجيبها رب السحاب الثقال :

« أية كلمة هائلة انفرجت عنها شفتاك يا ابنتى ؟ ألست تتشوقين إلى عودة أوديسيوس سالماً آمناً فيبطش بكل أعدائه ؟ إطمئنى إذن ، ولتحرسى ولده تليماخوس حتى يصل سالماً آمنا هو الآخر إلى أرض الوطن ، وليَبُوء أعداؤه بالفشل » .

ثم توجه بالخطاب إلى ولده هرمز ، رسول الآلهة ، فقال :

« هرمز ! هلم يابنى إلى عروس الماء الشقراء كاليبسو برسالاتى ؟ مرها أن ترسل أوديسيوس على رمث[1] وحده ، لا أنيس له من إنس ولا آلهة ، فليلق الأهوال الطوال حتى يصل إلى شيريه أرض الفيشيين ، ملوك البحار وأصهار الألهة ، فليزودوه بسفينة وزاد وذخيرة من أحمال من ذهب وديباج ، وبكل ما تشتهى نفسه مما يفوق نصيبه الذى حصل عليه من أسلاب إليوم ، لو عاد به غير منقوض الى أرض الوطن ، ثم ليبحر سالماً إلى إيثاكا .. بهذا قضت المقادير أن يؤوب . . . وأن يستعيد سلطانه وصولجانه ، وملكه وإيوانه ، ويلقى بعد طول النأى خلانه » .

وأصلح رسول الآلهة الأمين ، هرمز نعليه الذهبيتين ، فخفقتا به كالريح فوق السحاب وفى يمناه عصاه السحرية العجيبة التى إن شاء داعب بها الجفون فأغفت ، وإن شاء ردها إلى الصحو واليقظة ، وما فتىء يرف بين السماء والماء ، ويدوِّم فى ذاك الفضاء كالغرنوق[2] الذى

---

( ١ ) خشب يضم إلى بعضه ويركب فى البحر raft .

( ٢ ) بوزن طنبور وبوزن فردوس طائر مائى ( الغطاس ) .

يتواثب على أعراف الموج يصيد ما يقتات به ، حتى كان فوق تلك الجزيرة المنعزلة عن جميع العالم . ثم ما برح يرنّق هنا ويرنق هناك حتى اهتدى الى ذلك الكهف السحيق الذى تأوى إليه عروس الماء الشقراء ذات الشعر الكهرمانى وقد جلست ثمة تغرد وتغنى وتعمل دائبة فى منسج أمامها ، ويداها تتلقفان الوشيعة [1] الذهبية كما يخطف البرق ! والنار تتأجج فى الموقد بقربها وتتوهج ، وجمر الأرز والصندل يعبق ويتأرج ، ويملأ نَشْرُه أركان الجزيرة وفجاجها .. وقد بسقت أشجار الحور والسنديان عند مدخل الكهف فغشّته بظلال رائعة ، وظلمات رهيبة ؛ وصنعت جوارح الطير أوكاراً لها فى الدوح الذاهب فى السماء ، ووَكَنَت [2] الحدأة بيضها وقر الغداف [3] جنب صغاره ، وطفقت البومة ترسل فى الآفاق صفيرها ، وتناثرت فوق الشاطىء أفاحيص الطير من كل نوع ؛ وامتدت الكروم عن يمين الكهف وعن شماله مثقلة بالعناقيد ذوات السكّر ؛ وتدفقت جداول أربعة من عيون كوثرية تسقى السندس الجميل المنضر بأفواف الورد والبنفسج .. منظر عجب ، وأى منظر عجب يبعث البهجة والانشراح حتى فى قلوب سكان السماء !

ووقف هرمز يمتع ناظريه بسحر هذه الجنة ثم دلف إلى الكهف ، ولم يكن يسيراً على عروس الماء أن تعرف من هو ، وأى إله خالد

(١) المكوك .

(٢) رقدت عليه .

(٣) الغداف بضم الغين غراب القيظ .

طرق بابها ، ولو أنها هى أيضا فرد من أسرة الخالدين .. ذلك لأن سكان السماء يكونون مثلنا أحيانا ، لايعرف أحدهم جميع الآخرين ، لبعد الشقة ، ونأى الدار ، وانقطاع المزار ... ، ... وأرسل عينيه فى كل شق من شقوق الكهف ، بيد أنه لم يقف لأوديسيوس على أثر .. فانثنى ، ويمم نحو الشاطىء واستوى على صخر عظيم ناتىء وشرع ينثر من عينيه الدموع الغوالى ، يطفىء بها فى القلب سعيرا سرمدياً يلازمه أبد الدهر .. وكأنما عرفت كالبسو من هذه الآية أنه هرمز ، فراحت تسائله ، إذ هى مستوية على عرشها الممرد العظيم :

«هرمز ! يا صاحب العصا السحرية ، يا من طالما أحببته وبجلته ، حدثنى فيم أقبلت ، وقد ندر ما قدمت إلى هنا . هلم فقل . سل حاجتك فسأقضيها إن تكن فى وسعى .. ولكن هلم أولا ولتؤد لك مراسم القرى وواجبات الضيافة .. هلم ! » .

ومدت عروس الماء سماطاً حافلا بأشهى ألوان الطعام وصنوف الشراب ، وأقبل هرمز فاغتذى وروى من هذه المائدة القدسية ، ثم توجه بالكلام فقال : « تسألين أيتها الربة فيم أقدمت ! ألا فاعلمى أننى ما أقدمت عن أمرى ، لكنه أبى ، سيد الأولمب وكبير الآلهة ، هو الذى أرسلنى . إذ أية حاجة لاله فى هذه القطعة المنعزلة من الأرض ، يحيط بها الملح من كل مكان حيث لا عباد ولا خلق يؤتون الزكاة ، ويقيمون الصلاة ولا أثر لعبادة زيوس العظيم ! إنه جل

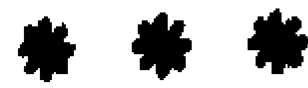
جلاله ، يقول إنك تحتجزين هنا أتعس مخلوقاته ، البطل الكبير الذى نزح عن بلاده إلى إليوم فقضى ثمة تسع سنين ثم أبحر عنها بعد سقوطها فى العاشرة مع محاربى هيلاس الذين تفرقوا فى البحر شذر مذر ، فمنهم من غرق ومنهم من قتل ، ومنهم من وصل الى بلاده .. إلا إياه .. فقد هلك كل رجاله ، وقذفه البحر فوق جزيرتك النائية .. جوف يأمرك أن ترديه ، ففى كتاب المقادير أنه لا يهلك هنا .. بل يعود الى بلاده ويلقى فيها آله » .

وزُلزلت كالبسو زلزالا وقالت تجيبه : « ها ... الظلم والحسد ... دائما .. هذا دأبكم يا آلهة .. كم تأكل قلوبكم الغيرةْ كلما ضمت ربة إلى ذراعيها أحد بنى الموتى ! وهل نسيتم يوم ثرتم عندما علقت ديانا ذات الأصابع الوردية هذا الفتى الجميل أوريون ، وكيف دبت الغيرة فى قلب أبوللو فمكر هذا المكر السيىء ، ودبر قتل الفتى بيدى حبيبته ديانا !؟ [1] هل نسيتم أيضا كيف أرسل أبوكم جوف إحدى صواعقه على أياسيون المسكين لأن سيرس ربة الربيع قد هويته وأخذته بين ذراعيها حين شغفها حبا ؟! كذلك أنتم معى اليوم ، وكذلك أنتم غيورون دائما ، فما أقساكم إذ تنفسون عَلَىَّ

( ١ ) تراجم الأوديسة التى بأيدينا مبهمة فى الكلام عن هذه الأسطورة لذلك اضطررنا أن نتصرف قليلا اعتمادا على شرح الأستاذ جربر - وخلاصتها ان أبوللو علم بما بين أخته وديانا وأوريون من عشق فاستدرج ديانا وأخذ يباريها فى الرماية - وكان أوريون يستحم فى البحر فجعلها تصوب سهمها الى رأسه وهى لا تدرى فقتلته .

حبيبى ؟! لقد أنقذته بنفسى من هذا اليم الذى التقم سفينته بمن فيها حين شطرها أبوكم بسهمه فى عبثة من عبثاته ! حبيبى الذى أهواه من أعماقى وأفتديه بروحى ، والذى أمهد له حياة الخلود .. ولكن ... واأسفاه ! كيف أطرده من عندى ؟ ويحى ! إن تكن هذه مشيئة زيوس فلأحدثنّ أوديسيوس ليرى لنفسه ، إذ ليس عندى مركب يأمن فيه غائلة هذا البحر المضطرب ، وإنى ناصحة له ..» .

وكلمها هرمز فأنذرها من غضبة سيد الأولمب وحضها أن تعمل على إبحار البطل .



ورفّ هرمز الرسول فى لازورد السماء ، وانطلقت عروس البحر تبحث فى الجزيرة عن أوديسيوس ، حتى لقيته فوق صخرة ساهماً واجماً ، تَفْرى قَلْبَه الهواجس ، ويعبث به محال الأمانى ، وقد انهمرت فوق خديه عَبرات حِرار ، واللحظات تذبل فتسقط من حياته فى ظلام اليأس كأوراق الخريف ، وقد ملّ هذا المقام الطويل البائس فى جوار عروس الماء التى كانت تخلع عليه حبها البارد ، وتقسره على أن يقضى لياليه بجانبها على فراش واحد فى ذلك الكهف السحيق ... وكلما فكر فى وطنه ، ونظر إلى الموج المتواثب فى أفق اليم ، وعرف أن لا قدرة له عليه ... بكى وأنّ ، وتوجّع وتصدّع ، وأرسل فى لا نهاية الماء والسماء آهات وآهات ... » .

واقتربت منه عروس الماء فى رفق وَحَدَب ، وقالت له :

« أيها التعس لا تنتحب هكذا ، ولا تصهر حياتك الغالية فى تنور

من الآلام ، هلم . . . هيا إلى عمل مجيد . . . أمامك الدوح العظيم والأيك الذاهب فاقطع منه ما شئت واصنع لنفسك رَمَثاً يحملك فوق هذا العباب المتلاطم . وسأزَوِّدك بكل ما يكفيك من طعام وشراب ؛ وسأمدك بأثواب جديدة تقيك الحر والبرد ، وسأسخر لك الريح تُهَدْهِدك إلى بلدك البعيد . . . هذا قضاء من آلهة السماء التى تقدر فتعدل ، وتقضى فلا يرد لها قضاء . . . » .

وتفزَّع أوديسيوس لهذه المفاجأة ثم قال : « أوه يا عروس ! بل فى الأمر سر تحاولين إخفاءه عنى . . . أى رَمَث يحملنى فى ذلك البحر اللجى وأى ريح تُسَخِّرين من أجلى ؟ وإن السفينة العظيمة لتمخر عبابه وهى لا تدرى أتسلم أم يكون أهلها من المغرقين ؟ لا . . . لن أفعل حتى تعطينى موثقك ، وحتى تقسمى القسم العظيم ، أنك لا تبطنين لى شراً ولا أذى ! » .

وتبسمت الربة الهيفاء ، وراحت تربت على خديه وهى تقول :

« ويحك ! كيف تسىء بى الظن يا أوديسيوس ؟! أية حجة تملأ بها يديك على ما قلت ؟ ولكن اصغ إلى . . . أقسم لك بقسم الآلهة فى الأرض والسماء والدار الآخرة . . . بالقسم العظيم الذى يقشعر لذكره كل شىء . . إنى لم أضمر لك فيما عرضت عليك شراً ولا أذى . . . إن الذى تبكى من أجله ، أبكى أنا أضعاف ما تبكى من مثله ، فلقد كنت ضرورة من ضرورات حياتى هنا ، ولقد عَلق بك قلبى ، وهامت بحبك نفسى ، وليس قلبى من صخر فيحتمل البعد عنك بَلْه الإضرار بك » .

وانطلقا سويا إلى الكهف ، وجلس أوديسيوس فوق المتكأ الذى كان يجلس عليه هرمز منذ هنيهة ، ثم أقبلت جوارى الماء يحملن شيئاً كثيراً من اللحم والشراب فأكلا وَرَويا ؛ ثم شرعت كاليبسو تحدثه وتقول :

« أهكذا يا أبن ليرتيس العليم ، أيها الحكيم الصناع ، لا تفتأ تحن إلى وطنك وتعتزم الرحيل إليه ؛ أنا عذيرك يا أوديسيوس .. فوداعاً ! ولكن هل فكرت أيها الرجل فى الأهوال الجسام التى تخرط قتادها قبل أن تصل إلى بلادك ؟ أليس خيراً لك أن تظل إلى جانبى ، وتقاسمنى كهفى ، فتصبح من الخالدين .. وتنسى هذا الجمال الفانى الذى لا ينفك يصبيك ويسبيك ، والذى أحسب جمالى وفتنتى لا يقلان عنه سحراً إن لم يزيدا عليه فتوناً ؟! » .

فيجيبها أوديسيوس الحكيم: " أيتها الربة المخوفة ! هوِّنى من حفيظتك ! فأنا أعلم أن بنلوبى العزيزة لا تزن من جمالك وفتونك مثقالا ، لأنها هالكة ، ولأنك من الخالدين . بيد أن الذى يصبينى هو وطنى ... وطنى الحبيب الذى أحن إليه وأهيم به ، وفى سبيل العودة إليه لن يخيفنى هذا اللج المتلاطم ، فلقد بلوت الأعاصير فى البر والبحر ! فى خبار المعمعة ؛ وفى الفلك تحت كلكل الزوبعة .. إلّى ، إلّى يا خطوب ، وأقدمى بكل حولك يا رزايا ... » .

* * *

وتوارت الشمس بالحجاب ، وأرخى الليل سدوله فوق الجزيرة ، ونامت الربة فى سريرها الوثير ، وبين ذراعيها حبيبها تشمه وتضمه ، وتحسه وتلثمه . . حتى إذا نضَّرت بالورد أورورا جبين المشرق ، هب الإلفان وتدثرا ؛ هذا بثوبه الخشن ، وتلك بشفوفها الرقيقة الثلجية الناصعة ، التى كأنما نسجت من نسمات الصباح العطرى ، وراحت تخطر فينانة ريانة ، وقد أتشحت حول وسطها النحيل بقرطق [1] جميل ، وألقت على رأسها بخمار صفيق رقيق ؛ وقدمت إليه فأساً ذات حدين أحدهما كالساطور ، ركبت فيها يد من خشب الزيتون المتين ، ثم إزميلا حاداً مرهفاً . . وسارت بين يديه حتى كانا عند غابة عظيمة مُخْرفٍ ، لاحبة شاحبة ، بسقت فيها أشجار الحور والسنديان والشربين [2] ، وتركته ثمة ، وعادت أدراجها إلى كهفها . . .

ولم يهدأ للبطل المسكين بال ، بل شرع من فوره يقطع كل أيكة عظيمة حتى اجتث عشرين من أكبر دوح الغابة . . ثم أقبلت كاليبسو وقد حملت إليه آلات ساعدته فى تشذيب الشجر ، واستطاع بعد لأى أن يضم بعض الجذوع إلى بعض ثم كلبها بكلابات كبار ، وأفرغ فى وسط الرمث له ولما يحمله مكاناً أميناً ، كأحسن ما يصنع السفانون . . . ودعم ذلك جميعاً بألواح ودُسر ، وصنع قلعاً وجعل فى القلع شراعاً ، ثم سوى السكان مكانه ، وجعل فى الباطن صبارة [3] كبيرة تق الرمث الانقلاب ، ولم ينس أن يجدل جوانبه بفروع وأغصان

( ١ ) قرطق بضم قاف وفتح طاء ثوب يشتمل به .

( ٢ ) For ولم نجد لهذه اللفظة أثراً فى اللسان والقاموس .

أو صبرة قطعة حجر كبيرة يتزن بها المركز فى البحر وتسمى فى مصر ( صابورة ) .

تزيد فى قوته وتضاعف من مُنَّتِه . وأتم صنع مركبه فى أربعة أيام ، وأنزله إلى البحر فى الخامس ، ثم أدخلته عروس الماء حمامها فغسلته وضمخته بالطيوب والعطور ، وخلعت عليه من ديباج ثمين ، وزودته بزقين من خمر وماء ، وأمدته بشيء كثير من طعام وأثواب .

ودع عروس الماء المحزونة ؛ وجلس عند السكان ، ثم دفع الرمث فى البحر ، وابتعد رويداً رويداً .

وكان قلبه يفيض بالبشر ، وصدره يمتلىء بالانشراح .. وظل يجرى به الفلك الصغير سبعة عشر يوماً ، وعيناه فى كل ليل ما تريمان عن الثريا فى علياء السماء ، وما تفتران تنظران إلى نجوم الدب الأكبر التى تقف للجبار [1] بالمرصاد ، كما علمته عروس الماء قبل أن يبرح ، أن يجعل هذا النجم إلى شماله أبداً .

ثم بدت جبال فِيَشْيا الشم كأنها دروع مسرودة فوق صدر الأرض الشاحبة .. ولكن ! واأسفاه ! .. لقد كان الجبار نبتيون ثانياً عنانه من سوليما [2] ، فلمح أوديسيوس فوق رمثه يتواثب على هام الموج ، ويقترب من الشاطئ ، فينجو إلى الأبد من بطشه .. وثارت فى نفس نبتيون - إله البحار ، وأعدى أعداء أوديسيوس - ثورة من الغضب ، وظل يعلك هذه الكلمات فى نفسه من فوق بطاح إثيوبيا :

« وى ! أو قد تبدلت مقادير الآلهة إذن ، وتحركت فيهم عواطف الحنان من أجل هذا الرجل أوديسيوس ، فقضوا فيه ما قضوا لأنهم

---

( ١ ) الجوزاء Orion .

( ٢ ) احدى مقاطعات آسيا الصغرى وكان تدعى بيسيديا .
هكذا فى الأصل .

يسكنون السماء ، ولم يبالوا بى لأنى أسكن الأرض فى إثيوبيا ؟ إنه يرى شاطئ فيشيا قيد وثبات منه وهو إذا قفز إليه أصبح بنجوة من هموم تترصده فى كل موجة من موجات هذا اليم ... ولكن ... لا ... لأهبنه بألف سوط عذاب قبل أن يصل إلى البر ...».

ثم إنه لاعب السحاب بصولجانه ذى الشعب الثلاث فانعقدت منه ظلمات فى أرجاء السماء ، وطفق يهز أعماق البحر فهاج وماج ، وتلاطم بالأمواج ، وصاح صيحة برياح المشرقين ورياح المغربين فاجتمعت إليه من كل مكان سحيق .. ثم هبت ريح الشمال الثلجية اللافحة فانطفأ لألاء النهار ، وأظلم الليل فجأة ، وطغى العباب وشابت نواصيه بالثبج ، وتناوح الموج الغضوب حول الرمْث ، وهلع فؤاد أوديسيوس وأصبح قلبه فارغاً ، وطاشت أحلامه وذابت أمانيه العِذاب ، وراح يحدث نفسه هكذا : « يا لتعاستى ! أى مقدار قاس يترصدنى ؟ لقد أنذرتنى ربة الماء مغَبة هذه الرحلة الهوجاء فى البحر فما صدقتها ، وتنبأت عن الشدائد التى تعتور طريقى إلى الوطن ، فها هى ذى تتحقق ! أية أعاصير هُوج وأى موج ينتفض من الأعماق قد سلطه جوف على هذا البحر ! بعد لحظة أغوص فى ظلمة هذه القبور التى يَشّقق عنها الموج ! ألا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً تحت أسوار إليوم ، يوم أوشكت أن أقضى ثلاثاً فى سبيل إنقاذ الأتريدس [1] أو يوم أوشكت أن أصرع برماح الطرواديين إذ أدفع جموعهم عن جثة أخيل !! أجل ! لو أننى مت ثمة لأقيمت من أجلى الطقوس الجنائزية ، وأديت لى الشعائر الدينية ،

---

( ١ ) هو بيت أجاممنون .

وذرف فوق قبرى كل يونانى أغلى دموعه وأعز عبراته . وتفاديت هذه الموتة المجهولة التى تكاد تلتقمنى !» .

ثم كانت الطامة .. فإن موجة كالطود فجأته ... فبعثرت الرمث ... وأفلت مقبض السكان من يدى أوديسيوس ، فانتثر فى اللجة ، ثم غاص فى أعماقها ، وعبثاً حاول أن يطفو .. لأن الرياح تكالبت عليه من كل مكان ، وكلما نجا من موجة فغرت له فاها أخرى .. ثم حدثت المعجزة .. فقد وسعه بعد لأى وبعد عناء شديد أن يدفع نفسه دفعة اليأس إلى السطح ، وأن يملأ رئتيه المنهوكتين بتنفسهْ من الهواء كانت تمتزج بالماء الأجاج المتصبب من جبينه ، حتى لأوشك أن يغص بها ... لولا أن لطفت به الصدفة ، فرأى الرمث قريباً منه ، وقد انتزعت العاصفة قلاعه وشراعه ، فسبح إليه وأمسك به ، ثم استوى عليه ، وتركه للموج تلعبُ به واحدة وتعبث به أخرى ، وتجتمع عليه الرياح عن شماله ويمينه ، ومن خلفه وقدامه ، حتى قَيَّضَ له القدر عروس الماء ( إينو ) ابنة قدموس .. التى كانت تعيش فى البر وتعرف فيه بهذا الاسم ، والتى اتخذت اسم ( ليوكوتيا ) بعد أن نزلت إلى البحر وعلقها أحد الآلهة فوهبها الخلود .. لقد تفجرت فى قلبها شآبيب الرحمة من أجل أوديسيوس لما رأته فى هذا الروع الذى ليس كمثله روع ، فسحرت نفسها ، ووثبت على الرمث فى صورة غطاس الماء ، ثم قالت له : « ويحك أيها البائس ! فيم أثرت غضبة نبتيون عليك حتى ليتبعك سربا فى شعاب البحر ، ويصب عليك كل تلك الرزايا ...؟ على أننى أنصح لك أن تدع هذا الرمث ، تتدافعه الرياح حيث تشاء ،

ثم تخلع ملابسك ، وتقفز فى الماء ، وتسبح بقوة وجلد حتى تصل الى شطئان فيشيا ، حيث تسلم بنفسك ، وتكون بمأمن من بطش هذا الجبار . خذا ، هاك زناراً[1] من حرير من حياكة السماء ، لُفَّه تحت صدرك ، فإنه يجعلك بمأمن حتى من مجرد التفكير فى الموت ، فاذا وصلت سالما إلى الشاطىء فارمه بكل ما أوتيت من قوة بعيداً فى البحر ، وأدر وجهك بمجرد أن تفعل ، بشرط ألا تنظر إليه وهو يسقط فى الماء »

وسلمت إليه الزنّار الموعود ، ثم غاصت فى الماء ، وبقى أوديسيوس مكانه فى حيرة شديدة وحزن عميق ، ثم أفاق من غشيته ، وجعل يهرف هكذا : « أوه ! ترى ؟ أذاك شرك آخر تدبره الآلهة لى ؟ ولكن لا . . . لن أبرح مقيما فوق الرمث ، فالبر بعيد ، ولأظل مكانى مادامت الجذوع مكلبّة هكذا ، فإذا حَطمتها يد الحدثان فلأفعلن كما أشار الإله الذى كان يكلمنى منذ لحظة . . . » وما كاد يفرغ حتى أرسل عليه نبتيون موجة جارفه حطمت رمثه ، وتركته عالقاً بأحد الألواح . . وأسرع أوديسيوس فخلع الرداء الجميل الديباجى الذى خلعته عليه كاليبسو ، ولف الزنار الموعود حول صدره ، وقذف بنفسه فى الماء . . وراح يسبح !

**وكان نبتيون الجبار يرى بعينيه ، ويشفى حرده ، ويقول فى نفسه : « ذُقْ ياأوديسيوس وبال أمرك فى هذا الطوفان ، قبل أن تصل حبالك بحبال الشعب الذى هو حبيب الآلهة ، وسترى ثمة هل تنتهى آلامك »**

---

( ١ ) الزنار ما يلبسه القسس حول أوساطهم .

وحثَ مطيه حتى وصل ( إيثِه ) حيث يشرف قصره المنيف .

***

وكانت مينرفا تشهد الكفاح الهائل بين أوديسيوس وبين اليم ، فاطلعت من عليائها ، وداعبت الرياح حتى استنامت ورنت ، ثم أطلقت بوريس ، ريح الصباح الشمالى الكريم فجرى[1] رخاءً ، يدفع أمامه البطل العظيم الذى ظل يناضل الموت ويصرعه يومين أطول من دهر ، وليلتين أحلك من غيابة جب ، حتى إذا غابت أورورا فى اليوم الثالث ، استطاع أن يرى الشاطىء على مرمى البصر ، فوق موجة عالية .

ما أحلى الأمل الذى يحيا بعد يأس ؛ لقد كان أوديسيوس ينظر إلى التلال والجبال القريبة ، والغابة النائمة فى أحيادها ، كما ينظر الأطفال الأبرار إلى أب لهم أنهكته العلة . . . ثم تماثل للشفاء بعد تسليم وقنوط !

وتحسس الأرض بقدميه . . . ولكن . . . واأسفا ! الأعماق الهائلة ! والصخور والأواذى ! والموج الذى يرتطم بأقدام الجبال فيرغى ويزبد . . . !

ولم يكن بهذه الجهة مرفأ ، ولم تكن تجوس خلالها سفن . . . ولقد ظل أوديسيوس يكافح ويكافح . . . حتى غُمّ على قلبه ، وكاد يتغشاه طائف من الخور ، بعد أمل وطيد !

وجاشت الوساوس فى قلبه ، وطفق يحدث نفسه حديث الْملك فى

( ١ ) الضمير عائد على بوريس وهو مذكر .

هذه اللجة الرجراج . . .

وكان أخوف ما يخشاه أن يدفعه الموج على نتوء الصخر فيحطمه ، أو أن تلمحه أمفتريت ، زوج نبتيون ، عدوه اللدود ، إله البحر ، فتسلط عليه من وحش الماء ما يلقفه ، أو يقذف به إلى أعمق الأعماق .. كرة أخرى .

وبينما هو فى بحرين من ماء ومن هواجس ، إذا موجة هائلة يضطرب بها اليم فتدفعه فى قوة وعنف إلى الشاطىء ذى النتوء والنؤى فتكاد تدق عنقه ، وتذرو عظامه ، لولا أن قبض بذراعيه الجبارتين على حافة صخرة بارزة . . . فظل معلقا ثمة حتى أقبل جبل آخر من موج البحر فاحتمله إلى الأعماق كأنه أحد سراطين الماء . . . وجاهد المسكين ثانية وثالثة حتى تدافع الموج من خلفه فقذفه فى مسيل من مسايل الماء المنتشرة على الشاطىء ، وعندها ، ظن أوديسيوس أنه بنجوة لولا تيار النهر الذى كاد يسلمه بدوره للمحيط ، مما جعله يضرع لرب النهر ويبتهل . . . ويدعو من أعماق قلبه ويصلى ، حتى استجاب الرب الرحيم لصلاته ، فكسر حدة التيار ، وفَلّ من غرب الماء ، واستطاع البائس المنهوك أن يصل إلى إحدى العدوتين واهياً متهالكا محطما .. فانطرح على الثرى يقبله .. ويلهث ويقول :

« ويح نفسى ماذا تبتغين يا آلام ! لقد أقبل الليل وأنا عَيىٌّ مصدع ، ولا قِبَلَ لهذه البقية من حشاشتى بطل العشاة وصقيع الفجر .. فلو أننى استطعت أن أتسلق هذا الحدور فألوذ بأجمة من هذه الغابة ! ولكن ! وَىْ ! أى وحش ضار يغتذى بلحمى ثمة ؟» .

بَيدْ أنه توقّل فى الجبال حتى أوشك أن يضرب فى الغابة ؛ ثم كان بين زيتونتين إحداهما مثمرة ، والأخرى عقيم ؛ كل منهما لفّاء شجراء حتى لا تنفذ الريح بينهما ، ولا تنسرق أشعة الشمس خلالهما ، ولا الماء بواصل إلى من استذرى بهما .

هنا .. وجد أوديسيوس مأمنه ؛.. فراح يمهد الأرض ، ويلملم ما استطاع من قش ويحتطب ، حتى صنع لنفسه منامة تكفى اثنين غيره ، من الضاربين المشردين فى الأرض ، ودعم حفافيها بفروع الشجر ...

ثم أسلم عينيه لنوم هادىء عميق ، سكبته مينرفا فى كلتا مقلتيه .

فلله ما كان أروعه غارًا فى هذا السفط من القش ، كشعلة من زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يعتز بها ريفى شاب فى قرار مكين[1] .

* *

نام أوديسيوس منهوك القوى .

وذهبت مينرفا تدبر له أمراً فى شيريا ، بلد السلالة ذوى المجد من أبناء فياشيا ـ ملوك البحر الذين فروا من وجه جيرانهم الجبابرة السيكلوبس ـ فى العصر الخالى ، ونزلوا بهذا البلد ، فشادوا حصونه ، وأقاموا أسواره ، وتوزعوا أرضه المخصبة ، وأسكنوه الدور والقصور ، وأنشأوا المعابد للآلهة عرفاناً وشكراناً .

وقضى ملكهم وزعيمهم نوزيتوس ...، ثم استوى على العرش من بعد ألكينوس ، حبيب الآلهة ، وصفى السماء .

* *

---

( ١ ) كانت النار فى الزمن القديم أغلى ما يعتز به الناس .

كانت الأميرة الحسناء ، نوزيكا ، ابنة ألبكنوس الملك ، تغط كالملاك في نوم عميق بين وصيفتين رائعتين من وصيفاتها ، فوق سرير وثير في مخدعها الملكى الفاخر .

وكان رتاج الباب محكما كأنه رتاج باب الجنة ، ولكن ذلك لم يقف بسبيل ربة الحكمة مينرفا ، التي خطرت إلى الداخل كنسمة نادية من نسمات الصباح ، ووقفت لدى رأس ابنة الملك تزخرف لها هذا الحلم الفضى الجميل ، وكأنما تبدو لها فى المنام فى صورة صديقتها وأعز أترابها ابنة ديماس الكريم :

« نوزيكا ! يا ويح لك أيتها النؤوم المكسال ! أهكذا تهملين ملابسك وأنت موشكة أن تُزفى إلى عروسك ، وعليها يتوقف مظهرك ومنظرك ورواؤك ، ورواء حاشيتك ووصيفاتك ؛ كما يتوقف عليها زهو أبويك بين الناس . انهضى مع الفَلَق[1] فاذهبى بمطارفك إلى المغتسل عند ضفة النهر فاغسليها وأعديها ليوم زفافك ، يوم تودعين مرَح هذا الشباب الخالى ... هلمى ! إنى سأعاونك ، أنت يا ساحرة ألباب شباب الفياشيِّين ! سلى أباك أن يرسل لك عربة وبغالاً تحمل ثيابك ومطارفك إلى عُدْوة النهر حيث لا شاهد ولا رقيب »

وانفتلت مينرفا ذات العينين الزبرجديتين ، ورقت أسباب السماء حتى كانت فوق ذروة أولمب ... حيث السكون والهدوء والصمت ، وحيث مستقر الآلهة ، وحيث لا تعصف ريح ولا يتلبد سحاب ولا تدمع عين مطر .. وحيث السماء لا زوردية صافية إلى الأبد .

---

( ١ ) الفلق أول ضياء الصبح .

وخطرت أورورا فوق عرش المشرق ، وأرسلت من لدنها أميناً من رسل النور يداعب جَفْني نوزيكا ، فهبت وحلمها الجميل لمّا يفتأ يساور رأسها الصغير ، وهرعت من فورها تبحث عن أبويها تقص عليهما أنباء ما رأت . وقد ألفَت أمها لدى المدفأة مكبة على غَزل من صوف أرجوانى موشى بصبغ بحرى ، ومن حولها وصيفات يساعدنها . . . ثم لقيت أباها يكاد يذهب ليترأس مجلس شيوخ المملكة ، فاستوقفته وكلمته فى العربة ، واحتجت بملابس إخوتها الخمسة الذين يستحيون أن يراقصوا العذارى فى الحفلات بملابس لا تليق بأبناء الملوك . . وعقد الخجل لسانها فلم تذكر مطارف زواجها وشفوف زفافها . . ولم يبخل أبوها بما طلبت ، بل أمر لها بعربة كبيرة عتيدة ودواب ، وزودتها أمها بأشربات وآكال وطيوب ومروخ[1] .

واستوت مع وصيفاتها فى العربة ، وساطت البغال فانطلقت تطوى الرحب الى النهر حيث وقفت عند منعرج يترقرق فيه بلور الماء ، متدفقاً من نبع قريب . وسرحت الدواب لترعى العشب الحلو النامى على حفافى الماء ، ثم أخذت فى غسل المطارف ونشرها فوق حصباء الشاطىء الذى طمه المد ونضحه الجزر ، واغتسلن بعد ذلك وتضمخن ، وجلسن على شفا النهر يتبلّغن بلقيمات ، ثم نهضن فتلاعبن بالأكر ، وتغنّت ابنة الملك أعذب الأغانى ، وتثنت كما تتثنى ديانا فى شعاف الجبل وفى يدها القوس والترس ، تصيد الخنازير فى أريمانت ـ ومن حولها ربرب من عذارى الآلهة ، وابنة لاتونا[2] تتيه عليهن وتدل . . كذلك كانت تميس ابنة الملك فيكسف لألاؤها

( ١ ) ما يمسح الجسم من دهن أو طيب أو غيرهما .
( ٢ ) هى ديانا .

جمال الأخريات .

وهنا . . شاءت مينرفا أن يهب أوديسيوس من نومه ، ليشهد الغادة الهيفاء التي كتب في الأزل أن تقوده الى المدينة ؛ ففيما كانت نوزيكا تضرب الكرة لتلقفها إحدى وصيفاتها ، إذا هي تعلو وتعلو ، ثم تدوّم كما يدوّم الطائر ، وتهوى في العباب المصطخب .

وصرخ العذارى صرخة مدوية ، فانتفض أوديسيوس وهب مذعورا مشدوهاً ليرى هذا المنظر العجيب !

« ويحى ! أىّ بنى الموت قُطّان هنا ؟ ليت شعرى أشُوسٌ عرابيد أم كرام أجاويد ! أوْه ! إنهن عرائس ماء تفزّ عن فرجعت الغيران أصداء صراخهن ، وتراقص الحباب فوق العباب من جَرْسهن ، وتثنى الكلأ نشوة فى الوادى ! لأدلفْ نحوهن فأرى إليهن . . . » .

وخطر من دَغِيلَتِهِ[1] خَطَرانَ الأسد هاجته العاصفة ، فاتقدتَ فى عينيه جمرتان من غضب ، أو ظمىء فاشتدت غلته إلى الدماء . . وذال[2] نحو العذارى ، فما إن رأينه حتى تفزعن وَوَلّين مذعورات فى الشاطىء ذى النؤى . . إلا نوزيكا ! فقد نفخت فيها مينرفا من روحها ، ونزعت من فرائصها رجفة الخوف ، فوقفت شماء الأنف تنتظر القادم . . . وارتبك أوديسيوس ولم يدر ماذا يصنع ؟ أيجثو تحت قدميها يتوسل ويتضرع ، أم يقف عن كثب يستعطف ويسأل الفتاة دثاراً ، ويرجوها أن تهديه إلى المدينة ! وآثر الثانية فتلطف ، ثم قال :

---

( ١ ) الدغيلة والدغل الشجر الملتف .

( ٢ ) ذائل وذائل مشى فى خفة ونشاط .

« عَمْرك الله أيتها الملكة ! أرَبَّة من الخالدات ، أم حسناء مِنْ بني البشر ؟ أضرع إليك أن تجيبي ! فإنك إن كنتِ ربة ، فما إخالك إلا ديانا ، ابنة سيد الأولمب ! ولم لا ؟ ولك قسامتها ووسامتها وقدها الممشوق ، وحسنها السوىّ ، وجمالها الروىّ ! أما إن كنت إنسيةً ، فما أسعد آلك بك ، ولشد ما يزهون بجمالك ! كلما خطرت فى ملعب ، أو بَدَحْت[1] فى مرتع .. ثم ما أسعد الزوج الذى سيحظى بكل ذلك الجمال ، لا يضارعه فى العالم جمال !! ألا ما أروع ما تبدين كالنخلة اليانعة فى ديلوس عند مذبح أبوللو ، أيتها الأميرة ! ألا كم أتمنى أن ألثم قدميك ، لولا ما ينتابنى من روع ، ويؤودنى من فزع - أنا - ذلك المُعَنَّى المحزون المشجون - أنا - ذلك العيى الموهون الذى أفلت من يد المنون أمس ، بعد إذ كشر له عن نابه فى ذلك البحر اللجى ، بعد سفرة عشرين يوما من أوجيجيا ، وسط أنواء وأهوال ، وموج كالجبال ، حتى شاءت العناية أن تطرحنى بشطئانكم الحبيبة ! ولست أدرى ما خبأت لى المقادير بعد ! ولكن ، هل ترثى مليكتى من أجلى ، وهى أول من لقيت فى هذه الأرض بعد طول عناء ، فترشدنى إلى مدينتها ، وتسبغ على - أسبغت عليها الآلهة كل ما تتمنى من هناءة وبلهنية وقران قوى العرى لا تتطاول إليه أعين الأعداء - دثاراً يستر سوءتى ؟» .

وأجابته نوزيكا : « حباً أيها الغريب النازح وكرامة ! إن سيماك تدل على نبل ، وسَمْتَك ينبىء عن رفعة ! اصطبر على ما ابتلاك به كبير الآلهة الذى بيده العزة ، يشقى من يشاء ، ويهب لمن يشاء ، وإنى سأدلك إلى

(١) مشية الحسناء .

المدينة . مدينة الفياشيين ملوك البحر ، التى أنا ابنة ملكها العظيم الكينوس رب نعمائها ومصدر رخائها » وأومأت إلى وصيفاتها تقول : « مكانكن يا عذارى ! فيم فراركن من إنسىّ كريم ، لقد أبت الآلهة أن تطأ قدم عدو أرض أحبّائها ، بلادنا المقدسة ، التى أنعزلت فى لجج هذا الخضم عن كل العالم . إنه غريب يا عذارى ، جَوّال آفاق ، قذفه البحر إلى شاطئنا ، فمرحباً به ضيفاً من لدن زيوس ، وأهلا بوفادته وسهلا . . . هلم إذن يا صويحبات فقدمن له طعاماً وشراباً ، ثم هيئن له حماماً فى منعرج ظليل عند حفافى النهر » .

وأسرع البنات فقُدن أوديسيوس إلى منعرج ذى ظلال وأفياء ، وأعددن له ثوباً وكساء ، وهيأن طيوباً يتضمخ بها إذا فرغ من حمّامه ، وسألهن أن يذهبن بعيداً حتى لا يتعرى أمامهن ، إذ « . . . لشد ما يخجلنى أن أبدو عاريا أمام الخُرَّد الخفِرات ! » . . وتهادين الى مولاتهن يحدثنها بما قال : بينا هو قد انقذف فى الماء يغسل كاهله وحقويه مما جمد عليهما من ملح اللجة ، وصعد فتضَمَّخ بالطيب الثمين ، ثم أسبغ على بدنه العتيد ذلك الكساء الذى منحته إياه نوزيكا ، ومن أعجب العجب أن مينرفا نفسها كانت تعاونه فى تجميل خلْقه ، وتزيل من شعره الكث الأشعث تلبداته التى كانت تبدو كأنها أزهار الخزامى . . ثم هى بعد كل ذلك تضفى عليه أمواها من البهاء تظلل بها صداره ، كأنما هى فلكان الصناع يعمل حلية من فضة وذهب ، وجلس على الشاطىء فى رونق وروعة ، حتى إذا لمحته الأميرة العذراء أذهلها جماله ، وقالت لوصيفاتها . « تالله يا صويحبات لقد شككت فى حالة هذا

الرجل أول الأمر . ولقد حسبته آفاقيًا من رعاع الناس ، لولا أننى أثق أن الآلهة لا تسوق إلى بلادها الحبيبة هذا الصنف من البشر . . . أما هو الآن ، فلشد ما يشبه أرباب السماء ! أواه ! لوددت أن يكون لى زوج فى بهائه وحسن سَمْته ، على أن نبقى آخر الدهر هنا . . هلم يا وصيفات . . . قدمن له طعاما وخمرا » .

ومددن أمامه سماطاً كبيراً ، وزودنه بأحسن الأشربات والآكال ؛ وأخذ أوديسيوس فى أكله حيياً متأدباً ، يرد عنه تلك المسغبة الطويلة التى أنهكته وأوهت قوته .

ووضعت أحمال المطارف والثياب فوق العربة ، وشدت البغال واستوت الأميرة فى مكانها ، ثم هتفت بأوديسيوس فقالت له : « هلم أيها النازح الغريب ! إلى المدينة إذن ! إنى سأرشدك إلى قصر أبى ، حيث تلقاه فى جمع من أشراف الفياشيين وسننطلق وسط هذه الحقول ، وإن لى معك من أجل هذا لكلمة . . لقد بنيت مدينتنا فوق صخرة راسية ، وأحاط بها سور عظيم ، ثم وصل بينها وبين فُرْضتها جسر ضيق تقر على جانبه سفائننا ، رابضة متراصة ؛ ثم ينهض عندها معبد نبتيون العظيم ، وبجواره سوق المدينة المبنى من الحجر الصلد ، حيث تباع حبال السفن وشراعها ، وحيث تصنع مجاذيفها وأكثر عتادها ـ لأن الفياشيين لا يعنون بشيء عنايتهم بهذه المنشئات فى البحر كالأعلام ـ والذى أخشاه أن يرانا الناس ثمة فيستهزئوا بنا ، وقد يسلقوننى بألسنة حداد ، قائلين فى سفاهة وتندر : ترى ؟ من يكون هذا الغريب النجيب الهرقلى الذى يقص أثر الأميرة ابنة الملك ؟ أى صدفة جمعت شملهما يا ترى ؛ سرعان ما نراها تزف إليه عروساً كاعباً . .

قد يكون ضيفا غير محمود من أرض نـائية ؛ أو ربمـا صـادت بصـلاتها وتسبيحها واحدا من الآلهة أبق مـن السماء ليقـر فى حضـنها إلى الأبـد .. الحمد لله الذى من عليها بزوج سعيد من بلاد غريبة يشبع أمانيها الجامحة بعد أن رفضت الأيدى الكثيرة التى تقدمت إليها من أبناء الفياشيين ... هـكذا سيقول الناس إن رأونا أيها الرجل ، ولهم الحق ، فأنا نفسى لا أعـفى مـن اللائمة فتاة عذراء تستبيح أن تمشى مكشوفة مع رجل غريب قبيل عرسها .. ولكن أصغ إلى : إنك واصل حتما إلى أبى إذا اتبعـت نصـيحتى ... بعـد قليل سيصل ركبنا إلى حرج أشجار الحور المقـدس النـامى فى تخـوم الـطريق باسم ربة العدالة والحكمة مينرفا ... وإن عنـده لنبعـاً يـترقرق وسـط كلأ وأعشاب ... وإن عنده لحديقة أبى ، الجنة الضـحوك المئنـاف ا·قف ثمة حتى إذا دخلنا نحن المدينة وحصلنا فى بيت أبى ، فتقدم أنت وادخل المدينـة واسأل أيا من الناس ، ولو طفلاً يافعاً ، عـن قصر الـكينوس الملك ، أبى الحبيب ، فإنه معروف مشهور لا يضارعه منزل آخر فى سعته وأبهته ؛ فـإذا دخلته فلا تتوان لحظة ، بل سر قُدُماً حتى تلقى أمـى جـالسة لـدى الموقـد المتأجج بجانب عمود مرمرى ، مـكبة على غـزلها الصـوفى الموشى بـاصباغ البحر ، ومن حولها وضيفاتها يعاونّها فى إنجازه - وقريباً منها ترى أبى مسـتوياً على عرشه يطعم ويشرب كأحد آلهة الأولمب .. لاتكلمه ...

بل جاوزه إلى أمى الرؤوم ، ثم سـل حـاجتك تقضـها لك ، وتُعـدك إلى وطنك مهما كان سحيقاً نائياً ... أيْر فى صـميمها عـامل الخـير والمحبـة ، تردك إلى آلك وذويك وبلادك ... وسلام عليك » .

ثم إنها ألهبت ظهور البغال فانطلقت تعدو مولية عن النهر الـذى صـار

يبتعد قليلا قليلا . . . وكانت نوزيكا آخذة بزمامها لتكبح من جماحها ، حتى لا تفوت أوذيسيوس من ورائها .

وكانت الشمس تصبغ بالورس جبين المغرب حينما وصل الركب إلى حرج مينرڤا المقدس ، الذى نهض حوره الباسق فى السماء نضراً ملتفاً كأنما يناجى ابنة جوف ، المدّرعة بإيجيس .

وهنا . . . وقف أوديسيوس يصلى لمينرڤا :

« يا ابنة چوف القوى المتعال اسمعى لى ! أصيخى الآن يا ربة ! لقد تصاممت عنى إذ كانت اللجج تلقفنى فراعينى الآن ! اجعلى لى مرفقاً من أمرى ، وهبى لى محبة ورحمة فى قلوب أبناء الفياشيين أنسى بها آلامى . . آمين آمين ! » .

ولبت ربة الحكمة واستجابت لدعائه . بيد أنها ، احتراماً لعمها ( نبتيون ) الذى لا يفتأ يقتفى أثر أوديسيوس عدوه الأكبر ، لم تشأ أن تبدو له .

وفرغ أوديسيوس من صلاته ، ووصلت عربة الأميرة إلى القصر فلقيها إخوتها الأمراء الخمسة النُجُب ، فحلوا الدواب وحملوا المطارف والثياب ، وصعدت هى إلى مخدعها حيث كانت خادمتها العجوز الشمطاء ( يوريمديوسا ) تعنى بنار المدفأة .

ولم تكد يور ترى سيدتها حتى حيَّت وبَيَّتْ ، وانطلقت تعد لها وجبة المساء .

أما أوديسيوس فقد هب من مجلسه ، ويمم شطر المدينة ، وقد نشرت حوله مينرڤا ـ صفيته الوفية ـ ظلالا وغماماً يحجبه عن أعين الناس حتى

لا يضايقه أحدهم بسؤاله من هو ولم أقبل ومن أى الأقطار جاء ... بيد أنها لاحت له قبل أن يلج باب المدينة فى هيئة فتاة قروية كاعب تحمل فوق رأسها جرتها ... وتعمدت أن تعترض طريقه ، فانتهزها فرصة وراح يسائلها هكذا : « يا بنية ! أتسمحين فتدليني على بيت رب هذه البلدة ، ألكينوس الكريم ؟ لقد نال منى الونى وطول السفر ، وحللت عليكم يا أهل فيشيا الأجاويد ضيفاً غير معروف ، من بلد سحيق ، فهل تفعلين ؟» .

وقالت مينرفا - ذات العينين الزبرجديتين - وهى تجيبه :

« حباً أيها الغريب الوقور وكرامة ! سأدلك على بيت ألكينوس بنفسى ، فهو غير بعيد من بيت أبى ... ولكن لى إليك وصية ... إصمت مادمت سائراً ، ولا تحدج أحداً بنظرة ، ولا تكلم من أهل هذه البلدة إنسياً ، فقد جبلوا على ازدراء الغرباء وقلة إيلافهم ، وتلقيهم فى فتور وبرود طبع ، وقد أحبهم نبتيون رب البحار فأذل لهم أعناق الموج وأسلس لسفنهم أعراف الماء ، فهى تخطر فيه كالطير حين تزفّ ، أو كالفكرة حين تخطر فى الخلد » .

وتهادت ربة الحكمة بين يديه ، ودلف هو وراءها ؛ ولم تره جموع البحارة الحاشدة التى كان يسير بينها ، لأن مينرفا ضربت على أعينهم غشاوة عجيبة حجبته عنهم ؛ وكان ينظر بعين الدّهش إلى مينائهم وسفائنهم ورحبة السوق التى يأوى إليها أبطالهم ، وإلى القلاع المحدقة بالمدينة فى أبهة وجلال ؛ ثم بلغا بيت الملك ، فقالت مينرفا :

« هاك يا أبتاه القصر الذى سألت أن أدلك عليه . وستلق فيه

رؤساءنا وأمراءنا أصحاب السمو يولمون ويقصفون ، فهلم فالقهم بقلب رابط وجأش ثابت ، فهم أشد الناس إعجاباً بشجاع جرىء ، وأكرمهم لـلاجىء غريب . وستكون الملكة أريتا ـ سليلة الشرفـاء الأمجـاد آبـاء ألـكينوس الكبير ، وحفيدة المردة الجبابرة من ذراري نهتيون[1] ـ أول من تلـق . إنها سيدة قومها ، وهى محبوبة مبجلة إلى درجة التقديس من زوجها وأبنائها ومن جميع الفياشيين ملوك البحار ، الذين طالما تكبكبوا حـول مـوكبها فى شـوارع المدينة هاتفين داعين . . . إنها لتجلس وَقـوراً كإحـدى ربـات الأولمب لتغمـر بالمحبة أبناءها ، وتقضى فيما يشجر بينهم . . . لك الله يـا سـيدى إن قـدر لك فاستطعت لقاءها . . . إنها إذن لتمنحك برّها وتسبغ عليك مـن بـركاتها فتعود إلى بلادك راضياً ، وتلق آلك وخلانك عزيزاً مكرماً » .

ثم غابت مينرفا عن الأنظار ، وغادرت أرض شيريا الحبيبة إلى مَرَثُون ـ ومن ثمة رفّت رفةً فكانت فى أثينا حيث أوت إلى قدسها الكريم إركتيوس .

ودخل أوديسيوس قصر الملك هياباً متخاذلا ، غارقاً فى بحـر لجـى مـن الوهم والفكر ، لأنه ما كاد يطأ بقدمه وصيد الباب الكبير حـتى بهـره لألاء شديد خاطف ينبعث من الداخل ، يـزيد فى شـدته ولمعـانه تلك الجـدران المصفحة بالنحاس ، يزينها إطـار مـن الـلازورد الأزرق ، وتلك الأبـواب الهائلة من الذهب الخالص ، والعماد السامقة من الفضـة المجلـوّة ، تـكللها تيجان من النُّضـار اللجين . وعلى اليمـين وعلى الشمال ربضـت كلاب مـن ذهب ، صَنْعَةَ فلكان ، صنّاع السماء الخـالد ، وخـالد أبـد الـدهر كل ما صنعت يدا فلكان . ثم تلى بعد ذلك ردهة فسـيحة مـترامية صُـفّت إلى

(١) آثرنا الا نثبت هنا ما ذكر هومر من أنساب عمالقة الاملاك .

جدرانها كراسى كأنها عروش ، وبث فوقها نمارق ذوات أفواف وشفوف ، صنعة وصيفات القصر ؛ وهنا ... يولم الملك لأمراء شيريا ... فيقف الولدان فى جلابيب من ذهب ، وفى يد كل شعلة تسكب الأضواء من فوق المذبح على جموع الطاعمين فى كل ليلة ... يا للقصر كأنه جنة الخلد ؟ ... إن خمسين من غيد شيريا الرعابيب يخدمون الملك ثمة ، يطحنّ القمح وينخلن الدقيق ، ويندفن الصوف ويعملن على النَّوْل ... مائسات كأفنان الدوح يداعبهن النسيم الحلو ... حاذقات فى الغزل والنسيج كأحذق ما يكون بحارة شيريا فى عنفوان العاصفة ... قد ثقفن صناعتهن عن مينرفا فافْتَنَنَّ وأبدعن إبداعا . ثم تكون البوابة الكبرى ، حيث فردوس القصر اليانع ، وجنته دانية القطوف ، ذات الأسوار المنيعة المحيطة بهذه الأربعة الأفدنة ... للآلهة هذا الدوح قد بسق فى جنباتها ؛ وللآلهة أشجار الرمان المثقلة بأثمارها مفترة عن شفاه الأقاح ، وحمرة الخجل قد خضبت خدود التفاح والكمثرى ، وسالت قطرات من الشهد فى ثمرات التين ، وتأججت أنواراً زاهية فى أفنان الزيتون ... فاكهة شهية جنية لا مقطوعة ولا ممنوعة شتاء وصيفاً ، يانعة أبدا ، تداعبها أنفاس زفير رب الصَّبا فتشيع فيها النضج والنماء ، كلما قطفت يد من جناها ثمرة نمت مكانها فى الحال ثمرات ، فما تقل آخر الدهر قطوفها وما تنقص .

وخلال هذه الجنة المثمرة تمتد الكروم ذَوات الأعناب والرُّطَب والعناقيد من نور ، بعضها يعصر فتقطر الخمر منه ، وبعضها يجف على سوقه فيكون زبيباً جنياً ... ثم توشّى أطرافَ الحديقة أحواضٌ من الزهر المشذب المنسق ، وتتفجر فى وسطها عينان نضاختان ، يترقرق الماء من إحداهما

كاللجين فى مسايل هذا الروض ، وتتدفق مياه الأخرى فى نهر صغير ينساب إلى المدينة من تحت عتبة القصر ، فيرتوى الأهلون منه .

مُلك كبير وآلاء وافرة أسبغتها الآلهة على ألكينوس الملك !

* * *

وقف أوديسيوس مسبوه اللب ، مشدوه الفكر ، يردد طرفه فى هذا المنظر العَجَب ، ثم أفاق فخطر إلى الداخل ، حيث اجتمع زعماء المدينة وشيوخها يصبون الخمر باسم هرمز رسول السماء تقدمة وقربانا ، وصلاة لخاتم أرباب الأولمب قبل أن يأووا إلى مضاجعهم . ولم يتلبث عندهم ، بل تقدم فى خطى حثيثة برغم إعيائه ، وكانت مينرڤا تحجبه فى ظلال كثيفة من أعين الملأ ، حتى وصل إلى حيث الملك والملكة ، فكشِف عنه غطاؤه ، وجثا عند قدمى الملكة يبث شكاته بين دهش الملكين الكريمين وشدة تحيرهما :

« أريتا يا ابنة ركسنور صفى الآلهة ! أتوسل إليك وإلى المليك العظيم ، وأضيافكم النبلاء ، من الله عليهم ، وضاعف لهم آلاءه ، وأنعم على ذراريهم وألف بين قلوبهم وقلوب رعاياهم ، أتوسل إليك يا سليلة المجد ضارعاً أن تعطفى علىّ ، وأن تكرمى مثواى ، وأن تعينينى على الرحلة من فورى إلى بلادى التى أتحرق إليها شوقاً ، والتى فصلتنى عنها أهوال وأهوال ! » .

وساد سكون عميق وصمت ، وظل البطل المسكين جاثياً عند حافة الموقد المتأجج ، حتى تفجرت شآبيب الرحمة والحنان فى قلب إخنيوس ، ابن الملك البكر ، فراحت الكلمة الطيبة تتدفق من فمه الجميل العذب فى

فصاحة وتبيان ، وحكمة تقليدية ، وخير ، حيث قال :

« حاشا لمجدك أيها الملك أن تدع هذا الغريب جاثياً هكذا فى غبار الموقد وفى وهج النار ، وأن تترك أضيافك ينتظرون أمرك ... وما تُكلم منهم أحداً ! ألا فخذ بيد الغريب وأقعده مقعد الندى ، ومُر النُّدمان يسقه من كأس چوف كبير الآلهة[1] ، وحبيب الغرباء وذوى الحاجات ، والنادل يهيىء له عشاء مما تبق من وليمة الليلة » .

وما كاد الأمير يفرغ من قوله ، حتى أنهض الملك أوديسيوس وأجلسه على كرسى فخم جانب ولده الحبيب الحكيم لأوداماس ... ثم أقبلت إحدى وصيفات القصر فصبت الماء على يديه من إبريق فضى ، ثم أحضرت مائدة حافلة بأشهى الأكل وأطيب اللذائذ والأشربات ،فأكل أوديسيوس وارتوى ، وأمر الملك كبير السقاة بونتونوس ، فمزج الراح وقدمها إلى الجميع حيث صبوها تقدمة لجوف رب الصواعق وكبير الآلهة ، وحبيب الغرباء ، وحامى ذوى الحاجات ، ثم شربوا بعد ذلك حتى رَوُوْا .

وقال الملك : « أيها الرؤساء والشيوخ الفياشيون كلمةً : عفوَ الخاطر ، فاسمعوا وعوا ... لقد طعمتم جميعاً وستتفرقون إلى مضاجعكم ، ثم لنجتمع عند مطلع الفجر ، نحن ومن لم يحضر من نواب الأمة الأجلاء ، فننظر فى شأن هذا اللاجىء الغريب ، بعد أن نضحى للآلهة ... إنه يطلب أن يعود فى حمايتنا إلى وطنه كيما يصل سالماً غانماً من غير أن يمسه أذى ، إلا أن تكون ربات الأقدار قد قضت عليه أمراً ، وإلا أن يكون من أرباب السماء الخالدين ... لقد وصلت بيننا وبين الآلهة وشائج

( ١) فى الأصل ( رب الصواعق ) .

القربى ، وطالما غشيت مجالسنا وشاركت فى ولائمنا ، وهى تبق على محبتنا ، فلا تمس بأذى رجلا منا يضرب فى الأرض ، وليس ما بيننا وبينها أقل مما بينها وبين السيكلوبس ، أو المردة الجبابرة ، وفى ذلك فخارنا وهو آية مجدنا » .

ونهض أوديسيوس الحكيم فقال : « غَفْراً غفْراً أيها الملك ! ما أنا فى الآلهة ؟! أينَ لى خلقها السوى ، وكيانها السماوى ؟ بل أنا شق من أبناء هذه الغبراءِ ، أثقلت كاهله حمولة هائلة من الكوارث والآلام ، حتى لا يعرف الناس من شق شقاءه ، ولا من تحمل مصائبه وأرزاءه ... بلايا صبتها على رأسه الآلهة فصبر وأناب ... أوه ! أبداً لا أنتهى إذا سردتُ لكم طرفاً يسيراً منها ! ولكن لا داعى الآن ... أرجوكم ... أتوسل إليكم ... دعونى أتبلغ بهذه اللقيمات فى هذه اللمحة الحالمة من الراحة التى لم أنعم بمثلها منذ بعيد . لشد ما يصرخ الجوع فى أذنِ الجوعان ، ولشد ما يعذبه الطوى إ،إنه يلح عليه بكل صنوف الألم ، حتى ينسيه آلامه وأشجانه . إن له لشهية عالية الصخب تطلب العون فى جؤار وجنون ، حتى ليضيع فى ضجيجها هتاف جميع الآلام ، إلى أن تكتفى . عفواً أيها السادة ! إنى أفتأ أضرع إليكم أن تيسروا لى عوداً أحمد ، وأوبة سالمة ، بعد طول العناء ، والشقاء الذى ليس بعده شقاء ؛ إنه لا أحب إلى من أن أودع الحياة بعد نظرة واحدة أتزودها من أهلى ووطنى » .

وتأثر القوم من أجله فأثنوا عليه ، واتفقت آراؤهم على معاونته حتى يعود إلى بلاده ويلق ذويه ثم نهضوا فصبوا خمر الصلاة باسم الآلهة ، وشربوا نخب رب الدار ، ثم تفرقوا إلى منازلهم ،إلا أوديسيوس ، فقد ظل جالساً

ساهماً واجماً ، كما ظل الملكان إلى جانبه ساهمين واجمين ، والندل فيما بين ذلك يحملون أطباق المائدة وأكوابها ، حتى إذا فرغوا أخذت الملكة تتحدث إلى أوديسيوس ، وقد لفت نظرها هذا الثوب الفضفاض الذى كان يلتفع به :

« والآن جاءت نوبتى فى التحدث إليك أيهذا الغريب الكريم ، من أنت ؟ ومن أين أقبلت ؟ وأنى لك هذا الصدار وذاك الدثار ؟ ألست قد قلت إنك غريب نازح أفلتتك المنايا فى لجج البحار ؟ » .

وقال أوديسيوس يجيب أريتا :

« أيتها الملكة ! قد لا أفرغ من الحديث إذا حاولت أن أسرد قصتى بحذافيرها ! بل ليس أشق على من ذلك ، فقد كرثتنى الآلهة بكل أنواع الهموم وصنوف الآلام ، بيد أنى ألم بمآساتى المحزنة فى كلمات فأقول : « فى أوجيجيا - إحدى الجزر القاصية التى لم تطأها قبلى قدم بشر ولم يخطر بها إله - تقيم عروس الماء المفتان - كليبسو - البارعة الرائعة الصناع ، ابنة أطلس الجبار التى قدر على أن أكون أول لاجىء إلى جزيرتها بعد أن سلط جوف صواعقه على سفينتى فشطرها وأغرق كل رجالى ، وظللت أنا متشبثاً بالسارية ليالى وأياما ، حتى دفعتنى المقادير فى الليلة العاشرة إلى ساحل الجزيرة حيث آوتنى كليبسو الجميلة الريانة ، وانقذتنى من موتة أكيدة ، واطعمتنى وأكرمت مثواى - ثم عرضت أن تهبنى الحياة الخالدة والشباب الأبدى ، لو لا أننى تأبيت . . . ثم أقمت عندها سبع سنوات لم يرقأ طوالها دمعى الذى نضحت به أثوابى وما خلعت علىّ من دثار . . . وفى الثامنة أرسل إليها جوف كبير الآلهة من يأمرها بإطلاق سراحى ، فأبحرت على رمث

زودته بالأطايب والأذخار ، والأشربات والآكال ؛ ثم أرسلت بين يدى ريحاً رخاء ما انفكت تجرى بى فى عباب من بعده عباب ، طيلة سبعة عشر يوما . . وفى الثامن عشر لاحت قمم جبالكم الشم فخفق قلبى فرحاً . . . بيد أنه كان أملا خُلباً لم يطل أمده . . . فقد أبى نبتيون الجبار إلا أن يقف بسبيلى ، وإلا أن يرسل ريحاً معاكسة تثير الموج وتهيج اللج ، وتمزق ما التأم منى ومن فلكى الصغير ـ الذى كان كل أملى . . . ولم يعد بد من أن أكافح الماء ، وأذرع اليم بالسباحة ، حتى تضافرت الريح والموج ، فقذفانى إلى ساحلكم ذى النؤى . . . ولم أحتمل صدمة الصخور ، فنضحنى السيل الرابى إلى الأعماق كرة ثانية . . . وشرعت أكافح مرة أخرى ، حتى نثرتنى موجة مزبدة فى نهرّ وديع متطامن . . . فسبحت إلى إحدى عدوتيه ، واستلقيت على الشاطىء ، خَفِقَ الأحشاء منهوك القوى . . . وأقبل الليل فتهالكت على نفسى إلى دغيلة مهدتها بعساليج وشىء من القش وفروع الشجر ، ونمت ليلاً طويلاً وضحوة متعبة وظهيرة كلها نصب وإعياء . . . ثم أيقظتنى صيحات قريبة مُرنَّة ، فإذا ابنتكم الأميرة الحبيبة الحُسان فى ربرب من أترابها يتلاعبن كربات الأولمب على رمال الشاطىء . . . وجثوت تحت قدميها ، ومازلت بها أتملق شبابها الغض بدعوات معسولات ، وأثير نخوة صباها الفينان حتى أمرت لى بطعام شهى وخمر معتقة ، وأشارت إلى منعطف فتوجهت إليه فغسلت ما على جسمى من خَبَث ، ثم منحتنى هذا الصدار وذاك الدثار . . .

تلك قصتى أسردها عن قلب محزون . . . ما فيها أثارة من مَيْن » .

قال الملك : « لشد ما أخطأت بنيتى إذ لم تصحبك إلى هنا فى جملة حشمها مادمت قد رجوتها فى ذلك أول الأمر » .

وقال أدويسيوس يجيبه : « إنها لم تخطىء أيها الملك الكريم وما عليها من ملام . لقد كلمتنى فى مثل ذلك فأبيت لأنى خفت أن يسوءك ذلك منها ومنى ، ولأنى أعلم أن الناس فى كل مكان ظنانون قوالون » .

فقال الملك : « كلا أيها السيد ، إن صدرى لا يحمل مثل ذلك القلب النزق ... إن الرصانة والأناة أفضل ميزات الخلق الكريم ... تالله يا بنى إنى لأوثرك كولدى ، وبودى لو قبلت فصهرت إلى وتزوجت ابنتى ، وعشت معنا كواحد منا ... وإنى - إن رضيت - لمقطعك الأقطاع الشاسعة ومانحك المنزل الرحب . هذا وليس فى فياشيا كلها من يجسر أن يقسرك على شيء تأباه نفسك . معاذ الله يا بنى ... إن هذا إلا عرض ... مجرد عرض منى لما أنسته فيك من سمو ورجاجة ونبل ... فإن لم يرقك أن تفعل ، فإنى مُعِدٌ لك اسباب عودتك غداً ، وستنام ملء عينيك بينما يكون الفلك يهب اليم ويطوى العباب ، منسربا فوق الموج بقوة الأذرع الفتية التى تعمل فى المجاذيف حتى تصل إلى وطنك سالماً غانماً ، بل حتى تصل إلى أبعد منه ، ولو إلى ما وراء أيوبيا أبعد الجزائر منا ، حيث يحمل بحارتنا ردمنتوس[1] ذا الشعر الذهبى

(۱) بن زيوس من زوجته أوربا وقاضى العدالة فى الدار الآخر « هيدز » « جربر » .

لزيارة تتيوس[٢] جبار الأرض ... إنهم يبحرون به إلى هذه الجزيرة ويعودون فى يوم فى غير عناء أو إعياء ، وستعرف سبب فخارى بسفائنى وبحارق الذين يذرعون البحار ويضربون أكبادها حين يبحرون بك » .

وشاع البشر فى أسارير أوديسيوس ذى التجاريب فقال : « أيها الأب الخالد ! لله محامدك الغر ! أنجز يا مولاى يَسِّرْ ذكرك فى البلاد ، وألَق أهلى وانشقْ نسمة من وطنى » .

* * *

وهكذا تشقق الحديث بينهما ...

ثم أمرت الملكة بعض وصيفات القصر فأعددن فراشاً وثيراً فى الرواق ذى الأعمدة ، وهيأنه بوسائد من دِمقس ، وبثثن فوقه الأرائك والحشايا ، وعلقن الستائر والأسجاف ، ووضعن البرانس[١] واللحف ... وكانت كل منهن تحمل شعلة كبيرة تتوهج فى جوانب القصر ... حتى إذا فرغن من كل شيء ، دعون أوديسيوس فى أدب وظرف أن ينهض لينام ... وغفا بطل هيلاس ... وأسلم عينيه لأحلام سعيدة .

ونهض الملك والملكة لينعما بطيب المنام .

## حفل أولمبى

وصبغت أورورا بمثل حمرة الخجل وجنات المشرقين ، فاستيقظ الملك ، وهب أوديسيوس من نومه ، وذهبا إلى الشاطىء حيث تُلقى

(٢) أحد مردة طار طاروس ويغطى جسمه مساحة تسعة أفدنة ( جرير ) .

(١) البرنس بمعناه المعروف عربى فصيح .

السفن مراسيها ... وهناك ... فوق مقعد حجرى أملس ، جلسا يتحدثان ؛ بينما كانت مينرفا تدق البشائر فى شوارع المدينة ، وقد بدت فى صورة منادى الملك وطيلسانه ، تدعو سادات الفياشيين وشيوخهم إلى مجلس الملك ، للنظر فى أمر هذا الغريب الكريم اللاجىء الذى حل عليه ضيفاً ... « كأحد آلهة الأولمب ، برغم ضربه الطويل فى عرض البحار » .

وازدحم سادات المدينة وأشياخها فى قاعة المجلس ، وكانوا يقلبون فى أوديسيوس نظرات الإعجاب والدهش ، وكيف لا ؟ وهذى مينرفا قد أضفت على صدره الرحب وكتفيه العظيمتين ، وجسمه السامق ، رواء علوياً من الأبهة والجلال ، كان ينعكس وقاراً ورهبة فى قلوب الفياشيين .

ولما انتظم عقد القوم نهض ألكينوس الملك ، فقال : يا سادة الفياشيين وشيوخ الأمة ، كلمة مرتجلة ، فاسمعوا وعوا : لقد حل هذا الضيف الكريم الذى لا أذكر اسمه فى بيتى بعد أن شرق فى آفاق العالم وغرب ؛ وإنه ليرجو أن تمدوا له يد المعونة فيعود أدراجه إلى بلاده فى كنفكم سالماً ، إذ طالما كان هذا دأبكم ، إكرام الضيف ، والإحسان إلى الغرباء اللاجئين ، وردهم إلى ديارهم مهما كانت سحيقة آمنين ... فالبدار إذن ... هلموا إلى سفائنكم فتخيروا أحسنها حالا ، وأصلحها لمجالدة هذا البحر ، ولتعدوا لها نخبة ذوى بأس

من أصلب فتيانكم عوداً وأشدهم مراساً ... إثنين وخمسين عدداً من أينع زهرات شباب هذه الأمة ... ثم تعالوا إلى فإنى مولم لكم تحية لهذا الضيف ، فلا يتأخر منكم احد أبداً ... وليحضر معكم أحب المنشدين دمودوكوس الإلهى ، صاحب الألحان الخالدة ، والصوت السماوي الساحر ، فليشنف آذاننا بحلو أنغامه التى لا يقدر عليها إلا هو ... ».

وانصرف الملك وفى إثره شيوخ الفياشيين ، وانطلق رسول إلى منزل المنشد دمودوكوس الإلهى ... واختيرت النخبة ذات البأس من شباب الملاحين ، وأعدت السفينة فى مكانها الأمين من اليم ، فنُصبت القلاع ونشر الشراع وصفت المجاديف ... ثم مضى الجميع إلى بيت الملك ، حيث كانت الجماهير الحاشدة تكظ الأبهاء ، وتزدحم فى الدهاليز ، وتملأ الصالة الكبرى ... وجيء بالذبائح ... فهذان ثوران كبيران ذوا خوار ... وهذى اثنتا عشرة شاة سمينة ، وتلك أربعة خنازير كناز[1] ما كادت تذبح وتنتزع أنيابها حتى أخذ الجميع فيما أقبلوا له من طعام وشراب ... ثم أقبل منادى الملك يقود المنشد الإلهى الأعمى ، رخيم الصوت ، صفى ربات الفنون ، اللائى عدلن له بقسطين من خير ومن شر سواء ، فوهبنه التطريب المعجز ، وسلبنه النور من عينيه العزيزتين ... وأقيم له عرش مُمرد فى وسط الصالة

(١) كناز جمع مفرده مثله كثيرة اللحم والشحم .

الكبرى ، عند عمود مرمرى عظيم ، فاستوى عليه ، وأعلمه بونتونوس بمكان قيثارته المعلقة فوق رأسه ، ووضع بين يديه سلة من طعام ومزة[٢] .

وما كادوا يفرغون من آكالهم حتى رقصت عرائس الفنون فى فم المنشد المطرب ، فأرسل غناء سحر ألباب الناس ، ورقى بها إلى أثير الآلهة فى قبة السماء ... لقد تغنى هذه الأغنية التى تنظم النزاع الذى شجر بين أخيل بن بليوس ، وبين أدويسيوس بن ليرتيس أثناء الوليمة الإلهية ، والذى جاءت به نبوءة أبوللو ( فى دلفوس ) حينما استوحاه أجاممنون عن يوم سقوط طروادة فى أيدى اليونانيين .

وسكت المغنى ، ودفن أوديسيوس وجهه الساهم فى ذيل ثوبه الأرجوانى الفضفاض خشية أن يلحظه أحد ... وطفق يبكى ... ويستخرط فى البكاء ، ثم كشف عن جبينه ، وسقى الثرى كأساً من خمر صلاةً للآلهة ... ثم عاد إلى بكائه حينما وصل المطرب غناءه ، وكان يرسل عبراته فى كسائه غير ملحوظ من أحد إلا من الكينوس ، الذى عز عليه ما رأى وما سمع من عبرات ضيفه ، ومن تنهداته ، فقال : « حسبنا يا سادة ما طعمنا وما سمعنا ... هلموا جميعاً نشهد الضيف الكريم بعض ألعابنا ليذكر فى العالمين أن الفياشيين خير من يجرى ومن يثب ، وأمهر الناس فى اللكم

(٢) خمر للذيذة الطعم .

والمصارعة !» .

ونهض الملك ، ونهض فى إثره كل أضيافه ، وتقدم المنادى فقاد دمودوكوس ، وقصد الجميع إلى ساحة السوق الكبرى ، حيث احتشدت كواكب الشجعان والشباب اليانع من ذوى القوة والفتوة والبأس الشديد ، أتوْا من كل حدب لهذا الحفل المشهود ... وفى وسط الحلبة وقف الأبطال آكرون وأوكيال والاتريوس ونوت وپرمنيوس ؛ ثم وقف خلفهم الأبطال أنخيال وأنابيسين وإرتميوس وبونت وبرور وأمفيال وتون ... ثم نهض حليْف مارس الموهوب يوريالوس ، ثم فخر شباب الفياشيين نوبوليد ... وقف كل هؤلاء ... ثم هب أبناء الملك الثلاثة ... لوداماس ولده البكر ، ثم هاليوس ، ثم كليتون الأصغر ، وشارك نفر من أولاء فى سباق الجرى ، فأخذوا أهبتهم ، ثم انطلقوا يثيرون التراب فى أثر كليتون ... ابن الملك ـ الذى شأهم[1] جميعاً ، وتركهم يتعثرون وراءه كما تتعثر الثيران فى إثر البغال ... وتلقاهم النظارة بالهتاف العالى والتصفيق الشديد ، ثم كانت المصارعة التى برّز فيها يوريالوس على كل أقرانه ، كما برّز أمفيال فى الوثب الطويل ، والاتريوس فى قذف القرص ... أما فى الملاكمة فقد تفوق لوداما النبيل ابن ملك شيريا ، وكان فوزه مسك ختام المباريات ؛ ثم نهض لوداماس فقال :

(١) سبقهم ( هامش القاموس ) .

والآن أيها الأصدقاء نسأل ضيفنا الكريم إذا كان يحذق شيئاً يفخر به من هذه الألعاب ؟! إنه لايزال غريض الشباب ، بادى الفتوة ، مكتنز العضلات ، عظيم مُنَّةِ الساقين والفخذين ، مفتول الساعدين ، وإن له لعنقاً أى عنق . . . كل ذلك بالرغم من بدوات الضنى وأمارات العناء ، وما حطم البحر من جسمه الخصب ، وهل أهلك لجسوم الرجال من أجبال العباب ؟! » .

وكأنما راقت هذه الكلمات البطل يوريالوس فطلب إلى لوداماس أن يدعو الضيف إلى النزال ، فنهض لوداماس ثانية وقال : « هلم أيها الضيف فأرنا هل تجيد من هذه الألعاب شيئاً ؟ إنه ما استحق أن يعيش من لم يعمل بيديه ويسع بساقيه . . . هلم ؟ حاول إذن ! فيم احترازك هكذا ؟ إنا لن نؤخرك قط ، فالسفينة معدة والملاحون على

وقال أوديسيوس يجيبه : « أتتخذنى هُزُواً حين تدعونى للعب يا لوداماس ؟! أى لهو وأى لعب وأنا نضو أسقام وطريح آلام ، لا أمل له إلا أن يعود إلى بلاده ، وفى ذلك ما يضرع للملك وللناس !» .

وهبّ يوديالوس يصيدّ[1] ويقول : « كلا أيها الصديق . . . إنى عذيرك ، فسيماك لا تنبىء عن رجل رياضى ، بل أكبر الظن أنك من

(١) يجهر بالقول .

رجال الأعمال أو حَفَظَةِ المخازن . . . أو . . . إن لم يخب حدسي . . . من أدلاء السفن فى الثغور ؛ ومن يدرى ؟ فقد تكون عيَّاراً أو قرصاناً !!» .

وعبس أوديسيوس وبَسَرَ ، وانتشرت فوق جبهته ظلمات من الهم ، وتهدج صوته فقال : « إنك لم تحسن كيف تتكلم أيها السيد ، وإنك لم تبال أن تطلق فىّ لسانك بهجر القول كأننى رجل لا اعتبار لى . . . على أن الآلهة ـ جلّت وعلت ـ لم يتفق أن منحت أحداً من العالمين كل آلائها فى وقتٍ معاً . . . بساطة الجسم ورجاحة العقل وقوة البيان . . . فقد يلوح لك هذا الرجل مُهدّماً محطما فى حين قد وهبه جوف بياناً متيناً ولساناً مبيناً حتى ليخلب ألباب سامعيه ، وحتى ليرتفع فى نفوسهم إلى مصاف الآلهة . . . وقد تنظر إلى ذاك الرجل كأنما تتدفق فى عضلاته قوى السماء وهو لا يحسن أن يقول كلمة . . . مثلك . . . مثلك تماماً . . . فلقد أوتيت بسطة فى الجسم ، حتى لتوشك فى ذلك أن تكون مثالا تقيس عليه الآلهة ، إذا أرادت أن تخلق مارداً جباراً . ولكنك ـ واأسفاه ! ـ لم تؤت بياناً ولا حكمة ! فلقد أثرت ثائرى بكلماتك الغلاظ . . . العجاف ! إنى ـ أيها السيد ـ كما ذكرت ـ لا أحسن من هذه الألعاب قليلا ولا كثيراً . . . ولكنى كنت فتاها وفارس حلبتها أيام كنت شاباً يافعاً غض الإهاب ريان الشباب . . . أما أنا الآن ! فواأسفاه !! إن حِدْثان الزمان لم يُبق

منى ... ولا على - لقد ذبل شبابى فى نقع الحروب وسوح الوغى ... وفى هذا البحر اللجى يغشاه موج من خلفه موج ... كالجبال ... بيد أننى ... على الرغم مما ينقض ظهرى من ويلات ، سأثبت فى سجل شجاعتكم قوتى ! فإن لما هرفت به من قول السوء لأنياباً تعضنى وتنهشنى . أو أدلُّ على قوتى وجبروتى ... » .

وكان إلى جانبه قرص القذف الذى يستعمله أبطال الفياشيين فى مبارياتهم فانقض عليه واحتمله بيده القوية المفتولة ثم دفعه دفعة هائلة كان لها هزيم وقصف ، واستهولها بحارة الفياشيين الشجعان فخفضوا رؤوسهم حتى استقرت بعيداً خلفهم ... وهنا بدت مينرفا بين الملأ فى صورة أحدهم ، وهبت عجلانه تقيس مدى القذفة ، ثم قالت : « ألا أيهذا الغريب ! الأعمى نفسه لا ينكر برهانك الدامغ القوى ! إنه مدى لا يستطيعه أحد غيرك ، فتِهْ على هؤلاء الفياشيين ! إن منهم من لا يستطيع أن يباريك فى أى من هذه الألعاب فادعهم إليك وما عليك من بأس » . وشاعت الكبرياء فى نفس أوديسيوس حين سمع هذا الهاتف من صميم الفياشيين يطريه ويثنى عليه وينصب من نفسه قاضياً له ، فقال ، وقد انكسرت حدة غضبه :

« هلموا أيها الشباب فاقذفوا هذه القذفة ، أقذف أبعد منها وبقرص أكبر وزناً !! هلموا !! ليأت أقوى ملاكميكم فإنى له ! وليقف أضْرى

مصارعيكم فأنا أخوه ! وليجر معى أسرع عدّائيكم فلن يلحق غبارى ! لقد هجتم ثائرى فهلموا ! إن أتحداكم جميعاً إلا لوداماس فإنه مضيفى وصاحب قِراى ، وليس بى أن أنازل من أكرم مثواى فى دار غربتى ؛ وليس من النزق ما يحملنى على شىء من ذلك .. اما غيره فأنا له ، .وسيعلم منازلى مهما يكن مبلغ قواى ... إنه ليس من ألعاب الناس ما يعجزنى .. فأنا رب القوس ، وطالما صرّعت الألوف من الأعداء تحت أسوار طروادة ، وأبدا ما رمى أحد سهماً كما رميت إلا فيلكتيتس يوم حاز قصب سَبْقِها دونى .. على أنه من ؟؟ إننى لم أبلغ من الحول بعض ما بلغ هرقل أو يوريتوس الذى نفس عليه أبوللو مهارته فى الرماية فقتله ... هذا .. وإلى الرمح السمهرى ، فإن أبلغ به المدْى الذى لا تبلغه سهامكم !! على أننى لا أطمع أن أبلغ خفتكم ورشاقة حركاتكم ـ فلقد قاسيت من الأرزاء ما قصم ظهرى ، وصارعت موج هذا الخضم حتى حطمنى وأوهانى ، ولقيت من الطوى ما برانى !!» .

وصمت الفياشيون ولم ينبسوا .. ثم تكلم الملك فقال : « عمرك الآلهة أيهذا النازح الكريم لقد جلجلت فى آذاننا كلماتك ، فدلت على شجاعة وعنفوان ، وأفحمت هذا الشاب الذى جرح عزتك وأهان كبرياءك أمام الجميع ، ثم سكت عن تحديك ... ولكن تعال فانظر إلى ما نريك من ضروب الخفة وفنون الرقص وفنون الغناء والسبق فى العدو ، ومهارتنا حين نسوس الفلك فوق أعراف الموج ورغاء الثبج ، كيما تتحدث بهذا كله إلى أقرانك وبين ظهرانى قومك ، وتحكيه لأطفالك ، عمرك الله أيها الغريب المكرم إنه لا فخر لنا فى ميدان اللكم والمصارعة ، بل غاية المتاع عندنا ثورز

مُوَشًّى ، وطعام ملوّن ، وقيثار مُرنة ، ورقصة خاطفة ، وحمام دافىء وفراش وثير ... والآن ... هلموا أيها الفياشيون فالهوا أمام ضيفكم والعبوا ، وأروه من رقصكم وشنفوا أذنيه بغنائكم ، فلسوف يتحدث بكل ذلك فى الآفاق ، وحسبكم أن يذكر عنكم أنكم أمهر من ركب البحار ! هلموا ... ليحضر أحدُكم دمودوكوسَ الالهى ... يعزف على قيثاره ويُلاعب قلوبنا بغنائه ... ابحثوا عنه فى بعض ردهات القصر ...» .

وانطلق آخر يعد قيثاره ، ثم نهض تسعة فياصل يمهدون أرض الملعب ويهيئون الحلقة ، ويزحزحون الجماهير .. وأقبل المنادى والمطرب يسعى بين يديه ، وجلس فى وسط الحلقة حيث أحدق به الولدان اليوافع اليوانع يميسون ويرقصون بسيقان تخطف كمثل خطيف البرق ، بين دهش أوديسيوس وشدة تعجبه والمطرب فيما بين ذلك يوقع لهم النغم الحلو ، والموسيقى العالية ... وفرغوا من رقصهم ، فشرع المنشد يتغنى أسطورة مارس ومعشوقته الآثمة سيتريا[1] إذ أغواها رب الحروب المستهتر بمعسول الكلام ومطلول الغرام فلانت له ... وكان أبوللو - إله الشمس - يرقبها من مركبته الذهبية فى علياء السماء ، فطار بالفضيحة المشئومة إلى الزوج التاعس ... ڤلكان ... الذى استطير وثار ثائره ، فراح يصنع أنشوطة كبيرة كالشرك من حلق الحديد المفرغ الذى لا يقوى عليه أحد ، حتى إذا فرغ منها حملها إلى داره ودسها حول سريره ثم ألمّ بالمنعرج النجس حيث أوى مارس إلى ڤينوس - الزوجة الآثمة - وكان مارس يغالب فى عينيه أخريات غفْوة الضحى ، فلمح فلكان يطوى الرحب إلى أرض لمنوس - أحب

---

(١) ڤينوس .

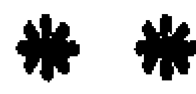
المدائن إلى قلب الإله الحداد .. وطرب مارس أيما طرب .. وأيقظ معشوقته قائلا : « هلمى فينوس ... انهضى أيتها الحبيبة لقد ذهب زوجك إلى لمنوس أرض البرابرة .. هلمى إلى البيت ... إلى السرير الدافىء ... إلى الحب ... إلى نعيم الهوى !! » وهبت فينوس ... وانطلق الأثيمان إلى سرير فلكان ، وفى قلب مارس غلة ، وملء جوانحه غواية وإثم .. وفى دمه شبق إلى هذه الفاكهة يكاد يقتله ... ولكن ... وأسفاه ! إنهما ما كادا ينطرحان فوق الفراش الوثير حتى انطرحت فوقهما الأنشوطة الهائلة ... وآمسكت بهما إمساكا شديداً .. لم يجدا منه حِوَلا ، ولم يجدا منه مَخلصاً ... وكان أبوللو يرقبهما كذلك ، وقد حدث فلكان بما رأى .. فعاد الإله الحداد على عجل ، ولم يكن قد بلّغ شطآن لمنوس بعد .. وكان قلبه يدق .... لا .... بل كان قلبه يكاد ينخلع فوقف فى البهو الكبير ثم أرسل صيحة مدوّية يستصرخ بها الآلهة : يا جوف العظيم ! يا آلهة الخلود جميعاً ! أنظروا ! إشهدوا كيف تفضح فينوس زوجها مع عشيقها الفاجر مارس ! ولِمْ ؟ لأنه وسيم قسيم قوى ولأننى محطم موهون ! ذنب من ؟ إنها جريرة من أنسلونى وجاؤوا بى إلى الحياة ! أنظروا كيف يتمرغ الأخبثان الأفسقان فوق فراشى ! لقد تثلجت مشاعرهما فهما لا يباليان أن يأكلنى الغيظ أو يقتلنى الحنق ... ولكن لا ... حسبهما هذا الشرك الذى لن يفلتهما حتى يرى جوف فيهما رأيه ... جوف الكبير المتعال ... والد فينوس ! الذى أطلب إليه أن يرد إلى قناطير الهدايا الزوجية التى قدمتها باسم ابنته العاهرة كشروط لإطلاق سراحها ! » .

ولم يكد يفرغ من صرخته حتى اجتمع فى بيت جوف ذى الأرض

النحاسية جميع الآلهة .. وكان أول من أقبل نبتيون رب البحار ، ثم تلاه هرمز رسول الآلهة وصاحب القوس ، ثم أبوللو ... ثم غيرهم وغيرهم ... ولم يحضر من ربات الأولمب واحدة ! فقد احتجزهن الخجل عن شهود هذه الفضيحة ! ثم ها هم الآلهة يقهقهون ويضحكون ... ويتلهون بهذا المنظر العجيب ، ويقول بعضهم لبعض : « ياللاثم ساق إلى أوخم العواقب ! ويا للأعرج الأكسح ، يشأى[1] السَّبّاق المجلى !! لقد استطاع فلكان أن يمسك بتلابيب مارس ، الذى هو من هو ...! مارس ! أسرع العَدَّائين ! إن عليه أن يؤدى الغرامة الفادحة للإله الأعرج ....» ... ثم خاطب أبوللو - رب الشعاع الوضاء - هرمز فقال : « يا ابن جوف ، يا رسول السماء ، ألك فى هذه الغفوة الحلوة فى حضن فينوس ، على أن تقع معها فى هذا الشرك ؟» وأجابه هرمز عابساً : « يارب الرماة ! بنفسى بنفسى !! منذ الذى يأبى حضن فينوس فى شرك هو ثلاثة أضعاف هذا الشرك ، على أن يسرمقه سكان الأرض والسماء ؟!» : وتضاحك سكان السماء ، ولكن نبتيون الذى ساءته هذه الحال خاطب فلكان فقال : « هلم فلكان ففك هذه السلاسل والأغلال ، وإن زعيم لك ، كفيل أنه مؤد إليك كل ما تفرض عليه من غرم !» ... ورفض فلكان أن يطلق فريسته ... « لأنه من يضمن ألا ينطلق مارس وهو لا يلوى على شىء ، غير عابىء بكل ما عساه أن يعد ؟» . وقال رب البحار : « ليطمئن قلبك يا فلكان فوعزتى وجلالى لئن لم يف مارس لأجزن أنا ، ولأؤدين عنه غرامته !!» . فأجاب رب الحديد الصناع :

(١) يسبقه فيسبقه .

« إذن ، فلن يخيب رجاؤك ، ولن يرد طلبك ! » وتقدم ففك الأغلال عن العاشقين الفاسقين ، وانطلق مارس إلى مأواه بأرض تراقيه ، وانطلقت فينوس إلى مرتعها الجميل بأرض بافيا - حيث تلقاها ربرب من أترابها بالبشر والترحاب ، فغسلنها ، وضمخنها بالطيوب القدسية ، وأسبلن عليها شفوف الصبا وأردية الشباب .



وفرغ دومودوكوس من إنشاده بين تأثر أوديسيوس وتلهف البحارة الفياشيين ، ثم أومأ الملك إلى أبنائه فوثبوا وسط الساحة ، وأخذوا يرقصون فى خفة ، ويتقاذفون كرة غالية من صنع پوليب ، فكان أحدهم يرسلها عالية حتى تدنو من السحب ، فيثب الآخر فيلتقطها وهو معلق فى الهواء ، ثم يتقاذفها أحدهم بعد الآخر ، بين تهليل الفتيان وتصفيقهم الشديد .. وسر أوديسيوس مما أبداه أبناء الملك فى الرقص ، وأثنى عليهم لأبيهم ، ورجاه فى الذى رجاه فيه من تهيئة عودته ، فتوجه الملك إلى زعماء شعبه وقال : « يا زعماء الفياشيين وأشياخ الأمة ! حرى بنا أن نكرم مثوى هذا الضيف الذى بدا لكم من وقاره وحكمته وأثير أرومته الشيء الكثير ؛ هلموا إذن ... إنكم إثنا عشر زعيما ، وأنا الثالث عشر .. فليحضر كل منكم بدرة من الذهب وصدراً مُفَوّفا فتكون من الجميع هدية سنية له ... أما يوريالوس فعليه هدية كذلك ، وعليه أن يعتذر مما فاه به » . ووافق الكل على ما اقترح الملك ، وأرسلوا رسلهم يحضرون البدَر والصُّدُر ؛ ثم نهض يوريالوس يعتذر ويقدم لأوديسيوس سيفا جُرازاً له مقبض من فضة ، وقراب

مطعم بالعاج ؛ ؛ ودعا له أن تكلأه الآلهة بعين الرعاية حتى يرى زوجه وولده وبلاده ، بعد كل الذى احتمل من عناء ونصب ، وتقبل أوديسيوس الهدية ، ودعا لصاحبه بحياة الأمن والسلم والرفاهية .

ثم علق الجراز فوق كاهله الضخم .

ووصلت الهدايا الأخرى مع غروب الشمس ، فنهض أبناء الملك يتسلمونها ، ويحملونها إلى الداخل كذلك ، وسأل الملكة أن تحضر ثوبا وأكسية ، وأن تعد صندوقا يتسع لهدايا الزعماء ، ملوك البحر ، التى خلعوها على الضيف ؛ وقدم هو هديته ... كأسه الخاصة من الذهب الخالص ، المحلاة بأبهج الطرف وأبهى التصاوير .... « ليذكرنى بها ، كلما أفرغ منها الخمر تقدمه للآلهة » . وسألها أن تعد ، للرجل حماماً ينعشه ، وأن تعطيه الأثواب والأكسية كيما يتدثر بها .

وأمرت الملكة خدمها فأعددن الحمام ، وأحضرت هى ثوباً فضفاضاً فوضعت فيه بدَرَ الذهب وكاس الملك وسائر الهدايا ؛ ثم تلفتت إلى أوديسيوس فقالت له : « والآن أيها السيد هلم فغلق هذا الصندوق فهو لك ، لتكون آمناً عليه إذا غفوت فى السفينة » . ولبى أوديسيوس ، وأغلق الصندوق ثم ربطه بحبل طويل عقده تعقيداً . ثم دعته ربة البيت إلى حمامه ؛ ولله كم ألقت عيناه حين رأى الثوب الديباجى العظيم ، الذى لم يلبس مثله منذ فارق كليبسو .. ثم اغتسل وتدثر ، وتضمخ بأحسن الطيوب ، وبرز كأحد آلهة الأولمب .. وبينا هو يطوى الأبهاء إذا صوت جميل ذو غنة يهتف به .. وإذا هى الأميرة الفينانة ـ نوزيكا ـ واقفة خلف عمود وهى تقول : « س . س .. أيها الغريب النازح أذكرنى دائماً ،

أنا ، أول من لقيك هنا !!» وتبسم أوديسيوس وقال : « نوزيكا !! أنت ؟ ابنة أكرم الملوك ألكينوس ؟! لك الله ألا وحق جوفه رب الصواعق لو صحت الأحلام ووصلت سالما إلى بلادى لظللت آخر الدهر أعبدك عبادة أيتها الجميلة العذراء كما أعبد الآلهة أربابى !» . وبلغ مجلس الملك فاستوى الى كرسى بجواره ، واجتمع الفياشيون مرة أخرى ، ودارت الأقداح ، وأجلس المطرب الأعمى الإلهى ، فخر شيرا ، قريباً من العرش ، وقدم إليه أوديسيوس جزءاً من شواء حمله أحد النذُل ، فأقبل عليه المطرب حتى اغتذى ؛ ثم توجه إليه أوديسيوس بالحديث فقال : « كم أنت جدير بالثناء يا دومودوكوس ، بل أنت أولى به من أكثر الناس ! ليت شعرى ! هل ثقفت موسيقاك عن عرائس الفنون ، أم أنت قد حذقتها على أبوللو نفسه ؟ لقد أنشدت ما كان من جيش الآخيين كأنك كنت شاهد عيان ، أو كأن شاهد عيان قد قصه عليك ! أنشد لعمرك ! تحدث عن الحصان الهولة الذى صنعه أيبوس بإرشاد مينرفا ، والذى حمله أوديسيوس الجبار هو وصحبه إلى قلاع طروادة ، ثم اختبأ هو وهم فيه ، فكانوا أول خراب إليوم !! تغن ! إنى سوف أحمل اسمك فأنشره فى الآفاق أيها المطرب المعجز الذى لا يباريه إلا عازف موسيقى السماء ، أبوللو ! تقدس اسمه » .

وتنزل أبوللو على لسان المنشد فراح يقص الوقائع الطروادية منذ حرق اليونانيون معسكرهم ، وبعد إقلاعهم من شطئان إليوم ، وذاك الانقسام فى الرأى بين الطرواديين بسبب الحصان الهولة أيقصمون ظهره أم يدقون عنقه أم يحفظونه تذكاراً لهذه الحرب ونصباً للآلهة ... على كل حال لقد نقلوا الحصان داخل أسوارهم ليكون القاضى عليهم بمن فيه من هذه النخبة أولى

القوة من أبطال الإغريق . . . وهكذا قدر عليهم فى الأزل أن يهدموا قريتهم بأيديهم . . . تغنى الشاعر المُفْتَنّ بكل هذا ، وأثنى أيما ثناء على أوديسيوس الذى كان يكر كأنه مارس ، ومنلوس الذى كان يفر كالصاعقة ، وعلى بقية الأبطال الصناديد الذين فازوا بالنصر فى ظل پاللا - مينرفا - ربة الحكمة ، وكان أوديسيوس ينصت إلى غناء المطرب وإنشاده ، ودموعه تنحدر غزيرة على خديه ، والآهات العميقة تشق صدره شقاً . . . كأنها آهات تلك الأم الرؤوم التى وقعت فوق جثمان زوجها الباسل تبكيه وتنعيه ، وقد سقط فى الحومة يدفع عن مدينته أعداءها ، وقد وقف من خلفها أبناؤها خُضراً يتامى كأفراخ القطا . . . ثم يقبل الأعداء فيخمدون أنفاس هذه الأم بضربة لازبة ، فتنظر مرة إلى زوجها القتيل ، ومرتين إلى أبنائها التاعسين ! كذلك كان أوديسيوس ، وكذلك كان يخفى دموعه فى طرف ردائه فلا يراها أحد إلا ألكينوس الملك الجالس قريباً منه . . . وقال الملك متحدثاً إلى رعاياه : « أيها الزعماء والأشياخ الفياشيون ، أولى للمنشد ثم أولى أن يفرغ من إنشاده ، فلقد تصدع قلب ض بفكم ووهنت روحه مما يسمع من هذا القصص الحزين ! لقد أحببناه كأخ ، ووهبنا له محبتنا وودنا وصافى أخوتنا لا ليحزن أو يأسى . . والآن ! هل يسمح ضيفنا فيذكر لنا اسمه الذى يعرفه به آله ويدعونه به ؟ لقد كتم هذا عنا ، فهل ولد أحد ولم يحمل اسماً ؟ من أنت أيها العزيز ، وما بلادك ؟ وإلى أين تحملك سفينتى ويبحر بك رجالى ؟ لقد منحنا نبتيون - رب البحار - الأمن فى ذلك اليم وذلل لنا غواشيه ، ولكنه ليس أشق عليه من أن تحمل سفننا أغراباً لا نعرفهم ، فنبحر بهم إلى

بلادهم !! إنه يغضب علينا ، وقد يغرق سفننا تشفيا وانتقاماً حينما تعود أدراجها إلى بلادنا ،فتهوى إلى الأعماق ثم يسحرها إلى جبل ناتىء فوق العباب ، قِبَلَ شيريا ! تكلم أيها السيد ! أصدقنا ! من أنت ؟ ومن أى البلاد قدمت ؟ وأين ضربت بطون الركائب ؟ وأى الأمصار شاهدت ؟ وماذا يفجر هذا الأسى فى أعماقك كلما سمعت عن جنود الآخيين ، وكلما ترددت فى أذنيك أغنيات طروادة ؟ إن الآلهة تحيك من حاضر المرء طيلسان الهموم لغده ! أَقُتِل أبوك ثمة ؟ أم صرع أخوك تحت أسوارها ؟ أم قضى حموك فى ساحاتها ؟ أم أودى أصدقاء لك أحباء فى حلبتها ، كنت تعدهم كبعض أهلك : أو أعز من أهلك ؟ تكلم ! » .

## فى أرض المردة ( السيكلوبس )

وشرع أوديسيوس يجيب عما تساءل عنه الملك فقال : « أيها الملك تعالى جدك ، لشد ما يُطرب ما تغنى هذا المنشد غناء الآلهة ! ولقل ما تعدل الدنيا بأسرها هذا المجلس الشادى ذا الأضياف والأكال والأشربات ! على أننى مجيبك على ما بدهك من دموعى وهمومى ، وما لقيت وما سوف ألقى مما قسم لى من أشجان وأحزان ! إذن فاعرف اسم ضيفك الشريد الذى لا يجهل اسمه أحد ... ضيفك اللائذ بكرمك ، المستذرى بحماك ، المتشبث بك ليصل فى ظلك إلى بلاده مهما تقاصت ومهما نأت ... أنا أيها الملك ... أوديسيوس ... أجل ... هو أنا أوديسيوس ذو الذكر ، المعروف فى السموات بالدهاء والمكر ... ابن ليرتيس رب إيثاكا ، وملك نريوس ذى الشعاف

السامقة ، والجزائر الآهلة حول ساموس ودلخيوم وزاسنتوس ، أم الجزائر التى تضافح تباشير الصباح بكل روضة فيحاء وخميلة لَفَّاء ، وجنات ذوات شَجر وثمر ، صِبْغاً لأبنائها الأوفياء . . . هناك . . . حيث احتجزتنى عروس الماء كليبسو فى كهفها ، وراودتنى لأكون بعلها . . . وهناك . . . حيث أغرتنى سيرس هى الأخرى ، سيرس صاحبة جزيرة إيايا . . . التى حاولت أن تتخذ منى خليلا فأبيت ، ولم أقبل أن أضحى أهلى ووطنى ، ولو أصبحت زوجاً لإحدى الربات الخالدات . . . ولكن لا ، هلم قبل كل شىء أقص عليك من أنباء رحلتى منذ بارحت إليوم ، ولأدع ما قبل ذلك فهو معلوم مشهور :

« أقلعت بنا الفلك إلى بلد السيكون ( إزماروس[1] ) ، ( فبدا لى أن أزيد فى ثروة رجالى وما فازوا به من أسلاب طروادة ، فأشرت عليهم فتح المدينة واغتنام ما فيها من كنوز وأذخار[2] ) وسرعان ما تم لنا ذلك ، فقتلنا العسكر وملكنا القرية ، ووزعت السبى والأسلاب على جنودى ، ثم أشرت عليهم بالرحيل فعصوا أمرى ، وعثوا فى المدينة مفسدين ، وعاقروا من الخمر ، وعقروا من الشاء ما أذهلهم عن أنفسهم ، وأتاح لأعدائهم لم الشعث ، ففجأونا بجيش عرمرم منهم ومن جيرانهم ، وناضلونا عن مدينتهم فأوقعوا بنا ، ولم يغننا أنا قاتلناهم حتى مطلع فجر اليوم التالى ، بل ظل فرسانهم الصناديد يكرون ويفرون ، حتى قذفوا بنا فى البحر ، فوقفنا فى سفائننا نناوشهم برماحنا . . . وصمدنا لهم

(١) على الشاطىء الشمالى لبحر إيجه .

(٢) ما بين القوسين من شرح الأستاذ جرير وليس من متن الأوديسة .

حتى توارت الشمس بالحجاب فانسحبنا نجر أذيال الهزيمة والخزى ، بعد إذ انتزع السيكون فخار النصر . وعدت إلى الجند . . . فـوأسفاه ! . . . لقد افتقدت ستة من رجال كل سفينة . . . سقطوا فى المعركة الخاسرة !

وحَلّ الليل ، فجلسنا نتذاكر أسماء القتلى ؛ ومـا كدنـا نفعـل حتـى سخر علينا جوف رب السحاب الثقال ـ ريحاً صرصراً عـاتية أثـارت البـر والبحر ، وعصفت بمراكبنا فأطاحت قلاعها ومزقت شراعهـا ، ففـزعنا إلى المجاذيف وأعملنا السواعد ، مستقتلين مستميتين ، حتى نجونا بعـد لأى إلى البر ، حيث تلبثنا ليلتين طويلتين فى أين وإعيـاء ، وشـكاة وشـقاء ، نصلح القلاع ونرتق الشراع . . . وفى صباح اليوم الثالث تطامن البحر ونام هائجه ، فبادرنا إلى الفلك وأقلعنا باسم الآلهة مجراها ومـرساها ومـا كدنـا نلمح شطئان ماليا ، حتى هبت زوبعة عنيفـة تـلاعبت بنـا ، وحملتنـا إلى جزيرة سيثيرا . . . وطفقنا بعدها نذرع العباب تسـعة أيـام أخـرى ، حـتى بلغنا بلاد ( لوتوفاجى ) ، هذا الشعب الغـريب الـذى يقتـات بـالفاكهة فحسب ، من دون ما تنبت الأرض وما يدب عليها . . . ورسـونا ثمـة ، وأهرع الملاحون إلى البر فاستراحوا وسمروا ؛ ثم تخـيرت اثنـين مـن أوثـق رجالى ، وجعلت عليهما ثالثاً رئيساً ووجهتهم إلى سكان هذه الأرض ليتعرفوا أحوالهم ، فاختلطوا بهم ، وقـابلهم اللـوتوفاجى بـالبشر والـترحاب ؛ ثم عرضوا عليهم من ثمر اللوتس العجيب ، الذى ينسى آكلـه مـا سـلف مـن حياته ، ويَبُتّ ما بينه وبين وطنه من وشيجة فما يفكر فيه ، وإذا فكر فيـه فما يؤثر أن يرتد إليه ، بل يصبح كل مناه أن يأكل ويأكل ويـأكل مـن هـذا اللوتس العجيب ، وأن يعيش أبد الـدهر بـين أولئـك اللـوتوفاجى

السحراء ! . . . وتنظرت عودة رجالى ، بيد أنهم لم يرجعوا ، فاضطررت أن أذهب بنفسى إلى حيث سحروا ، فحملتهم قسراً إلى الشاطىء بين العويل والضجيج ، ولقذفت كلا منهم فى قسرة مغلولا مكبلا مشدود الوثاق ، ثم أمرت الملاحين فأبحروا على عجل قبل أن يأكل بعضهم من اللوتس الملعون فيضلوا ضلالهم وينسوا أوطانهم ، ويظلوا فى هذه الأرض جاثمين .

« وما عتمنا أن وصلنا إلى أرض المردة الجبابرة - السيكلوبس - الطغاة العتاة ، الذين لا يخضعون لشريعة ، ولا يأتمرون بقانون ؛ الذين تؤتى أرضهم أُكلها رغداً من غير كد ولا عناء . . . حَبًّا وأَبًّا ، وحدائق غُلباً وقضباً وعنبا ، تُسق مما يفيض عليها جوف من مائه المعين . . . يعيشون فوضى ، لا تربطهم رابطة ، ولا يقوم بينهم نظام ؛ يأوون إلى كهوف موحشة ، وغيران سحيقة ، فى قلل الجبال وأحيادها . . . يُعنى كل منهم بنفسه وزوجه وأولاده وقطعانه ، ولا يأبه للباقين ، وتلقاء أرضهم توجد جزيرة معشبة أريضة شجراء ، فيها من الماعز السائم قطعان لا حصر لها ، ولكنها مع ذلك يهماء[1] مُضلة ، لم تطأها فيا غبر قدم إنسان ، ولم يُرَش إلى حيوانها سهم صائد ، لأن السيكلوبس لم يحاولوا أن يركبوا البحر مطلقاً ، ولم يعرفوا طوال حياتهم هذه الجوارى المنشئات فيه كالأعلام . لذلك سلمت الجزيرة بما فيها من خير ، وتكاثرت قطعانها حتى امتلأت بها مروجها الخضر السندسية . . . وثمة ، فى جوْن هادىء جميل ، ألقينا مراسينا ، ونزلنا من سفائننا ، فى ظلام الليل الدامس ، وفى حراسة الآلهة ، بعد إذ ارتطمنا

---

(١) مضلة لا يهتدى فيها .

بسيف البحر ... ثم نمنا على الشاطىء حتى مطلع الفجر ؛ وأشرقت أورورا تنضر بالورد مشرق الأفق ، فنهضنا نجوب الجزيرة ، ونتفيأ ظلال الحور ، ونرى عرائس الماء ترعى الماعز ؛ فبادرنا إلى سفننا ، وأحضرنا الحراب والأقواس ، ثم تفرقنا ثلاث فرق ، وشرعنا نصيد من هذا الحيوان ، فاجتمع لنا منه الشيء الكثير ، ونال كل من رجال سفائننا الإثنتى عشرة تسع أعنُز ، بعد أن تخيرت عشراً لنفسى ؛ ولبثنا يومنا هذا نغتذى بكل شواء حنيذ ، ونكرع كل كأس رويه ، فى خير التخمة ولا شجى[1] ... وللآلهة تلك الخمر السلاف السيكونية التى افترعناها من زقاق أزماروس ! ثم نظرنا ناحية الغرب ، فما راعنا إلا دخان كثيف يصّاعد فى الأرض القريبة ، ورغاء وضوضاء كالرعد تنتشر فى جنباتها ، وإذا هؤلاء السيكلوبس المردة ينتشرون فى الأرجاء ، وأمامهم قطعانهم من الشاء والأنعام ... أعداد لا حصر لها ... عليها إذا عُدَّ الحصى يتخلف !

ونمنا ليلتنا مروعين ، حتى إذا بزغت أورورا نهضنا واحتشدنا فى صعيد واحد ، ثم قمت فى رجالى خطيباً ، فقلت : « أيها الإخوان ! لتبق غالبيتكم فى هذه الجزيرة ، فإنى ذاهب فى نفر منكم نرود هذه الأرض ، ونعرف من أنباء أهلها ، ونعلم من أحوالهم ، ونرى هل قوم ظلم وضيم ونضال أم هم ربيون يهشون للمكرمات ، ويخبتون للآلهة ؟» .

« وأقلعت فى نخبة من رجالى فوصلنا طرفاً من الجزيرة ناتئاً فى البحر ، فوقه قلاع مشرفة عليه ، فهبطنا فيه ، وذهبنا نروده ، حتى انتهينا

---

(١) الشجى هو الغصص بالشراب .

إلى كهف عظيم ضارب فى الصخر ، وقد نما الغار الجميل على بابه الضخم . . . ودخلنا . . . وأثار دهشتنا هذه الحظيرة الكبيرة فى وسط الكهف ، تتسع لقطعان لا عدد لها من الأنعام والأغنام والماعز ، ثم هذا الفناء العظيم المحدق بها يفصله عنها سور عتيد من الحجر الصلد ، مُتَرَّسٌ بجذوع الحور والسنديان ؛ ولقد عرفنا فيما بعد أن صاحب هذه المغارة مارد جبار من أراذل السيكلوپس ، لصق بهذا الطرف من الجزيرة يعسف ويظلم ويملؤه بغياً وعدواناً . . . ثم هو إلى الجان والشياطين أقرب منه إلى أى خلق آخر ؛ فوجهه مربد عبوس أبدا ، وهو إلى ذلك هولة تحسبه إذ تراه قطعة من الصخر نحت منها ناطور فوق ناصية الجبل . . . ؛ . . . وتوقلنا[1] وكان معى زق من خمر معتقة مما أعطانيه مارون بن إيڤانت ، قَسٌّ فوبوس ، رب إزماروس ، لقاء ما أبقينا عليه وعلى زوجه وأولاده يوم غزوتنا لقريته . . . يا له من كاهن سمح طيب القلب ؟! لقد نفحنى بأكرم اللّهى[2] واجزل الهبات ؛ وهل أنسى ما حييت تلك البِذَر السبع من الذهب الخالص ، وذلك الدّن من الفضة الغالية ، وتلك الجرار الإثنتى عشرة من الخندريس الصرف التى تُشرب باسم الآلهة ؟ لقد كان يفديها بنفسه وماله ، فلم يكن يعرف مخبأها أحد غيره وزوجه وأمينه . . . لقد كانت كأس روية واحدة من هذه المدامة تمزج بعشرين ضعفا من الماء القراح ، وهى مع ذاك سكر ولذة وروح علوى للشاربين ؛ ثم كان معنا رُكُز[3] به أكل كثير ، وكنا عدداً عديداً من

(1) وَقَل : صعد فوق جبل .

(2) المطايا .

(3) الركز ( الخرج ) بضم الراء ما يحمل فيه الزاد .

الأبطال الصناديد ، ولكننا مع ذاك كانت تعترينا رعدة ، وكان يشيع فى قلوبنا فزع ، أن يفجأنا هنا الجنى صاحب المكان ، الذى لا يخشى فينا شريعة ، ولا يرده عن أذانا قانون ... ثم توقلنا كذلك ، فأشرفنا على مغارة سحيقة هى مقام السيكلوب ومنامته من غير ريب ؛ بيد أننا لم نجده عندها ، فقلنا ربما انطلق بقطعانه يرعاها فى المروج القريبة ... ورددنا الطرف فى المغارة فرأينا مصافى كثيرة معلقة ينز الحصير[1] منها ههنا وههنا ، فعرفنا أن السيكلوب يصنع الجبن من ألبان مواشيه ، سيما وقد امتلأ المكان ببواط كثيرة مفعمة بالحصير والمخيض . وعلى مقربة منا شهدنا حظائر واسعة لصغار الشاء والحملان والماعز ، وقد قسمت فرقاً حسب سنها ... وقد بدا لبعضنا أن نذهب بما هنالك من جبن وزبد ، وأن نستاق الحملان والجذعان إلى سفائننا ، غير أنى - واأسفاه ! - تأبيت ، لأننى آثرت لقاء السيكلوب ، رجاء أن ينفحنى من كنوزه ، ويسبغ علىَّ من آلائه ؛ ولذا ، جلسنا ريثما يعود ، وأكلنا من جبنه وزبده ، وأشعلنا ناراً نستدفىء ، ثم إذا هو يطوى المروج الخضر بقطعانه ، وإذا على كاهله الرحب أثقال وأحمال من الحطب وفروع الشجر اليابس ، حتى إذا كان لدى الباب ألقاها فى بطش فاهتزت الأرض ودوى المكان ، وانحبس وصيد الكهف ، فانقذف الرعب فى أفئدتنا ، فهرولنا مذعورين صعقين ، واختبأنا كالخفافيش فى زوايا المغارة وشقوقها ... أما هو ، فقد أدخل قطعانه ، واحتجز ذكرانها فى الفناء الخارجى ، ثم أخذ فى حلب الإناث فى الرحبة الداخلية ... ونهض بعد ذلك فسد مدخل

---

(١) الماء يسقط من الجبن .

الكهف بحجر واحد كبير لو وضع على عربتين عظيمتين لم يستطع عشرون ثورا ضخما أن تزحزحه من مكانه . . . وجلس يحلب النعاج والماعز ، وكلما فرغ من واحدة أرسلها إلى جذعانها[1] ترضع ما تبقى فى ضرعها . . . وكان يقسم لبنه قسمين ، فيحتفظ بأحدهما لشرابه ، ويمخض الآخر لزبده وجبنه ؛ ثم فرغ من هذا كله وأضرم ناراً عظيمة ما كادت تلتهب حتى رآنا معلقين فوق نؤى الكهف . فصاح بنا : « من هنا ؟ وىْ ! من أنتم أيها الغرباء ، ومن أى البلاد نزحتم وفيم خضتم هذا العباب إلى هنا ؟ آفاقيون ؟ أم تجار ؟ أم قرصان تعيشون فى بلاد الناس ؟» وزلزلنا زلزالاً عظيما ، وكان صوته الأجش الخشن يلقى الرعب فى قلوبنا فتعتلج اعتلاجاً . . . ثم إنى جمعت ما تبقى من وعى ، وما أبقى عليه الروع والهلع من إدراكى ، فقلت أجيبه : « نحن إغريقيون أيها العزيز وقد ذرعنا البحر اللجى شرقاً ومغرباً ، وتقاذفتنا فوقه كل ريح ، منذ بارحنا إليوم التى فتحها الله علينا ، لأننا من عساكر اجاممنون الملك ، ابن أتريوس الكريم ، قاهر طروادة ، ومبيد الطرواديين . . . وها نحن أولاء ، قد لذنا بك بعد طول النصب ، فنضرع إليك أن تفىء علينا مما أفاء جوف عليك ، وأن تردنا غانمين . . . فيا مولانا أكرم مثوانا ، فنحن الأغراب فى كنف جوف أبداً ، وأينما نولّ فأنه معنا » .

وتجهم السيكلوب الجنى وقال مغضباً مستهزئاً : « حسبك أيهَا الأخ المغفل ما خوفت من جوف ، فنحن السيكلوبس لا نبالى جوف ، حامل إيچيس[2] ، ولا سكان السماء قاطبة . . . أنا أقوى منهم بكثير ، وأنا

(١) جمع جذع بفتحتين كل حيوان صغير غير مفترس .

(٢) درع .

نفسى ، لن آبه لأيما نذير من جوف كبير الأولمب ... ولكن حدثنى قبل كل شئ متى القت سفينتكم مراسيها فى أرضنا ؟ وأين هى ؟ أقريبة أم قاصية من هنا ؟ قل الحق ولا تخف عنى شيئا »... وأجبته فى حيطة ورفق ، وقد عرفت ما رمى إليه : « لقد نسف نبتيون رب البحار مركبنا فى اليم نسفاً ، وسلط عليها الزوابع فجرت بألواحها بعيداً ... بعيداً من ههنا ... ونجوت مع هذا النفر من رفاقى فقط إلى شاطئكم » ولم ينبس السيكلوب الجبار بكلمة ... بل أقبل نحونا ، وانقض على رجالى كالصاعقة ، ثم أمسك باثنين منهم ، وأرسلهما فى الهواء ، ثم ضرب بهما أرض الكهف ذات النؤى ، فتهشم رأساهما ، وانتثر المخ فوق الحجارة هنا ... وهنا ... وألقاهما بعد ذلك فى الجمر المتأجج حتى نضجا ... واستوى كالسبع الرئبال ، وطفق ينهشهما ... ولم يمض وقت طويل حتى أتى عليهما ، فهو مبق على عظمة واحدة ؛ أما نحن فبالآلهة السماء ... لقد كان هذا المنظر الفاجع يعصف بنفوسنا ، ولم نملك إلا أن نرفع الأكف فنبتهل إلى جوف أن ينجينا . وأن يرحمنا ؛ ولم يكن لنا مع ذاك من أمل فى نجاة !

وبعد أن أشبع الجبار نهمه من هذا اللحم الآدمى الغريض ، وبعد أن شرب من اللبن شرب الهيم ، انطرح بين قطعانه ، وجعل يرسل فى الكهف شخيراً مزعجاً ... وقد حدثتنى نفسى أن أنقض عليه فأخوض فى لَبَّتِهِ بجرازى ، ولكن فكرة سوداء طافت برأسى ، حينما نظرت إلى باب الكهف فأبصرت الحجر الضخم الذى لا يطيق أحد أن يزحزحه ، وتذكرت الموتة الجاهلية المفزعة التى سنموتها إن فعلت .. فقنطت قنوطاً

شديداً ، وأرسلت آهات الحسرة والندامة أنا وأصحابي وانتظرنا بقلوب فارغة تباشير الفجر ، ورأينا أورورا الوردية ترسل أول أشعتها من الكوى الصغيرة ، فهب السكلوب الى قطعانه ، وأخذ فى حلب إناثها ، وكلما فرغ من واحدة أرسلها إلى صغارها ترضع وتنخب ؛ ثم إنه قبض على اثنين من رجالى وفعل بهما كما فعل بصاحبينا أمس ، حتى إذا فرغ من إفطاره ، هب إلى الحجر فزحزحه فى سهولة ويسر ، كأنما كان يزحزح غطاء آنية ، ثم استاق قطعانه ، وأعاد الحجر إلى مكانه ، ومضى يرغى بهمه ، وبقينا نحن ندعو ثبورا . . . وفكرت ألف فكرة فى وسيلة أنتقم بها من هذا المارد الوحش ، وتوسلت بمينرفا أن أستطيع . . . وانفرجت أساريرى فجأة ، وأشرق وجهى بنور الأمل . . . ذلك أننى أبصرت بجذع زيتون مشذب أعده الجنّى ليكون عصا يهش بها على قطعانه ، فقلت فى نفسى : « ولم لا يكون فى هذا الجذع خلاصنا ؟» ، ثم إنى أمرت رجالى يبرّى احد طرفيه ، وكان الجذع طويلا جداً ، يصلح سارية لسفينة كبيرة يعمل فيها عشرون بحاراً . . فأقبلوا عليه ينحتون ويبرون ، وأكببت أنا على نهاية الطرف أحدده . . . ثم انتهينا من عملنا وأخفينا الجذع تحت القش الكثير الملق فى الكهف ، وجلسنا نتخير من بيننا أشجعنا وأكثرنا أيداً وقوة ، وأشدنا استعداداً لحمله وغرزه من طرفه المحدد فى عين السيكلوب . . . وانتهينا من ذلك إلى أربعة ، وكنت أنا خامسهم . . . ثم عاد الجنى فى موعده فأدخل قطعانه وأرجع الحجر إلى مكانه ، وجلس يحلب الإناث ويقسم اللبن ويمخضه ، ويرسل كل جذع إلى أمه ؛ ثم نهض إلينا فبطش باثنين منا وتعشى بهما .

وقبل أن يستلق على الأرض ليستريح أفعمت كأساً كبيرة مما كان معنا من خمر مارون وتقدمت بها إليه وأنا أقول : « ألا أيهذا السيكلوب ! هاك كأساً من الخمر إذا تحسيتها بعد أكلتك الهنية من اللحم البشرى عرفت أى خمر فقدنا فى سفينتنا المغرقة . لقد كنت أحضرتها تكرمة لك إذا أنت أكرمت مثوانا وأطلقت سراحنا وساعدتنا على العودة إلى وطننا سالمين ! ولكن ! أواه ! إن سورتك طامية أيها القاسى الجبار ، وإن أحداً من البشر لن يجسر على أن يقترب من جزيرتكم بعد إليوم !» . وأخذ الكأس فعبها عباً ، وسر بها سروراً كبيراً ، ثم سأل أخرى فقال : « أيها الفتى ما أسمك ؟ إعطنى كأساً أخرى وإنى مثيبك عليها . إن لدينا خمراً صرفاً من أكرم ما تعصر العناقيد ، يسقيها جوف من شآبيبه ، ولكنها أبداً لا تبلغ هذه الخمر البكر جودة » وأعطيته ثانية وثالثة ، وراح المجنون يشرب ويشرب ، ولما شهدت النشوة ترقص برأسه قلت له فى ظرف : « أيها السيكلوب لقد تساءلت عن اسمى ، ألا فاعلم أنه أوتيس[1] ، وبه اسمى فى بلادى ! ولكنك وعدت أن تثيبنى على ما قدمت لك من خمر ، فماذا عساك ما تحبى ؟» فاستهزأ السيكلوب وقال : اطمئن يا صاح ! سأهب لك أن تكون آخر من آكل من أخوانك .. هذا هو جزاؤك !» وتثاءب وتثاءب ، ثم انطرح وسط قطعانه يغطِ فى نوم عميق .. وكان يصعد أنفاسه بقوة فتنقذف من بلعومه شوائب من خمر ، ممتزجة بقضمات من لحم بشرى ... ! ... وقفزنا إلى جزع الزيتون فوضعنا طرفه المحدد المبرى فى الجمر المتأجج حتى تأجج مثله ، وبكلمات قليلة أثرت النخوة فى نفوس إخوانى حتى لا تخذلهم قواهم ، ثم

(١) أوتيس Outis معناها ( لاأحد ) ولم يستحسن مترجمو هومر ترجمتها ، لانها قد تعنى ( ذو الأذنين الكبيرتين ) ولم تؤثر ترجمتها كذلك .

استعنت الآلهة فابتعثت فينا قواها السحرية ، واستجمعنا كل ما فينا من مُنّة اليأس ، ووضعنا الطرف المشتعل فى عين السيكلوب المقفلة ، وحركنا الجذع وطفقت أنا أقلبه فيها من مكال عَل ، كما يفعل السَّفان الصناع بمثقابه فى خشب السنديان ... وانبجس الدم من عين السيكلوب العمياء ، وجحظ إنسانها كأنه عين حمئة من دم وعَاز ... وقصاراى : لقد كنا كالحداد الماهر الذى يطفى سلاحا محمى فى ماء بارد !! ولقد صرخ السيكلوب[1] صرخة ردد أصداءها الكهف ... ثم رددتها الغيران والجبال المجاورة ؛ وذعرنا نحن ، فلصقنا بالشقوق والزوايا ؛ وراح الجنى الجبار يخبط فى ظلام العمى بعد إذ انتزع الجذع المشتعل من عينه ، وهرول كالجبل نحو الباب فوقف عنده ، وطفق يولول ويهتف ويصيح ، ويدعو جميع إخوانه السيكلوپس كلًّا باسمه ، فاجتمعوا إليه من كل فج عميق ... وقال قائلهم : « ماذا دهاك يا بوليفيم حتى تروعنا هكذا فى ظلام الليل وحتى تقض مضاجعنا بصراخك الفظيع ؟ هل خِفْتَ أن يستاق أحد قطعانك ، أم خشيت أن يقتلك أحد بقوة أو غدر ؟» وقال بوليفيم وهو يتصدع : آه يا أصدقائى ! إنى أموت ! ولقد قتلنى أوتيس !» فقال قائلهم : « إن كان أوتيس ـ الذى هو لا أحد ـ قد آحاق بك أذى فما صنع بك هذا إلا جوف ؟ تجلد يا صاح ، وادع أبانا نبتيون ليساعدك ، يأتك من أعماق اليم » ثم تركوه وانصرفوا لشأنهم ، وضحكت أنا فى سريرتى لأنى استطعت أن أعمى عليهم بهذا الاسم الملفق المفترى : وما برح بوليفيم يبكى ويعول ويهزه الألم والأسى ، حتى زحزح الحجر الذى يسد الباب وجلس عنده ،

---

( ١ ) يحسن أن نلفت نظر القارىء إلى طبيعة السيكلوب وأنه لا يملك إلا عينا واحدة .

ماداً ذراعيه ليمنع أحداً منا أن يفلت أو أن يذهب بعض أنعامه . . . إنه يحسبنا بلهاء مثله !!. وجلسنا نعمل الفكرة بعد الفكرة ، ونرسم الخطط تلو الخطط لنجاتنا . . حتى تاحت لى فكرة حسنة ، أيقنت أنها تفلتنا من هذا السجن السحيق إن كان شيء مستطيعاً أن ينطلق سراحنا منه ؛ لقد فكرت وفكرت ، فبدا لى أن لدى السيكلوب كباشاً كنازاً تستطيع أن تحملنا إذا رُبط كل منا تحت بطن واحد منه ، لقد كانت الكباش سمينة حقاً ، ذات فراء كثة وقوة كبيرة فقمت من فورى فجدلت من أغصان الصفصاف التى كان السيكلوب الشنيع ينام فوقها ، وجعلت من كل ثلاثة حبلا واحدا ، ثم ربطت كل رجل تحت بطن كبش كبير قوى جعلته بين كبشين لا يحملان أحداً ، بل يكونان وقاية للكبش الذى يحمل رجلا بينهما . . أما أنا فتعلقت بصوف الكبش الأخير ، وبقيت ساكناً صامتاً ، ومكثنا هكذا ننتظر الفجر المقدس الرهيب ، بعيون واكفة وقلوب واجفة . . . حتى بزغت أورورا فهرولت الذكران كعادتها للمرعى ، وبقيت الإناث لكى تحلب ، وتهادت الكباش بالأثقال المعلقة تحتها وهى تكاد تنوء بها ، وكان السيكلوب لا يزال يعول ويشكو بثه إلى غير سميع ، وكان يلمس بيديه ظهور الكباش وهو لا يدرى ما تحتها ، حتى إذا برز كبشى ، زلزلت زلزالا وسمعته يقول وهو يتحسسه : « يا كبشى الحبيب مالك استأنيت هكذا وكنت دائما سباقاً إلى المرعى على رأس القطيع تقضم الكلأ الحلو . . سباقاً إلى الغدير ذى الخرير تنهل من مائه السلسبيل ؟ بل كنت سباقاً كذلك إلى مأواك هنا . . فى كل مساء ؛ ويحك ويحك يا كبشى الحبيب ! لقد أسيت لى وحزنت من أجلى ، وشعرت بما دهى صاحبك من التعس الرجيم

أوتيس ، وأتباعه اللؤماء المفلوكين .. أوتيس الذى سحرنى بخمره .. ويل له ؟ إنه لن يُفْلت من الموت اليوم ! آه لو كان قلبك مثل قلبى ، وآه لو كان لى بصرك الحديد فيدلنى أين اختبأ أوتيس التيس ! إذن كنت أحطم رأسه فوق هذا الصخر ، أوتيس الوغد .. الذى اسمه لا أحد !! فهو لا يساوى شيئاً ؟» .

ثم أفلته المغفل فانطلق الكبش فى إثر رفاقه ، حتى إذا كنا بعيدين من الكهف ومن صاحبه قفزت من مكمنى وعدوت فأطلقت سراح ، رفاق ، وسقنا نخبة من أحسن النعاج إلى حيث سفينتنا المختبئة فى الجون الهادىء .... فى ظلال الحور والسنديان ... وأبحرنا من فورنا فوصلنا إلى .. إخواننا فى الجزيرة الأخرى ، الذين هنأونا بقدر ما ذرفوا الدموع على ضحايا بوليفيم !! واعتزمنا الإبحار فاستعد كل فى سفينته ، وأقلعنا لا نلوى على شىء . حتى إذا كنا على مبلغ الصوت من الشاطىء ، نهضت وجعلت أهتف بالسكلوب بوليفيم هكذا : « بوليفيم ! لقد بؤت بما صنعت يداك ، وكان جزاؤك وفاقاً ، أيها النذل الخسيس ! لقد حسبت أنك تغتال رجال قائد لا سلطان له عليك ، ولا قدرة له على الانتقام منك ، فرحت تغتذى كالوحش بلحم ضيوفك الذين لجأوا إليك وتفيأوا ظلك .. فاهنأ الآن أيها الغولة بما حل بك ! » .. وما كدت أصمت حتى ثار ثائره وغلت مراجله ، وانتزع صخراً كبيراً من شعاف الجبل ، وقذف به فى قوة وعنفوان ناحية الصوت ، فهوى الصخر على مقربة منا ، وكاد يهشم سكان السفينة ؛ وقد أنفرج البحر ، وانشطرت أمواجه ، وارتدت السفينة نحو الشاطىء حتى لكادت أن تغوص فى رماله وتتحطم على أواذيه ، لولا أن

أمسكت بالسارية الكبرى وجعلت أدفع وأدفع حتى عادت السفينة إلى مكانها فى البحر . . . وابتعدنا قليلا . . . وجاهد رجالى بمجاديفهم حتى كنا على مسافة هى ضعف المسافة الأولى . . . وهنا ، حاولت أن أصيح بالسيكلوب مرة أخرى ، غير أن إخوانى حالوا بينى وبين ذلك وسمعت بعضهم يقول : « ويك أوديسيوس ! لم تهيج الجنى بكلماتك ، وقد كاد الحجر الذى قذفه إلينا يودى بنا جميعاً ويحطم سفينتنا على الشاطىء ؟ أما لحمد الآلهة التى أنقذتنا من ساعديه الجبارتين ، وهو لو سمع ركزاً من أحدنا لهشمناجميعاً قبل أن نغادر غاره ؟» على أننى ما أصخت لهم ، بل هتفت بالمارد الجبار أقول : « أيها السيكلوب الطاغى ! إذا سألك أحد عن عماك فقل له أعمانى أوديسيوس ابن ليرتيس الإيثاكى !» وتأوه المارد حتى كاد يتصدع وقال : « ويلى منك ! لقد صدقت النبوءة ، وتحقق ما قال تلموس يوريميد النبى الذى شب بيننا وطالما تحدث إلينا معشر السيكلوبس عما خبأ القضاء فى صحف الغيب لنا ؛ لقد قال لى إنى سأفقد بصرى على يد رجل من البشر يدعى أوديسيوس ، فظللت أنتظره ، وكنت أحسبه مخلوقا طويلا عظيم الجسم بادى القوة . . . فإذا هو أنت أيها القزم - اللا شىء - الذى قهرتنى أولا بالخمر ثم أذهبت بصرى وأطفأت النور من عينى ! أوه . . . ولكن . . . عد إلى يا أوديسيوس وحل على ضيفاً من جديد ، أكرم مثواك . . وأصل من أجلك لأبى . . . نبتيون . . الفخور بى ، أن يمهد لك البحر ، ويطامن من تحتك الموج حتى تصل إلى بلادك سالما . . . إنه وحده هو اللطيف بى ، وليست قوة فى الوجود غيره تستطيع أن تشفينى وترد على بصرى !» فقلت له : « بنفسى لو استطعت فقذفت بك من حالق إلى

قرار جهنم فلا يقدر أحد على رد بصرك إليك ـ حتى ولا أبوك هذا !!» .

وغيظ السيكلوب وحنق ، ورفع كفيه إلى السماء يصلى لأبيه هكذا : « أبتاه نبتيون المحيط بالأرض اسمع دعائى ، يا صاحب الشعر اللازوردى ، إذا كنت حقا أبى ، وإذا كنت حقاً تفخر ببنوتى فاحرم هذا القزم المدعو أوديسيوس بن ليرتيس الإيثاكى من العود إلى بلاده ، إلا أن يكون هذا قضاء فى الأزل فأقم العقاب فى طريقه ، وشرده طويلا فى البحر ، وأغرق سفائنه ، وأقبر فى الأعماق أصحابه ، وأحوجه إلى ذل السؤال وطلب المعونة من الناس ليمدوه بمركب يعود عليه ؛ وإذا عاد فليلق الهم والغم مقيمين ببابه . . . آمين !» ولبى نبتيون ، ورفع السيكلوب حجراً أضخم من الأول ، وجعل يهوم به بكلتا يديه ، ثم قذفه قذفة هائلة ، فذهب يرنق فوقنا ، وسقط وراءنا بمقربة من السكان ، فانشطر البحر فرقين كل فرق كالطود العظيم ، ثم انحسر الماء فجرت السفينة إلى الشاطىء مرة أخرى ، ولكنها هذه المرة أرست على الشاطىء الآخر الذى أرست عنده سفائننا الأخرى ، حيث أقام إخواننا يشهدون المعركة الهائلة ويجزعون . . ثم إننا نزلنا إلى البر ، وفرقنا الأنصبات من نعاج السيكلوب بيننا ، وكان من نصيبى ذلك الكبش المفدى الذى نجانى ، فذبحته على رمال الشاطىء قرباناً لجوف المتعالى . . . وأسفاه ! إن أكبر ظنى أنه لم يقبل قربانى ، لأن أكثر سفائننا أغرقت فيما بعد . . وأكلنا هنيئاً ، وشربنا الخمر المعتقة ، وانتظرنا مد البحر ، ولكنه استأنى علينا ، فنمنا حتى نضرت أوروا جبين الشرق بالورد ، ونهضنا . . ونشرنا الشراع وأصلحنا القلاع ، وأبحرنا بقلوب واجفة ، ونفوس نال منها الهلع ، لائذين بالفرار .

# أوديسيوس يروي قصته

أ ـ إيولوس وجعبة الرياح الأربع .
ب ـ فى جزيرة الجبابرة .
ج ـ غرام سيرس .

« وبلغنا جزيرة الأيوليين حيث يحكم الملك إيولوس بن هيوتاس ، حبيب الآلهة ، وهى جزيرة تلوح طافية فوق العباب بسورها النحاسى الهائل ، وأواذيها التى يتكسر فوقها الموج ،. ولقد زوج الملك أبناءه الستة من بناته الست ، وهو يقيم معهم فى قصره المنيف فى دفء وارف من حب الملكة ، فى بُلَهْنية ورغد ، وعيش واسع مُخفرج ، ونُعمى طائلة ، ولذائذ شتى ... يقضون وقتهم فى لهو برىء ومرح ، ويأوون إذا أجنهم الليل إلى سرر موضونة ، وزرابى مبثوثة ... وأرائك من حرير .

ولقد لقينا الملك بالبشر والإيناس ، وأقمنا فى كنفه شهراً كاملاً ، ناعمين طاعمين ؛ ثم سألنى فقصصت عليه قصة ( إليوم ) وكيف سقطت فى أيدينا ، وما كان من إبحار أسطول الآخيين بعد ذلك ، وما تم من رحلتنا فى ذلك العباب ، عاشين ، ضاربين على غير هدى ... ثم إنى ضرعت إليه أن يعيدنى فى خفارته إلى بلادى ، فأجاب سُؤلى ، وأمدنى بكل ما ييسر رحلتى ، ثم تفضل فمشى معى إلى البحر ، حيث قدم إلى جعبة مصنوعة من جلد عجل كبير جسيم ، خيل إلىّ أنه ذبح فى سن التاسعة ، وهى جعبة من صنع جوف سيد الأولمب ، حبس فيها عظيم الآلهة رياح العالم أجمع ، وأحكم رباطها بسلك فضى متين ، حتى لا يفلت منها نفس واحد إلا بإذن ... وانطلق الملك بعد أن أمر زفيروس ـ رب النسيم

الحلو - فملأ شراعنا ، وهب بين أيدينا ... واأسفاه ! لقد كانت هباته اللطيفة الرخية عبثاً ، وضاعت فى غفلة من رجالى سدى ! فلقد جرت بنا الفلك آمنة مطمئنة طوال تسعة أيام بلياليها ، ثم بدت لنا شطئان إيثاكا فخفقت قلوبنا فرحا ، واستطعت أنا نفسى أن ألمح مواطنى الأعزاء يوقدون النار فى شعاف الجبال ... بَيد أنى كنت منهوكا موهوناً من كثرة العمل ووعثاء السفر ، وطول السهر والمراقبة ، فداعبت عينى سِنة من الكرى ، لأنى كنت أسهر على القيادة بنفسى طيلة الرحلة ، ولم أكن آمن أحداً من رجالى على الاضطلاع بها خشية الوَنى ، ومخافة التأخير ... وبينما كنت نائماً ، لعب الوسواس فى صدور رجالى ، زاعمين أنى أحمل أذخاراً من الذهب والفضة أسبغها علىَّ إيسولوس الملك ... قال قائلهم : « يا للآلهة ! أبداً ما وطئت قدما أودسيوس بلاد قوم حتى تهالكوا عليه فرحين معجبين مكبرين ! وهو اليوم يعود من طروادة ومعه من طُرفها وسَلَبها الجم الكثير ... أما نحن فواأسفاه علينا ! لقد شاركناه تلك الرحلة المشئومة ، وها نحن نرضى من الغنيمة بالإياب ، ونعود منها أصفار الأيدى ، لا أمامنا ولا وراءنا ! وها هو أيضاً قد فاز دوننا برفد ملك الرياح ، إيولوس العظيم ، هلموا يا رفاق ! البدار إلى هذه الجعبة ننظر ما احتوت من أصفر وأبيض ، وأعطيات وهبات ... ولُهى ! » ، وأقبل بعضهم على بعض ، وامتدت أيديهم إلى الجعبة فحلوا رباطها .. واحسرتاه ! لقد انطلقت الرياح الحبيسة ، وزمجرت العواصف الهوج من كل صوب ، وطفقت تكسحنا فى شدة وعنف ... بعيداً ... من إيثاكا ! ولقد قفزت من غفوتى خائفاً مذعوراً ... حتى لخيل لى أن طوفاناً قد

غمرنا ! . . . وظللت برهة فى ذهول ودهش ، وطغت الأحزان على قلبى ، ورانت الهموم على نفسى، وفت اليأس فى عضدى . . . ولكننى لم أجد من الصبر بداً ؛ فتحملت الكارثة فى هدوء وصمت ، وعصبت راسى بثوب شف ، وانبطحت فى قرق . . . وراحت العواصف تدفع الأسطول فى غير هوادة ، حتى بلغ شطئان الأيوليين مرة أخرى . . . وهناك بكى صحبى . . . ولات حين بكاء ! وهبطنا الشاطىء ، وكان همنا أن نرتشف من ماء إيوليا العذب رشفات ، ثم جلسنا نعد أكلة عجلى ونلتهمها ؛ وتوجهت أنا وصديق إلى قصر الملك ثانية . . . وقد كان يجلس لوليمة كبيرة هو والملكة الحسناء المصون ، وأبناؤه الغر الميامين . . . ولشد ما يدهه أن يرانا بعد طول النأى ، فحدجنا وقال : « ويك أوديسيوس فيم عدت أدراجك ؟ وأى سلطان مشئوم لوى عنانك بعد إذ أرسلناك مزوداً بخير زاد لتصل إلى بلادك ، وتلق آلك ، أو أى آل آخرين ؟! » ، وكان فؤادى يتخلع حين قلت أجيبه : « تبارك الملك ! لقد خاننى رجالى اللؤماء ، وخاننى معهم طائف من الكرى ! فإذا شاء الملك فليجبر ما انصدع منا ، وهو لايزال صاحب الحوْل والطوْل !» . . . وهكذا شاءت المقادير أن أقف ضارعاً إلى هذا الملك مرة أخرى . . . وقد تلبث أبناؤه صامتين لا ينبسون . . . وأكفهر وجه الملك وقال : « أيها الرجل انطلق . . . أغرب عن جزيرتنا هذه يا أتعس الناس ! إنطلق فوالله إنى لأستغفر الآلهة أن أكرمت مثوى رجل مثلك عدو نفسه ، ممقوت من الأرباب ، مغضوب عليه من السماء !» وهكذا طردنى الملك شر طردة ، فمضيت على وجهى ، ولقيت أصحابى ، وأبحرنا نذرع اليم المصطخب بمجاذيفنا ، ونسكب فى هذه

الأعماق المضطربة قوانا ، لا أمل لنا فى الوصول إلى بلادنا ، ولا رجاء فى الخلاص من هذه البؤوس ! ووصلنا مدينة ليستريجونيا بعد نصب ستة أيام بلياليها . . . تلك المدينة الموحشة التى بناها منالاموس العظيم . . والتى ( تغزو الحشرات مروجها نهاراً ، فيخرج الرعاة بقطعان الغنم ذات الفراء الكثة التى تحمى الحيوانات من ذبابة الماشية وتدفع عنها غائلتها ، فإذا جن الليل عادوا بأغنامهم إلى حظائرها ، وذهبوا بالنعم لترعى فى هدأة الليل ، ولتكون بمأمن من غوائل الذباب الذى يكون قد غلبه النعاس )[1] . . . وصلنا إلى هذه المدينة فألفيناها محصنة بسور عظيم من الحجر الصلد ، ينحدر قليلا قليلا إلى الميناء ، بمضيق صغير لا تعلو فيه موجة ، ولا يتحرك فيه الماء . . . وقد أدخل رجالى سفائنهم فى هذا البوغاز ، وآثرت أنا أن أظل بسفينتى عند فمه مما يلى البحر ، فألقيت مرساى ، وثبتها فى حجر كريم ، ثم وثبت إلى الشاطىء ، وتسنمت ربوة عالية ، وأخذت أجيل ناظرى فى الجزيرة . . . ولم أقف لإنس أو حيوان على أثر ، وبدت الأرض جرداء بلقعا ، بيد أن دخاناً كثيفاً كان يَصَّاعد من وسطها ، فرأيت أن أبعث باثنين من رجالى جعلت عليهم ثالثاً رئيساً ، ليعلموا لنا من أنباء الجزيرة ، وليتجسسوا أخبار أهلها . . . وقد قص هؤلاء آثار العربات التى يستعملها السكان فى نقل الأخشاب من الغابة إلى مدينتهم ؛ ولقوا عند مدخل المدينة فتاة عذراء تملأ جرتها من عين ماء هنالك ؛ فما كادوا يسألونها حتى علموا أنها ابنة الملك آنتيهاتاس ملك هذه البلدة . . . ومشت بين

---

(١) كلام هومر هنا غامض شديد الغموض ولذلك اتكلنا فى إبانته على شرح مترجمه .

أيديهم حتى كانوا فى قصر الملك ، وهناك لقيتهم امرأة هولة عظيمة الجسم ، كأنها هضبة ، فلم يجسروا أن يمدوا إليها أبصارهم بما غشيهم من الفزع وكانت هذه هى الملكة ، التى صاحت ، عندما لمحت رجالى ، بزوجها ، فأقبل يهتز وتزلزل الأرض من تحته ، وما كاد يلمح هؤلاء الغرباء حتى أمسك بواحد منهم وخبط به الأرض فحطمه ... كأنما أقبل ليخوض معمعة ...؛ وانطلق الآخران لا يلويان على شيء ؛ حتى بلغا سفائننا ... ثم زجر الملك بصوت قاصف كالرعد يدعو إليه رعاياه ، فأقبلوا إليه من كل حدب ، مردةً جبارين كالأغوال ، لا عدد لهم ، ولا تقع العين على أبشع منهم ... ثم تهاوَوْا إلى الشاطىء حيث أرست سفننا ، فجعلوا يقذفونها بحجارة من سجيل ، جعلت رجالنا كعصف مأكول ، وجعلت مراكبنا حطاماً كان يهوى إلى الأعماق ؛ بينما هؤلاء الجبابرة ينشلون قتلانا بحرابهم ليعودوا بهم إلى بيوتهم فرائس سائغة يملأون بها بطونهم ... وهكذا استمرت هذه المذبحة الدامية ... وكنت واقفاً فى مركبى ، وجرازى إلى جانبى ، فأسرعت إلى حبال المرساة فقطعتها به ، وبادر رجالى إلى مجاذيفهم فأعملوا فيها أيديهم ... وبذلك نجونا من هذا الروع برغم الحجارة الهائلة التى كانت تتطاير فوق رؤوسنا وتتهاوى عن شمائلنا وعن أيماننا ، فتشيع فى فرائصنا خطر الموت ... وظللنا نكافح الموج ونصارعه ، فرحين بنجاتنا ؛ ومع ذاك ، فقد كانت تعتلج قلوبنا هماً وأسى على إخواننا ... ثم رسونا آخر الأمر عند جزيرة إيايا ، حيث تقيم سيرس ، ربة الغناء والسحر ، ذات الشعر الكهرمانى ، أخت إيتيس

الحكيم من أبيها الشمس ، وأمها برس ابنة أوشيانوس[1] . وكأنما مشت عناية السماء بين أيدينا فرسونا فى جون هادىء ساكن فى غير جلبة ولا ضجيج ، ثم هبطنا إلى الساحل فتلبثنا فيه يومين كاملين نستجم ونستروح مما بنا من أين وجهد ، وكلنا فرائس لما فى أضالعنا من شجو وهم وشجن . ثم إنى تسلحت برمحى وسيفى وحثثت خطاى فى أسناد الجبل حتى كنت فى ذراه الشاهقة ، ووقفت ثمة أنظر وأتحسس ، فلمحت فى البّعد دخاناً يصاعد بين الدوح والزهر من قصر سيرس . وبدا لى أن أتوجه إليه من فورى عسى أن أجد عنده خيراً . ولقد ترددت بعد ذلك كثيراً وكدت أعود أدراجى إلى السفينة لأرسل نفراً من رجالى يكشفون لى الطريق إلى القصر ؛ وما كدت أخطو خطوات حتى ساق إلى أحد الآلهة ظبياً غريراً شرد من المرج المعشب الحلو ليستقى مما ألح به من ظمأ فأرسلت إليه رمحى فقصم ظهره ، وسقط يتخبط فى دمه ؛ وقطعت شيئاً من عساليج الصفصاف وجدلت منها حبالا ، وأوثقت الغزال من أياطله واحتملته على ظهرى ، ومضيت قُدمًا إلى رفاق متوكئاً فى كل خطوة على رمحى إذ لم تعد شيخوختى تستقيم لمثل هذا الحمل الكبير ! وهتفت برجالى فى مرح وظرف : « هلموا يا رفاق فلن نقضى قبل أن تحين آجالنا ! هلموا إلى ظبى فنيق وخمر عتيق ، واطرحوا ما بكم من هم وضيق . . . » وأقبلوا فرحين وشمروا عن سواعدهم وهم يستهولون من جذل هذا القنص الغريض ، وظللنا يومنا هذا نطعم ونشرب ، حتى إذا أرخى الليل سدوله انكفأنا على الشاطىء نغط فى سبات هادىء . . . وذرت أورورا ابنة الفجر الوردية فهتفت برجالى فهبوا ،

(١) لم يتعرض شراح هومر لهذه الفقرة ولذا أثبتاها كما هى .

ثم جلسنا ساعة نتشاور ، وأنا أقول لهم : أيها الرفاق ! يا إخوان الشدائد ! ها نحن أولاء قد لصقنا بهذه الأرض ولسنا ندرى أيان نذهب ؟ هل نُشرِّق ، أو نغرب ، أو نظل هنا أبد الدهر ؟! ولكن هلموا ننظر لأنفسنا مخلصاً مما نحن فيه . . . فإنى حينما تسنمت ذروة هذا الجبل أجلت الطرف فى أرجاء هذه الأرض فعرفت أنها جزيرة تترامى إلى مدى البصر ؛ ثم إنى آنست دخاناً يعلو فى الجو من وسطها ، ينبثق من سروات طوال فيها ، فَروّا لأنفسكم أثابكم الله !» ـ وكأنما سقط فى أيديهم ، وكأنما حاقت بهم ذكريات أنتيپاتاس وقومه اللستريجون ، وما لقوا من هول السُّكالب أكلة اللحم البشرى ، فبكوا ساعة من الزمان ، ثم استرجعوا حيث لا يجدى البكاء . . . ثم قسمتهم فريقين ، جعلت على أحدهما يوريلاخوس ،قِرْن الآلهة ، وجعلت نفسى على الفريق الآخر ، وجلسنا نقترع على من يذهب لارتياد الجزيرة ، فوضعنا الرقاع فى خوذتى ، ثم كانت القرعة على يوريلاخوس ، فمضى ، ولحت إمرته اثنان وعشرون من رفاقنا ، كانوا جميعاً يذرفون الدمع خوفاً وفزعاً مما وجهوا إليه ، وكنا نحن نبادلهم دمعاً بدمع وبكاء ببكاء . . . ووجدوا قصر سيرس فى بطيحة[1] منخفضة ، فماذا رأوا ؟! قصر منيف مُمرَّد تحدق به تماثيل حية من سباع وذؤبان سحرتها سيرس بعقاقيرها ذات القوى الخارقة الخفية . . . ولم تؤذهم تلك الوحوش ، بل كانت تثب على أرجلها الخلفية فى دل وتلطف ، ثم تبصبص بأذنابها كأنها كلاب السادة العظماء حينما تتملقهم فى وليمة من أجل لقيمات . . . وتسمعوا ، فإذا سيرس تتغنى بصوتها المعجب المطرب وهى

(١) الأرض المتسعة .

تعمل على نولها ، مشغولة بنسيج سابرى عبقرى عجيب ، ليس يقدر على مثله إلا الآلهة . وكان فى رجال الفريق أمير عظيم هو عندى أربطهم جاشاً فقال : « أتسمعون أيها الأصدقاء إلى هذا الغناء الحلو ترردده جنبات القصر ؟ إنه لاشك غناء ربة الدار التى تعمل على نولها ، ولست أدرى أربة خالدة هى ، أم من بنات حواء ... وعلى كل هلموا نهتف بها » . وتنادوا ، وأقبلت سيرس فهشت لهم وبشت ، وأذنت لهم أن يدخلوا ... فدخلوا ، واأسفاه ، إلا يوريلاخوس فقد خشى أن تكون ثمة مكيدة أو أحبولة . قادتهم إلى بهو كبير صفت فيه عروش فخمة من ذهب ، ما كادوا يستقرون عليها حتى أقبل الساقى بخمر وعسل ثم جىء بجبن وطعام آخر ، مخلوط بعقاقير سحرية تذهب وعى آكليها ، وتنسيهم ما سلف من أمورهم ، بل تسلبهم ذكريات أوطانهم ، ثم ضربت كلا بعصاها السحرية بعد إذ أكلوا ورووْا ،واستاقتهم إلى حظائرها حيث مسخوا فكانوا خنازير ، وإن أبق السحر على ألبابهم . أما طعامهم بعد هذا ، فقد كانوا يتناولونه من يدها مباشرة ، فكانت تطعمهم جوز البلوط والشاهبلوط والكريز الكلابى . وما إلى هذا وذاك من أكل الخنازير الخسيسة السائبة .

وأقبل يوريلاخوس ينتفض من الذعر ، وينعقد لسانه فما يكاد يبين ، ثم هدأ روعه قليلا فطفق يصعقنا بأنباء ما رأى : « أوديسيوس يا ذا المجد ! لقد ذهبنا نتحسس كما أمرتنا ، ونرود هذا الوادى الأشب ، فوجدنا قصراً مشيداً فوق أكمة عالية ، وسط بطيحة منخفضة ، ذا قبة سامقة جلست تحتها امرأة أو ربة - لا أدرى - وهى لا تفتأ تعمل على

منسج بخفةٍ وصنعة ، وترسل ألحاناً حنوناً حلوة ؛ وما كادوا يهتفون بها حتى نهضت فلقيتهم بالبشر وفتحت بابها على مصراعيه فدخلوا جميعاً - حاشاى - فقد أوجست خيفة ، ووقر فى قلبى أن ثمة شركاً نوشك أن نتردى فيه ؛ وقد راقبت رفاق إذ هم جلوس لحظة غير قصيرة ، ثم هالنى ألا أراهم فجأة !» وما كاد ينتهى حتى قفزت إلى سيفى فتسلحت به وأخذت قوسى وسهامى ، وأمرته أن ينطلق بين يدى إلى حيث ذهبوا من قبل ، ولكنه ركع أمامى وتعلق بساق وجعل يرجو ويلحف فى الرجاء ألا أذهب ... « فإنك لن تفشل فى إعادة رفاقنا فقط ، بل قد تفشل فى أن تنجو بنفسك . فانطلق بمن بقى منا ، ويا حبذا لو استطعنا الفرار ! » ولكنى أجبته أن له أن يبقى هو فيأكل ويشرب فى السفينة ، ويكون بنجوة مما فزع منه ، أما أنا ، فلم أر ضرورة لبقائى .

وانطلقت لا ألوى على شىء ، ولكنى قبل أن أبلغ البطيحة التى بها القصر ، لقينى هرمز الحبيب إله العصا السحرية . وكانت مخايل الصبا وثداوات الشباب تتدفق فى بردتيه ، وحمرة الورد تلتهب فى خديه ، لقينى فصافحنى متلطفاً وقال : « أيها التعس أيان تضطرب وحدك فى هذه الأرض ، وقد حبست سيرس من أرسلت من رجالك فى حظائرها بعد إذ سحرتهم إلى خنازير شقية ؟ هل أقبلت لتنجيهم ؟ أم جئت لتحتجزك معهم إلى الأبد ؟ ولكن اصغ إلى ؛ إنى سأحبط ما فعلت ، وسأحميك وأحفظك . خذُ هذا العقار[1] ولا يهمك بعد أن تدخل قصر سيرس فإنه

(1) واحد العقاقير .

ينقذك من كل خطر . . . وهلم أعلمك ما عندها من السحر ، إنها ستمزج لك كأساً من الشراب بما عندها من رجس ، وستضع لك منه فى طعام تقدمه لك فكل وارو ولا تبال ، فهذه البقلة العجيبة التى أعطيك ستحبط كل ما تحيك لك فلا تقدر على مسخك كمن مسخت من رفاقك . . . فإذا عالجتك بعصاها السحرية فاهجم عليها بسيفك غير هياب ، وأرسل إليها شرر الغضب من عينيك فإنها حينذاك تنقاد لك ، وتقودك إلى فراشها ، وتحتال عليك بصنعة الحب وتلطفات الهوى ، فإياك أن تنصاع لها حتى تعطيك موثقها أن تبطل ما أنزلت برفاقك من سحر وأن تترفق بك فلا تمسك بأذى ، واحذر يا صاح أن تدنس فضل خيرك بما ركب فى طبعها من شر » وانحنى رسول الآلهة فالتقط عشبة من الأرض ثم وضعها فى يدى وأخذ يكشف لى أسرارها ويقص علىّ قواها الخارقة . وذكر لى أن اسمها ( مولى ) ، وبه يدعونها فى السماء وأن الآلهة وحدهم يعرفون كيف يشفون بها رُقى السحر . . . وكانت جذورها سوداً حالكة السواد أما زهرتها فكانت بيضاء ناصعة البياض كاللبن . . . وودعنى هرمز ، ثم رف ورف ، وعرج فى السماء . وانطلقت أنا أخبط فى ظلمات من هواجسى حتى كنت لدى باب ربة السحر التى وجدتها تعمل كما ذكر لى صاحبى على نولها . . . وصيحت صيحة عالية ، فأقبلت تتهادى نحوى وفتحت مصاريع أبوابها ، ودعتنى ، فدلفت وراءها ، حتى كنا عند عرش عظيم ممرد فضى ، ذى درج ، فاستويت عليه ، وذهبت هى فمزجت لى كأساً من الخمر بشىء من عقارها ، وقدمته لى فاحتسيته ، بيد أننى لم أتغير ولم أتحول عن صورتى ، فضربتنى بعصاها السحرية وهى تقول : « هلم إلى الحظيرة حيث تقر مع

رفقائك » ولم تكد تصمت حتى وثبت من مقعدى وامتشقت سيفى ، وهجمت عليها ، وفى عينى جحيمان من نار الغضب ؛ فروعت ربة السحر ، وزلزلت زلزالا عظيما ، وجرت نحوى ، وركعت عند قدمى ، وتعلقت بساق ، وأخذت تضرع إلى وتقول فى بيان رائع وكلمات باكية : « عمرك الله من أنت ومن أين قدمت وما ديارك ؟ تكلم ! أنت يا من لم تسحرك جرعتى الهائلة التى لم يذقها أحد وظل فى صورته لحظة واحدة ! ولكنك تحمل قلباً لا تجوز عليه نفثات السحر ... هلم ... تعالَ ... إلىّ أعرفك أحسن المعرفة ... إنما أنت أوديسيوس الصناع ذو الذكر ، ولقد وصلت إلى هنا من اليوم بدورك فلم يشأ هرمز ذو العصا الذهبية أن يخبرنى بمجيئك ! ولكن اغمد سيفك ، وهلم ننعم بالعناق فوق فراشى الوثير كزوجين ، وليفرخ روعك وليهدأ بالك .. اطمئن يا أوديسيوس هلم ! » وصمتُ لحظة ثم انطلقت أجيبها : « سيرس ! كيف تتصورين أن يفرخ روعى ويهدأ بالى وقد حبست فى رحابك رفاق وشركاء رحلتى بعد إذ سحرتهم إلى خنازير أيتها الربة ؛ ثم تخشين إفلاتى فتخادعيننى وتبهرجين على بطلاسم الحب ، داعية إياى إلى فراشك لتشوهى صفاء فضيلتى برجس رذيلتك ... لا ... لا ، إنى لن أقاسمك هذا الفراش حتى تقاسمينى أغلظ الأقسام ألا تلحق بى أذى ، وألا تحاولى الإضرار بى » وراحت تحلف وتؤكد الحلف ، وتقسم وتغلظ فى القسم ، ثم إنى انطرحت فى سريرها الفخم الديباجى . وأقبلت أربع من عرائس البحر ، خطرن من اليم وأقبلن من العيون والحرج المجاور لينهضن بخدمتنا ، أما الأولى فقد أصلحت من سريرنا وطرحت عليه مطارف الخز ؛ وأما الثانية فقد صفت الموائد ورتبت

الكراسى ،و جاءت الثالثة بزق عظيم من خمر طيبة ملأت بها الكؤوس الذهبية المنضدة فوق الموائد ـ أما الرابعة فقد أعدت لى حماماً ساخناً وضمختنى بأحسن الروائح والطيوب ، حتى انتعش جسمى الخائر ، وتأرجت روحى الفاترة . . . ثم ألبستنى ثوبين غاليين من أنضر الديباج ، ومشت بين يدى إلى عرش عظيم مزدان بأحسن التصاوير ، مطعم بالذهب والفضة ، فاستويت عليه ، واضعاً قدمىَّ على درج من لباد ناعم . . . وأقبلت بعد ذلك عروس أخرى فصبت الماء على يدى من إبريق من ذهب ، فى طست من فضة ، وجاءت بمائدة حافلة بأشهى الأكال فوضعتها قدامى ، لكننى ما مددت إلى شيء من ذلك يدى ، لما كان يساورنى من الهم ، وما يشغل بالى من الانتقام ؛ فلما لحظت ذلك سيرس أقبلت تميس ، وأخذت تلاطفنى وتقول : « مالك تجلس ساكناً هكذا يا أوديسيوس ، كالذى غشى عليه ، ما تكاد تمتد يدك إلى شيء ، كأن ألف وسواس يخامرك ؟ ألا تزال تخشى مكيدة فتخاف أن تتردى فيها ؟! ألا ما أكبر غفلتك يا صاح ، إطمئن ، فلقد أعطيتك موثق وحلفت لك بأغلظ الأيمان ! » وأجبتها قائلا : « كيف تمتد يدى إلى طعام أو شراب ورفاق لا يزالون فى إسار سحرك ؟ أبداً لن أذوق شيئاً حتى ترديهم إلى صورهم ، ثم ألتقى بهم » ونهضت تحمل عصاها السحرية ، وذهبت من فورها إلى الحظائر حيث أطلقت رفاقى ، وكانوا لايزالون فى صور الخنازير ، ثم جاءت بترياق فمسحتهم به ، فعادوا إلى صورهم البشرية ، وبدوا فى أنضر شباب وأصباه ، ثم أقبلوا نحوى يلثمون يدى ، ودموع الفرح تبلل مآقيهم ، وطفقوا يصيحون ويصخبون وتردد أصداءهم جنبات القصر ،

حتى تأثرت سيرس نفسها مما رأت ، وراحت تقول : « يا ابن ليرتيس الصناع ، هلم إلى مركبك فاشددها فوق البر لتكون بمأمن من غوائل البحر ، ثم خبىء كنوزك وأذخارك فى غيران هذه الجبال ، وعد إلىَّ فى جميع رفاقك » وطربت لهذه الفكرة فهرولت إلى الشاطىء حيث لقيت رفاق الآخرين يندبوننا ويذرفون دموعهم علينا . وما إن رأونى حتى أهرعوا نحوى يرقصون ويطربون ويحيون كهذه البَهم التى تعود فى المساء إلى حظائرها فتتلقاها صغارها بالثغاء والرغاء والضوضاء . وهكذا تلقانى أولئك الرفاق . وبدلت دموع أحزانهم بعبرات المسرة ، وخيل لهم أنهم رأوا فىَّ وطنهم النائى المحبوب إيثاكا، حيث ولدوا وحيث نشأوا وترعرعوا . . . قال قائلهم : « تالله لكأنا رأينا فيك وطننا يا أوديسيوس ، وتالله لقد طفرت قلوبنا حين عدت إلينا فعادت أرواحنا إلى أبدانها . حدثنا أيها العزيز كيف هلك إخواننا فى هذا التيه » . وقلت لهم : « هلموا أولا نجر مركبنا على هذا السِّيف الهادىء ، ولنخبىء أذخارنا وسلاحنا فى غيران هذه الجبال ، ولننطلق جميعاً إلى سيرس حيث ترون جميع رفاقكم فى أَمَنَةٍ وعز وطعام وشراب ، ونعيم مقيم » . وصدعوا بما أمرتهم إلا يوريلاخوس ، فقد سُمِّرَ مكانه ، وكأنه لم يحفل بما أخبرته به ، ثم حرك شفتيه فقال : « ويح لنا نحن الأشقياء البائسين ! فيم ذهابنا نحن الآخرين إلى قصر سيرس ، وقد تمسخنا جميعاً إلى سباع أو ذؤبان أو خنازير ، ونظل إلى الأبد نحرس عرينها مرغمين ؟ لقد ذهب كثيرون منا ضحية هوس أوديسيوس وقلة بصره ، يوم حبسنا السيكلوب من أجل أطماع رئيسنا الطياش[1] ! » وأوشكت أن أضرب رأسه

(١) الطائش .

بجرازى ، فيخر إلى الأرض برغم ما يربطنى به من آصرة الوطن ووشيجة الغربة ، لولا أن هب رجالى الآخرون يصرخون ويقولون : « أوديسيوس الكريم ! لنتركه هنا ليحرس فلكنا ، أما نحن فسراحلون معك إلى قصر سيرس ، ولو كان مِلْئه الفزع الأكبر ! » وتدفقوا من السفينة على الشاطى ، وانخرط يوريلاخوس بينهم منصاعاً لنظراتى المتأججة . . . أما ما كان من سيرس حينذاك ، فإنها أدخلت رفاقى إلى حمّامها ثم ضمختهم بأحسن الطيوب ، وخلعت عليهم أفخر الملابس ؛ ولما وصلنا وجدناهم يطعمون ، فما إن رأونا حتى هبوا يعانقون صحابهم ويبكون ، ثم جلسوا يستمعون إلى قصة ما حلّ بإخوانهم ، وهم يصعدون زفرات الحزن ، ترددها قباب القصر . ونهضت سيرس فوجهت إلىّ الخطاب إذ تقول : « ابن ليرتيس العزيز هون عليك ، وليرفه رجالك عن أنفسهم ولا يستسلموا هكذا لنوبة الحزن ، ولترقأ دموعهم جميعاً . . . إنى لا أجهل ما تجشموا من أهوال فى ذاك البحر المضطرب ، وما لقوا من فوادح فى كل أرض ، بما كتب لهم فى لوح القضاء . . . ولكن ، تعالوا جميعاً . . . أنعشوا نفوسكم الخالدة بكئوس الراح ، ولتستشعروا بأسكم الذى كنتم تستشعرونه يوم غادرتم شطئان إيثاكا العزيزة . . . إنكم إن لم تتناسوا آلامكم فإنها تفت فى عضدكم وتوهى من قوتكم وتكون أبداً حلفاً لكم وإلباً عليكم ، ولا تعودون تشعرون معها بلذة العيش وبهجة الحياة ! » ، ووقعت كلماتها فى قلوبنا فأقبلنا على الطعام والمدام ؛ ثم إننا أقمنا عندها عاماً بأكمله فى أرغد عيش وأحسن حال ، متقلبين فى أرفه نعيم ؛ ثم استدار الزمان ، وهتف بنا قانون الأزل ، فدعانى رجالى إلى جلسة خارج القصر

فقالوا لى : « تذكر يا مولانا وطننا الأول ، فإننا نحن إليه ، ونتمنى لو ساقتنا المقادير إلى شطئانه » ، وكأنما نبهوا منى غافلاً ، فتلبثنا يومنا هذا على مائدة ربة السحر فى بُلَهنية وعيش مخفرج وخمر ، وأقبل الليل فأوى كل إلى فراشه ، وأويت أنا إلى سيرس فداعبتها ولاطفتها ، ثم قلت لها فى رجاء وظرف : « سيرس يا ربة ؟ حبذا لو وفيت بعهدك فأرسلتنا فوق هذا البحر رحمة بنا ، لنقضى حاجات الوطن ، ولتنقطع شكاوى صحابى التى مزقت نياط قلبى » . وقالت سيرس : « أوديسيوس العزيز ، المعروف بأصالة الرأى ورجاحة الفكر ، إنى لن أقسرك على البقاء هنا ، لا أنت ، ولا أحداً من رفاقك ، ولكنك قبل أن تفكر فى شد رحالك إلى بلادك ينبغى أن تذهب فى رحلة شاقة بعيدة المدى ... إلى هيدز[1] ... دار بلوتو[2] وبرسفونيه ... حيث تلقى النبى الصدِّيق الصالح تيرزياس ، الذى احتفظ وحده فى عالم الموتى بكل أسراره وقواه الغيبية الخارقة ، والذى يثوى فى رحاب مليكة الفناء يتنبأ لها وتستوحيه وتستشيره فيعرّف[3] لك عما يهمك ويقفك على ما ينطوى لك من صحف الغيب » وما كادت تنتهى حتى أحلولكت الدنيا فى عينى وتدفقت الهموم فى نفسى ، وأجهشت وأجهشت ، ثم استخرطت فى بكاء طويل . وما كدت أصحو من هذه النوبة حتى قلت لها : « أنى لى يا ربة أن أذهب إلى هيدز ؟ ومنذا الذى يحدون إليها ، ولم يسبقنى إليها أحد من أحياء البشر ؟» فقالت تجيبنى : يا سليل ليرتبس

(١) الدار الآخرة .

(٢) إله الموتى وزوجه .

(٣) يتكهن ـ من العرافة بالكسر .

العظيم ليفرخ روعك ، ولا يحزنك ألا يكون لك إلى هيدز من دليل . بل هلم إلى سفينتك فأصلح قلاعها وانشر شراعها وستهب الصبّا سَجْسَجاً فَتُدَهْديكم رويدا ، فإذا جزتم هذا البحر المحيط ، وبلغتم الشاطىء النز[4] الذى تنمو فوقه أشجار الحور والصفصاف الباسقة ، ثمة باسم پرسفونيه ، فادفعوا إليه بسفينتكم ثم تهاوَوْا إلى مثوى بلوتو السحيق الذى يبتدىء عند الصخرة الهائلة التى تتكسر فوق أواذيها أمواه أشيرون[5] وستيكس وكوكيتوس فاتركوا سفينتكم ثمة واحفروا عِندها حفرة ذراعا فى ذراع وصبوا فى جهتها الأولى قربانا من لبن وعسل ، وفى الثانية خمرا معتقة من أحسن ما تعصرون ، وفى الثالثة ماء قراحا ، فإذا كانت الرابعة فانثروا الدقيق فوق الجميع ، واصنعوا ذلك باسم الموتى جميعا ، ثم انذروا لهم أن تذبحوا - يوم تعودون إلى إيثاكا سالمين - عجلاً جسدا من أحسن قطعانكم : وانذروا كذلك لتيرزياس كبشا سُموريا ليس فى أغنامكم أسمن منه ولا أقوى جلادا ، فإذا فرغتم من صلاتكم ونذوركم وأدعيتكم لجميع الموتى من كل الأمم فاذبحوا فى الحال كبشا ونعجة سمورية ، على أن تكون رأسا الضحيتين تلقاء إربوس وعلى أن تشيحوا بوجوهكم تلقاء الشاطىء ، فإذا صنعتم كل هذا فسرعان ما ترون أرواح الموتى تقبل نحوكم من كل فج ، فسارعوا إلى ذبائحكم فاسلخوها وألقوا بلحومها فى النار مصلين ملبين داعين كيما تهدأ نفسا پلوتو وزوجته برسفونيه ، ولا تسمحوا لأرواح الموتى أن تقرب أضحياتكم ، وذودوهم عنها بأسيافكم حتى تلمحوا تيرزياس قادما فيلقاكم ويحدثكم

---

(٤) الذى ينز الماء مصدر استعمل صفة oozy .

(٥) تنطق الشين كافاً مشدودة وقد آثرنا الشين فى كل كتبنا لتسهيل النطق .

ويوضح لكم ما غم عليكم من سبيلكم فى هذا البحر الرجراج المتلاطم بالأمواج » وسكتت ، وانبلج الصبح ، فنهضت تصلح من أثوابها وتضفى عليها من شفوفها البيض كالندف ، وتنثر فوق رأسها تلك الغلالة الرقيقة كالثلج . أما أنا فنهضت كذلك ، واكتسيت صدارى ودثارى ثم توجهت إلى رفاق فأيقظتهم وحثثتهم على الإبحار من توّنا كما رسمت سيرس . وقد هبوا جميعا إلا فتى يافعا لم يكن له يدان فى هذه الشدائد ، بل كان كل همه فى كأس من خمر ينطرح بعدها وهو لا يعى شيئا . وكان اسمه ألينور ، وكان قد غرق فى سبات عميق فوق سطح القصر ، وقد أفزعه ما سمع من جلجلة أسلحتنا فهب من نومه مخمورا متخاذلا وساقته قدماه إلى حافة السطح فَزَلَّتاَ وسقط إلى الأرض ، ودُقَّ عُنُقه ، فسبقت روحه إلى هيدز . وقلت لأصحابى لما اكتمل جمعهم . أتظنون أنا مبحرون إلى أوطاننا !! كلا يا رفاق - فأمامنا رحلة طويلة شاقة إلى هيدز ، حيث ينبغى أن نلق تيرزياس النبى الصالح ليُعَرِّف لنا ويقفنا على صفحة مما يطوى لنا الغيب ، بهذا رسمت سيرس ، وإنا لنصيحتها لسامعون ، وخفقت قلوب إخوانى ، ونظر بعضهم إلى بعض ، ثم جلسوا يشدون شعورهم من الحسرة ، ولكنهم صدعوا أخيراً ، بعد إذ أيقنوا أن لا شىء غير هذا ينفعهم . وانقلبنا إلى البحر ، وكانوا لايزالون يذرفون دموعهم ويصعدون حسراتهم . . . وفيما نحن ذاهبون ، كانت سيرس تسوق إلى السفينة كبشاً عظيما ونعجة سّمورية . . . وإن كنا لم نرها قط ، ومنذ الذى تستطيع عيناه أن تريا ربة كريمة رائحة أو جائية إن لم تشأ هى أن تكشف عن نفسها ؟ » .

# أوديسيوس يروي قصته

## رحلة أوديسيوس إلى العالم الثانى

« وذهبنا إلى الشاطىء وأنزلنا الفلك إلى الماء ، ثم أصلحنا القلاع ونشرنا الشراع ، ووضعنا القرابين على السطح ، وذرفنا من الدموع ما شاءت لنا الهموم والآلام ... وأقلعنا ... وأرسلت سيرس بين أيدينا ريحاً رخاء كانت خير معوان لنا وخير رفيق فى سفرتنا الرهيبة هذه ، حتى لتركنا لها مقاليد الفلك ، وانْسَدَحْنا[1] فوق السطح من غير ما عمل . ولم تزل تجرى بنا طول هذا اليوم ، حتى إذا أوشكت الشمس أن توارَى بالحجاب ، وقارب الظلام أن يلقى أردانه على الكون الهادىء ، أشرفنا على تخوم البحر الأعظم ، حيث تنهض مدينة السمريين التى ينعقد من فوقها دَجْنٌ[2] كثيف وظلمات داجية ، فلا تنفذ إليها شعاعة من نور ، ولا يحيها رسول شمس هذه الدنيا العاملة الدائبة ، التى يسطع فى سماواتنا ركبها الفخم ، فهى أبداً فى ليل متصل مدلهم ، لا تنجاب عنها غواشيه . وهنا ، ألقينا مراسينا ، وأنزلنا الكبش والشاة إلى البر ، وانطلقنا فوق سيف البحر إلى حيث أمرتنا سيرس ، وتركنا يوريلاخوس بن برميد عند القربانين ، وعنيت أنا باحتفار الوهدة فجعلتها ذراعاً فى ذراع ، ثم شرعت أصب تقدمات الشراب باسم الموتى ، فبدأت بمزيج اللبن والعسل المصفى ، وأتبعته بالخمر المعتقة ؛ وثلثت بالماء القراح ؛ ثم نثرت على ذلك كله دقيق الشعير ؛ وصليت من أجل الموتى ، ونذرت

---

( ١ ) انسدح : نام وفرج بين ساقيه .

( ٢ ) السحاب المظلم .

- إن عدت إلى إيثاكا - أن أضحى لهم بعجل جَسَد ذى خوار يكون أسمن وأقوى ما فى قطعانى ، أذبحه وأُحرقه فى نار مجللة بكل ما يشوق الأشباح من أرواح وطيوب .. وخصصت الكاهن الطيبى ( تيرزياس ) فنذرت أن أضحى له بأحسن كباشى وأعظمها مُنة ثم شمرت عن ساعدى ، وذبحت القربانين فتدفق الدم فى الوهدة .. وهنا .. أهرعت الأشباح من كل فج ، وأقبلت مهطعة كأسراب الدَّبَى[1] ... ياللآلهة !! هنا ، زرافات لعذارى جرعن كأس الحمام فى ميعة الصبا ؛ وهنا ، جموع الشباب اليانع كأفواف الزهر غالهم عادى الردى ؛ وثمة ؛ عرائس سادرات تسربلن سواد الحزن ، فجأتهن المنايا ليلة الزفاف ؛ وهناك ، أطفال كأكمام الورد لما تفتح قطفتهم أيدى المنون ؛ وعن كثب ، وقفت كواكب المحاربين الذين لطخوا بالدماء وجه البسيطة ... والآباء والأمهات والأجداد ... أقبلوا يتدافعون نحو الوهدة صائحين صاخبين ، قاذفين فى قلوبنا الرعب .. ثم هتفت برجالى فشرعوا يحرقون القرابين ويصلون لرب هذه الدار - بلوتو - ولزوجه ،ورحت أنا أذود الأشباح الهائمة عن دم الضحايا بسيفى أضرب به هنا وهنا ، حتى لمحت روح رفيقى ألينور[2] الذى تركناه فى أرض سيرس دون أن نقيم له شعائر الموت لما كنا بسبيله من هموم ... لمحت روح رفيقى فتصدعت ، ثم ذرفت عبرات وعبرات ، وكلمته قائلا : « ألينور ! يا صديقى ! كيف وصلت إلى ظلمات هذه الدار الآخرة فى مثل هذه السرعة ولم تحملنا إليها سفينتنا إلا بعد لأى »

---

( ١ ) الجراد .

( ٢ ) الثمل الذى سقط من السطح فدق عنقه ( الفصل السابق ).

عمرك الله هل سبحت فى الهواء ؟ أم طويت إليها السرحب مناشياً ؟»
وانهمرت من عينيه دموع ودموع . ثم قال يجيبنى : يا ابن ليرتيس النبيل ، المعروف فى العالمين بالحكمة ودقة الفهم ، لقد أودى بى السكر فسقطت من سطح سيرس فدق عنقى ، وأسرعت من ثمة على دَرَج الظلمات إلى هيدز . . . على أننى أستحلفك بكل عزيز عليك ، بينلوب ، بالنار المقدسة التى تتأجج عن قبسها حياتك ، بولدك الأوحد تليماك أن تجمع ما تبقى من سلاحى وعتادى إذا عدت إلى سيرس ، وإنك إليها لعائد حين ترجع أدراجك من عالم هيدز ، وأن تحرق جثمانى فى نيران هذا العتاد ، ثم تصلى لى ، وتضرع إلى الآلهة من أجلى حتى أقر هنا ، وتهدأ فى تلك الظلمات روحى ، وأن تغرس فوق الكومة التى تشمل رفاتى ، مجدافى العزيز الذى عملت به فى البحر تحت إمرتك ، وفى ذرى سلطانك وقيادتك ، حتى يذكرنى فى العالم الفانى الذاكرون » ووعدته أنى فاعل . ثم ألم أزل أذود الأشباح عن الدماء المتدفقة . وفجأة لمحت بين أرواح الموتى شبح أمى ! أمى المحبوبة أنتكليا ابنة الشجاع أوتوليكوس ، التى تركتها يوم يممت شطر طروادة قوية ، غريضة الصبا يانعة الشباب . وما وقعت عينى عليها حتى أجهشت وأجهشت ، ثم انهمرت من مقلتى أحر العبرات . . . ومع ما كان يعتلج به صدرى من الأسى عليها ، فقد ذدتها عن الدماء كذلك ، وبى من الهم لتلك الفعلة ما أوهننى وأضوانى . ثم أقبل نبى طيبة وكاهنها الجليل ، يتوكأ على عصاه الذهبية ، وما كاد يحملق فى قليلا حتى عرفنى وخاطبنى يقول : « لم غادرت الدنيا الدافئة المشرقة أيهذا التعس ، وقدمت لترى هؤلاء الموتى

ولتضرب فى ظلمات هذا العالم العبوس ؟! ولكن نَحِّ هـذا السـيف قليـلا حتى أجرع من تلك الدماء ، وإنى لمحدثك حديث الصدق عما جئت من أجله » . وأغمدت سيفى ، وانحنى الكاهن فعب من الدماء مـا شـاء ، ثم قال لى : « أوديسيوس ! إنك تجتهد أن تعود أدراجـك إلى بـلادك ، غير أن طريقك إليها محفوفة بالمكاره ، ممتلئة بـالعقبات ؛ وإن لك فيهـا لعدواً لدوداً يتأثرك ، ذلك هو نبتيون الذى أسخطته بما سَمَلت عيـن ولـده السيكلوب ( بوليفيم ) على أنك واصل بعـد أهـوال جسـام إلى وطنـك ، فإنك إن كبحت جماح شهواتك ، أنت ومن معك ، فإنك واصل يوماً إلى شطئان تريناشيا ، وتكون قد أفلت من روع اليـم وأرزائـه ، فـإذا كنـت ثمة . فاحذر أن تمس قطعان رب الشمس السـائمة فى الجـزيرة بـأذى إن كنت جد حريص على العودة إلى بلادك سالماً ، مهما اقتحمـت بعـد ذلك من عُباب وعِقاب . . فإذا مسها منكم أحدٌ بأذى ، فويل لـكم جميعـاً ! إن فلكك تغوص إلى الأعماق ، ويغرق رجالك أجمعون ؛ أما أنت فتنجـو بعد جهد ، وتلتقطك سفينة عابرة وتعود بك بعد شقاء وبلاء ، وعناء أيما عناء ، إلى وطنك الذى ينتظرك فيه ألف ويل وويل ! ستجد قصرك المنيف محتلا بطغمة أشرار من عشاق زوجك الوفية لك ، يُريغون خيرك ويُذْبحُون شاءك ، ويغرون بنلوب بالعطايا والرُّشى لتختار من بينهـم بعـلاً لهـا . . . ولكنك ستنتقم منهم وتنسف لما قدموا من سوء ، وستبيد جمعهم ، فإذا تم لك النصر عليهم فانطلق من فورك إلى الشعب الذى لم ير البحـر أحـد من أهله ولـم يذق الملح أحد منهم قط ، وليـكن معـك مجـداف عــظيم يدلك عليهم فإنهم إن رأوه عجبوا من منظره ، وظنوه مذراة مما يـذرى بـه

القمح ؛ فإذا عرفتهم فاغرس المجداف فى أرضهم ، وضح لنبتيون رب البحار بعجل جسد وكبش سمين وخنزير كِناز[1] ، ثم تبتل إليه وأخبت ، وانطلق إلى وطنك وضحِّ بأحسن ما تملك من الشاء والنعم للآلهة ، وصلِّ لكل منها واخشع ، تعش آمناً غانماً ، وتمت بعد حياة هادئة موتة قريرة ناعمة بعد حكم عادل طويل ، وشيخوخة هانئة موفورة . . . هذا من أنباء الحق عرَّفتها لك » .

وقلت له : « أنا لا أكذبك يا تيرزياس فيما كشفت لى من أنباء الغيب ، ولكن جعلت فداك : إنى ألمح شبح أمى جاثماً بالقرب من الدم دون أن تتعطف بكملة واحدة على ابنها الحبيب . فمن ذا الذى يشعرها أنى - أنا ابنها الأوحد - قريب منها ! » فقال : « لا أيسر من ذلك يا بنى ! فإنك إن تركت أياً من هذه الأشباح يرشف رشفة من ذاك الدم ، فإنه يتحدث إليك بعد ، وينبئك بما تشاء » . ثم غاب شبح الكاهن فى ظلمات مملكة بلوتو ، وسمرت أنا مكانى أنتظر شبح أمى ، التى ما كادت تتذوق الدم حتى عرفتنى ، وانطلقت تكلمنى فى ترفق وحنان : أى بنى كيف أتيح لك الضرب فى دياجير هذه الدار الآخرة وأنت لا تزال حياً تدب على رجليك ؟! ألا ما أشق هذا على بنى الموتى من أهل الدار الأولى ! إن هنا أنهاراً من حميم يدور بعضها على بعض ، وقد تطغى على شطئانها بعباب حمىء ، ويحيط بها البحر الأعظم الذى لا تشق أجبالَه فُلك ، بَله قدم سائر عابر ! أواه ! لقد ذرعت البحار شرقاً ومغرباً فى رحلتك من إليوم ، أنت ومن معك ، ولما تصل إلى إيثاكا العزيزة ! »

(1) بالكسر سمين .

وسكتت قليلا ، فسألتها « الظروف القاسية وحدها يا أماه هى التى قادتنى الى مملكة بلوتو ، ليعرف لى الكاهن الصالح الطيبى تيرزياس ، ولقد تجشمت الأهوال الثقال منذ توجهت مع أجاممنون للقاء أبناء طروادة ... وهأنذا منذ ذلك اليوم لم تطأ قدماى أرض وطنى ... ولكن ... نبئينى يا أماه أية ضربة أودت بحياتك الغالية ؟ هل سفك دمك أحد ؟ أم أصماك سهم من ديانا ؟... وحدثينى كذلك عن أبى السند الشيخ ، وعن ولدى تليماك ، وحدثينى عن ملكى وعتادى ، هل غلب عليها أحد من سادات البلاد ، حين يئس الكل من عودتى ؟ وخبرى عن زوجى ، ألا تزال تعيش مع ولدى مخلصة وفية لى ، أم تزوجت من أحد أمراء هيلاس ؟!» وقال الشبح الكريم يجيبنى : حاشا يا بنى ! إنها لا تزال وفية لك ، مبقية على ذكراك ، مقيمة فى قصرك ، وأن تكن تقضى لياليها وأيامها فى حزن ممض عليك ، ودموع جارية من أجلك ، وآلام ما تنتهى لبعدك . أما أملاكك فلا تزال لك ، وما يفتأ ولدك يغلها باسمك ، وما يفتأ يغشى الولائم فى أبهة الأمراء ، ورواء الأمثال العظماء ! ولم يزل أبوك مقيما فى مزارعك ، عزوفا عن المدينة وبهرجها ، وأرائك القصور وزرابيها ، وهو يقضى أيامه يصطلى نار المدفأة فى الشتاء قابعاً على فرونه الفقيرة المتواضعة ، غارًا فى أسماله ومِزَقه ، فإذا جاء الصيف ، أو فاجاه الخريف ، اعتكف فى ناحية ، وانطرح على الهشيم المساقط من الأشجار ، وراح يعالج من الحزن عليك ، والبكاء بسببك ، ما يوهيه ويضنيه ، طوال تلك السنين السوالف ؛ وهكذا هلكت أنا الأخرى من طول التفجع عليك ، والتصدع من أجلك ، فلا ديانا أصمت فؤادى

بسهم ، ولا اعتدى عليَّ معتد . . . بل الحزن وحده يا أوديسيوس ، والوحشة والضنى ، وطول الوجد ، وذكراك فى كل حين ؛ كل أولئك يا بنى اختصر عود حياتى ، وعجّل إلىَّ مماتى !» وما كادت تفرغ من حديثها حتى أزرفْت [1] إليها أود لو ضممتها إلى صدرى ، بيد أنى فشلت مرة وأخرى وثالثة ، إذْ كانت تنفتل فى كل مرة من بين ذراعىَّ كما ينفتل الظل . أو كما يسرى الحلم ، ولم أطق على ذلك صبراً فقلت لها : « لماذا تأبين علىّ عناقك يا أماه وقد نتداوى به مما بنا من شجو ، ولو كنا هنا فى مملكة بلوتو ؟! أم يا ترى أرسلت إلى پرسفونية شبحاً يعبث بى ويتضاحك علي ؟!» قالت : « أواه يا بنى ، يا أتعس بنى الموتى ! أبداً ما حاولت ربة هيدز أن تعبث بأحد ، ولكنها طبيعة الموتى هنا ، فهم لا عضل ولا لحم ولا عظم ، ولا ماذهبت به النار بعد الموت فى الدار الأولى . . . بل هم أرواح تشبه الظلال أو الأحلام فى خفتها وسرعة انفلاتها . . . ولكن هلم فعد أدراجك إلى النور . . فلقد جاءك من الحق ما هو حسبك ». ثم هممهت حولى أشباح العذارى والأزواج من بنات هيدز ، سعين من عند برسفونيه ، فامتشقت سيفى ، وطففت أذودهن فلا يقربن الدم إلا بإذنى واحدةً بعد واحدة ، لتقص علىّ كل منهن قصة حياتها . ولقد كلمت تيرو [2] الحسناء ، كريمة المحتد ، طيبة الأعراق فذكرت لى أنها ابنة سالمون وزوجة كريتيوس بن إيولوس ـ وأن أينبوس إله السلسبيل ، أعذب أنهار الدنيا ـ قد كان مشغوفاً بها حباً ، وأنها طالما

---

( ١ ) أسرعت .

( ٢ ) لم نشأ أن نغفل أحاديث أوديسيوس مع بنات هيدز كما فعل بعض مترجمى هومر . بل آثرنا إثباتها كما هى ، ونحن نحل القارىء عن الملام لأن الأوديسة أعلى من أن نمل .

كانت تغشى شطئانه النُضر ، وخمائله الخضر من أجل ذلك .وأنها كانت يوماً تلعب هناك ، فإذا شبح جميل كأنه شبح حبيبها يظهر فجأة ثم يأخذها بين ذراعيه ، ثم يعلو طوفان من اليم فيطويهما معا ؛ ثم تفيق فترى نفسها بين ذراعى نبتيون الجبار رب البحار الذى يشاكيها غرامه هو الآخر ، ويبثها حبه ، ولاعج قلبه ، ثم يهوى بها إلى أعماق مملكته السحيقة ، ويعاشرها كزوجة ، ثم يرسلها بعد أن يوصيها بولديه التوأمين منهـا ، ثمـرة الحب السرمدى المقدس . . ويغوص فى اليم . وتعـود هـى إلى بلـدها فتضـع ولديها العظيمين - وزيرى جوف الأكبر - بلياس ونليوس - ويشـب بليـاس ويضرب فى الأرض ، فينتهى إلى مروج إيـاؤلخوس ويـرعى ثمـة بهمـه وقطعانه ؛ أما نليوس فيسكن البلقـع الجـدب مـن أرض پيســاوس . . . وتتزوج كريتيوس بعد ذلك كله ، فتنجب منه أبناءها الثـلاثة الآخـرين[٢] ، ذوى الشهرة والمجد ، ثم كلمت انتيوب ابنة آسوب التى راحت تفخر بما كان بينها وبين جوف - كبير آلهة الأولمب - من هوى وصبابة وحب ، وأنها أنجبت له ولديه العظيمين أمفيـون وزيتـوس منشىء طيبـة العـظيمة ذات القلاع والتلاع والأبواب السبع . . ولقيـت بعـدهـا ألـكمينة ابنـة أمفتريون حبيبة جوف ، وأم هرقل الحديدى الجبار . . ولقـد ذكرت لى أنها تزوجت من كريون بعد ، فأنجبت له ابنتـه ميجـارا ، زوجـة ابـن أمفتريون . . ،، . . . ولقيـت الحسـناء أپيـكاس أم أديپـوس الملك التاعس ، الذى تزوجها وهو لايدرى أنه تزوج امه بعد أن ذبح أباه ، فصبت عليه السماء عذابها ، وذهب على وجهه فى الأرض حيـران ، أمـا أمـه

---

( ٢ ) حذفنا هنا الأسماء مؤقتا .

فقد سبقت روحها إلى هيدز بعد إذ شنقت نفسها فى سقف بيتها ، تاركة ولدها لربات العذاب يسمنه الخسف ويجرعنه الأوصاب ... ولقيت الغادة الحُسّان خلوزيوس التى هام بها نليوس ونثر تحت قدميها هداياه ، فأسلست له ورزق منها أبناءه الثلاثة نسطور وخروم وبركل ، الميامين ذوى المجد ... ثم كلمتنى ليدا زوجة تندار ، أم كاستور الصنديد وبوللكس الملاكم العتيد ، إنهما ينعمان بنعمة زيوس أبى الآلهة ، فهما يتبادلان الموت والحياة ، سنةً فسنة ، وفاء منهما ومحبة وإعزازاً ... ، ... ثم رأيت إفيمديا الحبيبة التى فخرت بهيام نبتيون والتى أنجبت له طفليه الجميلين أتوس وإفالث اللذين بزا بجمالهما كل من دب على وجه الأرض ، باستثناء أوريون .. يالهما من طفلين !! لقد شبا نيران الحرب على آلهة السماء وحاولا رفع جبل أوسا إلى قمة الأولمب فجعلا بليون على أوسا ركاما ، وقد أوشكا أن يفلحا لولا أن ذبحهما زيوس وولده أبوللو ليكونا عبرة لغيرهما .. فيا للموت ! هذا المعتدى على شبابهما الغض ، فأذبل الخدود وأذوى الورود !

ورأيت بعد ذلك فيدرا ، ولقيت أريادن المفتان وبروسيز اللعوب ، أما أريادن فقد خلها ثيذيوس من كريت إلى فراديس أثينا .... ولكن واأسفاه ! إنها ما تمتعت ثمة لا قليلا ولا كثيرا ، فقد أصمتها ديانا الغادرة بسهامها ، وشهد فعلتها المنكرة باخوس العظيم .. فى ديا .

ورأيت ميرا .. وكليمنيه .. وإريفيل التاعسة التى قبلت أن تنال ثمن

روح زوجها من الذهب .

والآن !! وقد أوشك الليل أن يلقى علينا طيلسانه فما أحسبنى أستطيع أن أحصى زوجات الأبطال العظام وبناتهم اللائى لقيت فى هيدز ، فارجو لو أمر الملك فانطلقت لأستريح فى سفينتى ... أو هنـا إن أذن .. وكلى ثقة فيكم ، وإيمان بالآلهة ، أنكم ستدبرون أمـر إبحـارى إلى وطنى حتى الصباح ...

* *

وسكت أوديسيوس ، وصمت الجمع المحتشد فى الردهة الملكية فكأن على رؤوسهم الطير من روعة ما حدث ، حتى نهضت أريتـا الملكة ، ذات الذراعين العاجيتين ، فقالت : « أيها الفياشيون كيف أنتم وهـذا المهاجر النبيل الذى زادته الآلهة بسطة فى العقل والجسم ، وأضفت عليه هذا البهاء وذاك الرواء ؟ إنه ضيفى ، بيد أنكم تشركوننى فى ضيافته والاحتفاء بـه ، فخليق بكم ألا تسرحوه على عجل كما يجب ، بل حرى بكم أن تستبقوه أياماً حتى تخلعوا عليه ، وتقدموا له أطرف الهدايا وأعـز اللهى ، وتفيئوا عليه مما حبتكم السماء ، فكلكم غنى جم الغناء ، ثرى واسع الثراء » . وتكلم البطل إخنيوس ، أكبر أمـراء فياشيا وأتلـدهم ذكراً فقـال : « إن مليكتكم ذات المجد والكبرياء يا أصدقاء ، لا تبدى رغبـةً فحسـبْ ، بـل هى تصدر عن إرادة عالية وأمر سنى ، فحبذا لو أصخم وصدعتم ... على أن كل شيء هو رهين بمشيئة الملك ، فلـير إذن رأيـه » . وقـال الملك : « إنى أوافق على ما رأت الملكة ، زهرة فيـاشيا وسيدة البحـار ؛ ليبـق

الضيف إلى غد إذن ، برغم ما يحدوه من الشوق إلى بلاده ، حتى أسبغ عليه ، وأدبر أمر عودته التى يُعنى بها الجميع » وكأنما صادف مقال الملك هوى فى فؤاد أوديسيوس فنهض وقال : « ألكينوس ! يا ملك فياشيا العظيم ! بودى لو بقيت هنا عاماً بأكمله ليم الملك نعمته على ، وليدبر أمر عودتى سالماً إلى أرض الوطن .. لما أجمل أن أعود بالعطايا والهدايا والنعم ، لأملأ عيون مواطنى ، ولأكسب احترامهم وأنال محبتهم بعد طول النأى وفدح البعاد » .

فأجابه الملك : « لله ما أروع ما حدثت يا أوديسيوس ! ويكأنما حدثت بلسان ساحر عليم يبهرج القصص ويوشى الأخبار ، ويروق ويزوّق ، فى زكانةٍ وفطانةٍ وحذق وترتيب ؟! أبداً ما حملت هذه الأرض ألَدَّ منك ولا ألبق فى رواية وتحديث ؛ وأبداً ما تساكبت الموسيقى والنغم الحلو من لسان كلسانك الذرب الحبيب ! ولكن ماذا عندك من أخبار الأبطال الإغريق ، الصيد الصنايد ، الذادة المذاويد ؟ حدث يا أوديسيوس ! قل ، قص علينا أخبارهم ؛ أرأيت أحداً ممن شهد معك وقائع طروادة ؟ إن الليل لا يزال فى عنفوان يا صاح ، وما بأعيننا من سنة فنأوى إلى فراشنا فى مثل تلك الساعة ؛ هلم فحدثنا ، فبنا من حديثك شغف ، وكلنا إليه شوق ، ولو حدثت حتى مطلع الفجر ، إن لم ينلْ منك وصب أو يُعيك ملال » .

وقال أوديسيوس : « بورك سيد فياشيا الملك ألكينوس ! لا يزال فى الوقت متسع للحديث وللنوم معاً ، وإن شئت حدثتك طائفة من الأحاديث عن أبطال الإغريق سواء منهم من ثوى تحت أسوار طروادة ومن أفلت من

الموت ثمة فترصدته المنايا فى أرض وطنه صبياً من كف زوجه الأثيم الـزنيم ! إليك إذن . . . وحينما هتفت برسفونيه - ربة هيدز - بـأشباح العـذارى وأرواح الحسان فتكبكبن وانثنين عـنى إلى ظلمات دار الفنـاء ، بـدا لى طيف أجاممنون - ابن أتريوس - ومن حوله كوكبةٌ من أشباح الـذين قتلـوا معـه فى داره بيد إيجستوس . . . أهرع إلى الدماء فرشف منهـا رشـفات ، ثم نهض فعرفنى ، وكأنما شاعت فيه رعدة من الـدهشة والـذعر ، وتحـدرت دموعه الحرار السخينة فوق خديه ، ثم مد إلى ذراعيه يود لو عـانقنى ولـكن . . . وأسفاه ! وهل يعانق الشبح إنسياً ؟! ونال منى الحـزن فبكيت مـن هـذا المنظر الفادح الأليم ، وقلت أكلمه فى أسلوب بائس وعبارة باكية : « ويحك يا ابن أتريوس يا ملك الدنيا العظيم ماذا جـرعك كأس المنـايا ؟ خـبرنى ! هل جرعتها فى قرار اليم مُغرقاً بيد نبتيون أم فـوق ظهـر الأرض حـين كنت تسوق قطعانك ، أم قتلت وأنت تحارب من أجـل بنـات اخـايا إذ هـن محاصرات خلف أسوار مدينتهن ؟!» فقـال يجيبـنى : « أوديسـيوس الـزعيم النبيل ، يا ابن ليرتس الحكيم أبداً ما مت مغرقاً بيـد نبتيـون ، ولا فـوق ظهر الأرض فى حومة حرب زبون ، بل ذبحنى اللئيم إيجستوس بعـد أن دبر هلكى مع زوجتى الآثمة ، حين ملق[1] لى وبالغ جهده فى الاحتفـال بى ، ثم ذبحنى كما يذبح الثور فى مذوده وكر على رجـالى فـذبحهم كما تـذبح الخنـازير لوليمة فى عرس أو فى حفل لزعيم عظيم . أوه أوديسيوس ! لا جرم أنك قـد شهدت ألف معركة ومعركة جندلت فيها أبطالاً وراء أبطال ، بيد أنها جميعاً لم تك شيئا فى ذلك الحديث الرهيب ! لقد هـوينا نتخبـط فى دمـائنا الـتى

( ١ ) ملق فلانا وملق له تودد .

ضرجت الأرض ، تحت أخاوين[2] حافلة بأطيب الآكال وأشهى الأشربات . . . ثم . . . جلجلت فى أذنى الصرخة الرهيبة ، صرخة ابنة بريام ، فكانت ما أروع وما أفدح ! لقد انبطحت على الأرض إلى جانب كاسندرا ، قتيلة بيد زوجتى كليتمنسترا . . . ومع ذاك لم أفقد الأمل يا صديق بل حاولت أن أمتشق جرازى ، لكن الخائنة انسحبت كالأفعى ، ولم تعبأ بى ، بل لم تشأ أن تغمض عينى ، أو تسند ذقنى ، فى اللحظة التى أوشكت أن أطرق فيها أبواب هيدز ؟! ويلاه ! وويلى على المرأة التى طاوعت يداها فأتت هذا المنكر ، وارتكبت إثم قتل زوجها ورفيق صباها !!

لقد حسبت حين عدت أدراجى أننى سأقابل بالأهل وبالسهل ، ومن أبنائى وأهلى وحاشيتى ، ولكنها . . الفاجرة الغادرة ، التى بزت بفجورها كل صنوف الفجور ، قد سحبت على نفسها أذيال العار والخزى ، بل هى قد سحبت أذيال العار والخزى على كل أنثى لم تر النور بعد ، وعلى كل الصالحات الطيبات من بنات جنسها » .

وسكت أجاممنون ، فقلت بدورى : « يا سماء !! ما أقسى ما قضت يد زيوس على بيت أتريوس ، منذ البدء ! كله من الأنثى دائما ! لقد قتلنا فى غير رحمة ولا رفق من أجل هيلين[1] ، وتدبر لك كليتمنسترا تلك الفعلة بينما أنت نازح بعيد عن ديارك !!» .

قال : « من أجل ذلك أوصيك ألا تلين عريكتك لامرأة قط ، وألا تجعلها موضع سرك ومحل ثقتك ، بل إن أسررت لها بشىء ، فخبِّئْ عنها

( ٢ ) أخاوين وخون وأخونه ، جمع خوان موائد الطعام .

( ١ ) التى فر بها باريس وكانت سببا فى حروب طروادة .

أشياء ، هذا وإن تكن زوجك وفية خالصة لك ، لا يخشى عليك منها رهق ، ولا غدر كهذا الغدر ، لأنها ابنة إيكاريوس وحسب ، ذات الحصافة واللب ، لقد غادرناها ولما تزل عروسا يوم غادرناها إلى اليوم ، وعلى صدرها الوفى ولدك الحبيب ، الذى شب ليحمل اسمك ، ويعلى فى الخافقين ذكرك ، والذى ينتظرك لهفان ليضمك إلى صدره يوم تعود إلى إيثاكا . . . وإنك إلى إيثاكا لعائد ، وبذا قضت الآلهة . . . أما أنا فواأسفاً على أورست ، ولدى المسكين ، الذى قتلتنى الغادرة قبل أن أتزود منه نظرة ! اسمع يا أوديسيوس ، إصغ إلىّ ، إنى سأفىء عليك من كنوز خبرتى وتجاريبى ، عليك بالسر فى أوبتك إلى وطنك . واستعن على رحلتك بالكتمان لأنه لا ثقة فى امرأة بعد اليوم[1] . . . ولكن أصدقنى بربك ، أين يأوى ولدى الآن ؟ هل يقيم فى بيلوس ؟ أم يثوى فى أرخومينوس ؟ أم هو يستذرى بذرى جدته ، أمى الحبيبة ، فى قصرها المنيف بأسبرطة ؟ إنه لا يزال حياً يرزق ، ولم يأو بعد إلى دار الظلال هيدز . . واعتذر إليه أنى لا أعلم إذا كان حياً يرزق أوأنه غدا من أشباح هيدز » وظللنا نتحدث شجون الحديث ، ونذرف الدموع على كل ذكرى حتى وافى شبح أخيل البطل ، ابن بليوس العتيد ، وفى إثره شبح تِربه بتروكلوس العظيم وبمقربة منه طيف أنتيلوخوس يتدهدى مع طيف البطل المغوار أجاكس الذى امتاز ببسطة الجسم وجبروت المظهر على الجميع ما عدا إبْن بليوس وحده . . وعرفنى شبح العدَّاء الكبير إياسيدس[2] فقال يخاطبنى فى خفة وظرف :

---

( ١ ) وهكذا عاد فاستمسك برأيه فى النساء حتى فى پنلوب .

( ٢ ) قد يكون أخيل .

« أوديسيوس يا رجل الدهاء والخُدَع أى تدبير ليست فيه تـدابيرك الماضـية وحيلك السوالف شيئاً ما ، أنى بك إلى هذه الدار ؟ أضيف أنت ؟ أم هو طيشك وقلة مبالاتك جعلاك تضرب فى دياجير هيدز ؟ هيدز الـرهيبة بيـت الأرواح والظلال والأشباح ؟» فقلت : « أخيل ! يا ابن بليوس العظيم ، يا أشجع أبناء أخايا قاطبة ، لقد سعيت إلى هنـا لألـق الـكاهن الـطيبى تيرزياس ليعرف كيف أصل إلى شطئان إيثـاكا الصـخرية ، لأنى عييـت بالزوابع والعواصف فى عرض اليم ، فما استطعت أن أصـل إلى أخـايا أو أن أرسو فى بلادى . . . إنى أغبطك يا أخيل فى أعماقى ! فلقد عشت فى هنـاء وعز ، ويجلك الناس كأحد آلهتهم ، وها أنت ذا تحكم هنـا وتنهـى وتـأمر على جميع هؤلاء الموتى ، فما أجدرك الا تأسى لأنك مت هذه الموتة فى الـدار الأولى » وأجابنى على الفور : « أوديسـيوس ذا الـذكر ، لا تخـالنّ عـزاء يخفف من وطأة الموت ! لقد كنت أوثر لو أعيش فى الـدنيا كأحقـر الأجـراء الأذلاء ، وأتبلغ بلقيمات قليلات لا تقيم أود الشـيخ الفـانى ، على أن أقيم هنا تملّكا فى جميع هذه الأشباح والتهاويل !! ولكن تعال ، هلم فحدثنى عـن ولدي الحبيب ، هل وصل ما انقطع من حياتى الحربية ، أم هجـر السيف وطلق المعمعة ؟ وحدثنى عن أبى بليوس الكريم ، ألا يـزال يتمتع بـاحترام الناس وتبجيلهم وحب الميرميدون [1] وفدائهم ، أم تجرد من الأبهة ونزل على حكـم المشيب والكبر ، والأيام التى أوهنت عـظامه ؟ أواه يـا أبتـاه ! ليس لك اليوم أخيل كان ينشر الرعب فى جنبات طـروادة ؛ أواه لـوْ وسـعنى انْ أعود إليك لحظة ، إذن لقسرت الناس على الخضـوع لك ، ولأرغمـت كل

( ١ ) جنود أخيل فى حروب طروادة .

جبار عصى على تمليقك وذل العبودية لك ، بـدل الثـورة بـك ، وقلـة الاحتفال بشيخوختك » . وقلت أجيبه : « أنا لا علم لى بما كان من أمر بليوس أبيك ، ولكنى ذاكر لك مـا تـرامى إلى مـن أخبـار ولـدك نيوبتلموس لأنى حملته على سفائنى من سكيروس إلى الجيوش الحاشدة من أخايا ، ولقـد كنا نجتمع للشـورى[2] تحت أسوار إليوم فمـا كان يتكلم إلا لماماً ، ومـا كان ينـطق عـن الهـوى إذا فعـل ، وإذا استثنينا نسطور . . . و . . . وأنا . . . فما كان أحد ينهض إلى مقامه ، أو يقارن به من جميع الأبطال الإغريق . . . وكنا نكر حول طروادة ونفر ، فما أعرف أن أحداً كان أجرأ منه كرًّا ولا أحذق فرًّا . . . ولقد جندل من أبناء طروادة الصناديد أقراناً وفرساناً حتى ما أستطيع سرّد أسمـائهم جميعـاً ، بيد أنى أذكر فيمن أذكر منهم يوريبيلوس بن تلفـوس البـطل الـذى أغـرى ( بريامُ ) نساءه بالرشى ليقنعنه بخوض غمار الحرب إلى جانب الطرواديين ، فما زلن به حتى خاضها هو وجنوده السيتيون . . . لله ما كان أجمل وما كان أروع ! أبدا ما رأيت زعيما ولا سيد قوم ، باستثناء ممنون ، أبهى منـه ولا أصبى جمالا ! وما أنس لا أنس يوم حصان إبيوس الخشبى ، يوم قمت أتخير الصناديد المذاويد من أبناء هيلاس ليكونوا معـى داخلـه ، وكنت على أن أظل عند بابه السرى لأرى فى فتحـه أو إغـلاقه مـا أرى . . . لا أنسَ ما كان من هلع أبطالنا وذعرهم وذهاب نفوسهم وتحدر دموعهم مـن هـذه المهمة رعباً وفَرَقا ؛ أما ولدك ، فيـاما كانَ أشـجع ، ويـاما كان أربـط جأشا !! إن عبرة واحدة لم تنسرق من عينيه ، بل إنه كان يحثنى ويحـرص جد الحرص على أن أختاره ، حتى إذا فعلت تقـدم متبخـتراً يجـر رمحـه

( ٢ ) يحسن بالقارىء أن يذكر أن أخيل قتل قبل سقوط طروادة .

الظمىء ، ويغلى صدره بنار الانتقام يود لو يصبها على طروادة وأبنائها جميعا !! وما إن فتحت علينا ، وأبنا منها بالغنائم والأسلاب والسبى حتى نظرت إليه قبل أن يبحر فما وجدته يشكو رَمِيَّةً ، ولا يئن من جرح ، ولا أثر فى جسمه لخدش مما تصنع الحرب ، وما تسجل فعال مارس » .

وزُهى أخيل من كثرة ما أثنيت على ولده فراح يتخايل ويدل وسط شجر البَرواق[1] . . . وكانت جموع من أشباح الموتى تملأ الرحب ، وقد جلس كلٌ أوهام على وجهه يبكى ويشكو بثه لغير سميع ، وقد رأيت بينهم شبح صديقى التيلاموفى ـ أجاكس ـ وكان يحدجنى فى الفينة بعد الفينة ، ولكنه لم يشأ أن يكلمنى !! آه ـ إنه لايزال ينقم علىّ ما شجر بينى وبينه من نزاع على عُدة أخيل ( بعد مقتله ) ، وما كان من طلب ذيتيس[2] ألا يلبس دروع ولدها سواى ، ثم ما كان من تأييد مينرفا لـلأم الـرؤوم فيما طلبت . لقـد كان انتصاراً لى ، كم كنت أوثر ألا يكون ، لأنـه كان فيما يبـدو سبب مقتـل أجاكس المغوار ، الذى لم يكن فينا من هو أشجع منه إلا أخيل نفسه . . . ولقد وجهت اليه ألين الخطاب لأفل من سورة غضبه . فقلت له : « أيها العزيز أجاكس ، يا ابن تيلامون الجيد ، أما تستطيع أن تغضى ، وأنت فى الدار الآخرة ، عما شجر بيننا بسبب هذه العدة المشئومة ؟ لعنتها الآلهة من عدة كُتبت فوقها صحيفة موتك ، فخسرنا فيـك أشـجع فـرساننا وأعـظم مقاتلينا ! إنا ما نفتأ نبكيك ونشكو رُزْأنا فيك ، ونعد فقدك كفقدنا أخيـل نفسه ! ولكن لا تثريب على أحد قط ، فجوف ، كبير الآلهة ، الـذى

---

(١) شجر كان يزرعه اليونانيون على قبور موتاهم وقد ذكره الفيروز ابادى .

(٢) أم أخيل وهى إحدى عرائس الماء .

ما ينفك يصب لعنته على جيوش آخايا ، هو الذى قضى عليك بالموت . أيها البطل هلم نحوى كيما تسمع إلى الكلم الطيب الذى أجهد أن أترضاك به ؛ لتخمد جذوة الغضب على فى نفسك ، ولنحسم ما بيننا من خصام !» بيد أنه ما حرك شفتيه ، بل لوى عنانه وانخرط فى جماهير الأشباح الهائمة وترك الرغبة الملحة المشتعلة فى صدرى شوقاً إلى تكليمه تنطفىء رويداً . . . فقلبت نظرى فى الأرواح القريبة عسى أن أعرف منها أحداً فأتحدث إليه ، فلمحت بينها مينوس سليل جوف الأكبر ، وكان يجلس على عرش ممرد للقضاء بين الموتى ، وفى يمينه صولجانه الذهبى الأمين ، ومن حوله زرفت جموع سكان هيدز ، فمنهم الواقف ومنهم الجالس ، ومنهم المنتصب يشرح للقاضى شكواه ، ويبثه بلواه ، بينما قد أهطعت الرؤوس والحبست النفوس ، وتكاكأت الموتى عند البوابات الكبيرة الهائلة تنتظر دورها . . . ثم راعنى أن أرى بين تلك الجموع أوريون الجبار يسوق قطعانه التى ذبحها بيديه فى الدار الأولى ، وهو يرعاها على أوراق البرواق . . . ورأيت فيمن رأيت تيتوس الجبار ، سليل هذه الغبراء ، وقد كان منبطحاً على الأرض بحيث يشغل فضاء تسعة أفدنة ، وعلى كل من جنبيه أفعوان هائل أرقم يتغذى بمضغ من كبده الكبير الدامى ، وينغبُ من أحشائه الغِلاظ ، جزاءً بما حاول أن يستذل .لاتونا اللعوب الطروب عشيقة جوف سيد أولمب ، التى فرت من وجهه فى بطائح بيتو إلى فراديس بانوبيوس . ثم رأيت تانتالوس فى ضعف من العذاب ! رأيته يتخبط فى عين حمئةٍ من حميم ، وقد غاص فيها إلى ذقنه ، والموج يضرب وجهه ويسفعه ، وهو مع ذلك يلهث من الظمأ ، لا يجد ما يبل به غلته ، أو يطفىء جُوَاده

وصداه ! فهو إن حنى رأسه غمرته الحَمّ ، وإذا رفع جسمه كزّت الأرض على قدميه بأمر ربها فهو فى عذاب مقيم . . . ولله أشجار الفاكهة دانية قطوفها فوق رأسه ، من رمان حلو وتفاح عطرى ، وتين معسول وزيتون ، كلما اشتهى أن يقطف ثمرة وكاد ، هبت الرياح عاتيةً فذهبت الغصون عاليةً فى السحاب !! . . . ثم رأيت سيسفوس ذا الأنياب يضنى ويشق ويتعذب ؛ يدفع أمامه حجراً جلموداً عظيما فيجعله فى رأس جبل ، حتى إذا انتهى إليه غاضت الأرض من تحته بقوة خفية فكانت بئراً عميقة ، فيهوى الحجر من عَلٍ ، فيعود المسكين إلى نَصَبه عوداً . . . على بدء ، وينحدر عرقه على جسمه العظيم ، ويتبخر من رأسه كأنما ينقذف من بركان ! . . . ثم شهدت هرقل الحديدى القوى الجبار . . . شبحه فقط ، لأنه هو قد منح بركة الآلهة وخلودها ، فهو أبداً يحضر ولائمها فى شعاف الأولمب . . شهدته يحتضن ابنة جوف الجميلة المفتان ، هيب ، ذاتَ القدمين الناصعتين ، والنعلين الذهبيتين ؛ رأيته وأشباح الموتى ترف من حوله صافاتٍ كالطير ، ثم يَقْبِضْن . . . وراعنى أن أراه عابساً كالحاً كقطعة من الظلام ، وقد حملق بعينيه فى الأرض وفى يديه قوسه وسهامه يوشك أن يرميها ، وعلى وسطه حزامه الرائع المموه بالذهب ، وقد نقشت عليه صور مئات من الدببة والذؤبان والسباع ، ينقدح الشرر من عيونها ، دائبةً فى عواء وزئير وتقاتل ونهش ، صنعةٌ معجزةٌ لم يقدر على مثلها أحد من قبلُ ولا من بعد . . . وما كاد يتبيننى حتى عرفنى ، وظل يقلب فى عينيه السادرتين ، ثم قال لى : « آه يا ابن ليرتيس النبيل ذا المجد ما أتعسك !! ما أظنك إلا معنياً ببعض المجازفات التى كنت أشغف بها فى

حياتكم الدنيا . . . ها أنت ذا تراني هنا ، في ظلمات هيدز ، عبداً رقيقاً لإله أحقر مني شأناً وأقل قدراً ، لأنني وأنا ابن جوف الأعظم ، قد كتب على أن أشق هنا لأصيل آلام الحياة ولأواءها . . . أتصدق أنه يأمرني أحياناً أن أسوق كلبه ، مع مافي هذا الأمر من سخرية وتحقير ؟ ولكني لن أنسى أني جذبته من مملكته هيدز إلى نور الحياة الدنيا بمساعدة أخي هرمز ، ومعونة مينرفا ذات العينين الزبرجديتين » ثم هام على وجهه في ظلمات مملكة بلوتو . . . ثم تلبثت أنا مكاني راجياً أن ألقى غير من لقيت من أرواح الأبطال الذين عرفتهم في الدار الأولى ، أولئك العظماء ذوي العزة والمجد . . . وكم ودت أن أرى بيرسيوس وثيذيوس سليلي الآلهة . . . بيد أن جموع الموتى الحاشدة التي أقبلت تصرخ قذفت الرعب في قلبي ، وخفت أكثر أن ترسل برسفونية ملكة هيدز ، رأس الجرجون من ظلمات هيدز فتفعل بي الأفاعيل . . . فآثرت أن أسرع إلى مركبي ، وأمرت الملاحين فأقلعوا ، وجلسوا على الظهر ، وحملنا تيار سريع عبر البحر المحيط بعد أن أعملنا المجاديف وقتاً غير طويل .



# تمام قصة أوديسيوس

## ١ - السيرينات المغنيات
## ٢ - سكيللا الهولة

« والآن ، وقد احتمَلَنَا العباب ذو الثَّبج ، وذرعنا اليم المترامى ، وعتمنا نضرب فى موج كالجبال ، فقد وصلنا بعد لأى إلى جزيرة إيايا المرجانية حيث ترتع أوورورا ابنة الفجر الوردية وتلعب ، وحيث مطلع الشمس وراء البحر المضطرب . . . وألقينا مراسينا ، وتلبثنا فوق رمال الشاطىء نرقب انبلاج الفجر ، حتى إذا لاحت تباشيره أرسلت طائفة من رجالى إلى قصر سيرس فأحضروا جثمان إلينور ( الذى خر من السطح فدق عنقه ) ثم إننا بكيناه أحر البكاء ، وجمعنا له من الحطب والخشب ما وسعنا ، وطرحناه وسط الكومة التى صنعناها من هذا الوقود ، وطرحنا معه سلاحه ، وأقمنا إلى جانبه مجدافه العظيم ؛ ثم أدينا له الشعائر الجنائزية التى أروناها بأزكى دموعنا ، وأشعلنا النيران بعد إذ أقمنا نُصُباً جليلا ، تحية وذكرى . ولم تعلم بعودتنا سيرس ؛ بيد أنها مع ذاك أقبلت فى ربرب من وصيفاتها الحسان الأتراب يتهادين نحونا ، حاملات دنَاناً من أكرم الخمر . . . ووقفت بيننا العروس الهيفاء ثم قالت : «ويحكم أيها الأشقياء كيف حَلَا لكم أن تموتوا مرتين بينما يموت جميع الناس مرة واحدة ؟ ولكن تعالوا ، هلموا إلى طعامكم ، وتحَسَّوا من هذه الخمرة لتقضوا يومكم فوق رمال الشاطىء فى شراب وآكال ، فإنكم

ضاربون فى ظلمات ذاك البحر فَجْر غد . وإنى منبئتكم عما يروعكم فى طريقكم عسى ألا تضل بكم . وياما أكثر ما تتجشمون من أهوال فى البر والبحر ! ولبينا دعوة الربة المضياف ، فأقبلنا على طعام شهى وشراب رَوى طيلة يومنا ، حتى إذا توارت ذُكاء بالحجاب ، وشملنا ظلام الليل ، تطرّح رجالى فوق الرمال النائمة ، ثم انتحين أنا وسيرس ناحية ، وجلست قبالتها ، وراحت هى تحدثنى وتقول : « أما وقد أوشكت متاعبك أن تنتهى ، فاصغ إلى ؛ إفقه ما أقوله لك وتدبره ، فهو وحى يوحى إليك من السماءُ ينفعك إذا جد بك الجد ، وأزفت حولك الآزفة . . . ستصل أول ما تصل فى رحلتك عبر هذا البحر إلى جزيرة السيرينات الشاديات اللائى يسحرن بغنائهن القلوب ، ويخلبن بجرسهن الألباب ، ويطّبين[1] كل من أوصله سوء حظه إلى جزيرتهن بحلو تطريبهن وجميل شَدْوهن حتى ليلصق بأرضهن وينسى آله وأوطانه ، ولا يخطر فى باله أن يعود إلى بلاده ليهنأ بلقاء زوجه الحبيبة وأولاده الأعزاء ، بل يجمد مكانه من الشاطىء حيث يكون بمسمع من السيرينات ، وتكون عن يمينه وعن شماله رفات الضحايا الكثيرين الذين عرجوا من قبل ليشنفوا آذانهم بغناء أولئك العذارى فجمدوا مثله ، وذهلوا عن أنفسهم حتى ذووا ، وذبلوا وضووا ، وحاق بهم الفناء ، بينما يخطر السيرينات بين شجر البرواق مَتهاديات فوق السندس الحلو الجميل . . . فأوصيك أن تُفرغ فى آذان رجالك من سائل الشمع قبيل أن تبلغ أرضهن ، فإنهم بذلك لا يسمعون شدوهن ولا يسحرون بغنائهن . أما أنت ، فلك أن تنصت إلى ذاك الغناء إن

(١) إطبى القوم فلانا خالوه وقتلوه .

شثت ؛ بيد أنه ينبغى أن يشد رجالك وثاقك فى قلع سفينتك شداً قوياً محكما ، فيربطوا ذراعيك وساقيك بأمراس وأحبال ، حتى لا يسبيك ما يُشنف أذنيك من غناء وشدو فلا ترضى إلا أن تثوى بأرض السيرينات ؛ فإذا اشتد بك الوجد من سحر ما تسمع وطلبت إلى رجالك أن يخلوا عنك لَزم أن يزيدوا فى رباطك ويحكموا وثاقك أضعاف ما فعلوا بك من قبل ... فإذا جُزْتم تلك الجزيرة وغابت مناظرها عن أبصاركم ، فلرجالك أن يطلقوا سراحك ... على أننى لا أدرى أى السبل ينبغى أن تسلكوا بعد هذا ، فهناك طريقان أحلاهما مر ، وأيسرهما عناء وضر ، وإنى واصفة لك كليهما ، وأدع لذكائك أن يختار لك ... إنكم بالغون فى سبيلكم إلى صخور هائلة ناتئة فى البحر ، تتكسر فوقها أواذيُّه ، وترتطم بجلاميدها أمواجه ، وتدافعه على أحيادها أمفِتْريت ( زوجة نبتيون ) الجبار . وقد أطلق الآلهة على هذه الصخور اسم ( إبراتيك ) وهى قِلال موحشة لا يستطيع مخلوق أن يقترب منها ، ولا يجسر الطير أن يهبط فيها ، بل طير أبينا جوف نفسه الذى يحمل إليه غذاءه الإلهىّ المقدس ، لم يجازف مرة فحط فيها يستجم من سفر ؛ لما يعلم من أنها مهلكةٍ زَلِقَةٌ . ولم ترس عندها سفينة قط إلا ارتطمت فوق نتوئها وهوت إلى القاع بما حملت ، أو ابتلعتها العواصف الهوج فغابت حيث لا يدرى أحد : ولا يعرف أحد سفينة جازت مهالك هذه الصخور إلا السفينة ( آرجو ) التى حاطتها چونو[1] برعايتها رحمة بجاسون وحناناً من لدن سيدة الأولمب ، حين أقلعت من جزيرة إيايا ، وقوام تلك الصخور

( ١ ) هى حيرا زوج زيوس كبير الآلهة .

هضبتان شامختان شاهقتان ، تمثل إحداهما صنا هُولةً ضخمة يضرب فى السماء برَوْقيه وتتراكم فوقه منذ الأزل ثقال السحاب التى لا يذيبها خريف ولا صيف ، لأن الشمس لم تنشر عليها أشعتها قط . . . ولو أن أحداً من العالمين له عشرون يداً وعشرون رجلاً ما استطاع أن يرقى عليها أبداً ، لأنها ملساء ناعمة كأنما صقلتها يدا مثال صناع .. وإن فى سندو الغربى لكهفاً سحيقاً نقر ثمة باسم إربوس[2] ، وإنى لأحذرك أن تقترب منه حين تجوز به يا أوديسيوس ، بل كن بنجوة منه ، بعيداً بقدر ما تستطيع ، أو على الأقل على مرمى سهم مراش من سفينتك إلى وصيده ؛ ذلك لأنه مأوى سكيللا المخيفة التى تدَوّى بصوتها وعوائها ويَفْرق الناس والآلهة من وجهها المكلثم القبيح ؛ وحسبك أن تعلم أن لها اثنتى عشرة قدماً كلها أمامية ، وأن لها ستة أعناق طوال ينتهى كل منها برأس كبير فظيع ، سلح بثلاثة صفوف من أنياب حداد أصلها ثابت وحشوها سم زعاف . وهى تربض فى غور كهفها السحيق ، بينما أرؤسها بارزة من فوهة الكهف تبحث فى الماء عن الدلافين وكلاب البحر ودواب الماء وجميع حيوان مملكة أمفتريت .. وليس يجسر بحار أن يفخر بأنه نجا مرة من شرها فهى تنقض كالصاعقة على السفينة العابرة وتلتقم بأفواهها الستة الجائعة ستة من بحارتها مرة واحدة تقضمهم قضما .. وتلقاء هذه الهضبة ، هضبة أخرى على مرمى سهم يد أوديسيوس ، وقد نمت فوقها تينة برية كبيرة ذات أفنان وسعاليج حانيات فوق الماء ، وتحتها عين خاربْديس الحمئة التى يغيض فيها ماء البحر كله ثم تعود فتمجه ثلاث مرات فى اليوم . ويْك أوديسيوس ! خذوا حذركم !

( ٢ ) إله الظلماء الذى تزوج من لمة ( ليله ) .

فوالله إنكم إن دنوتم منها فإنها تبتلعكم ، ولا يستطيع نبتيون نفسه بعد ذلك أن ينجيكم وإنى أرى أن تدنوا من الصخرة الأولى فتلتقم سكيللا ستة منكم ، فهو خير لكم من أن تغرقوا جميعاً » وسكتت سيرس ، وقلت أسائلها : « بحق الآلهة عليك يا ربة أن تخبرى : أما أستطيع أن أنقذ رجالى المساكين من سكيللا إذا نجونا من خاربْديس ؟» فقالت تجيبنى : « أيها التعس ، أما تفتأ تحن إلى مجازفات الحرب وخوض غمار الوغى ؟ إنه لا سلطان للآلهة نفسها على سكيللا ، وهى ليست مخلوقاً مما يجوز عليه الفناء ، بل هو غول سرمدى شديد المراس ، شكس شديد الشراسة ، لا يغالب أحداً إلا غلبه ؛ فأطلق سفينتك للريح ، ولذ منها بالفرار . وإياك أن تفكر فى التسلح لها ، فهى لابد ملتقمة ستة من رجالكم ، وإذا حاولت مدافعتها فإنك منهم !! فإذا بعدت فاضرع إلى كراتيس ، أم هذه الهولة التى هى إلى الأبد طاعون للبشر ، أن ترد كيد ابنتها عنكم فلا تتبعكم فى سبيلكم ولا تلتقم منكم أكثر مما فعلت ... وإنكم بالغون ( تريناشيا ) بعد هذا حيث ترعى الربتان الحسناوان : لمبتيا وفيتوزا ابنتا هبريون من عروس الماء نيرا ، قطعان أبيهما السبعة التى يشمل كل منها خمسين شاة ذوات صوف ناصع كالثلج ... وكل هذه الشاه يرعى ثمة باسم رب الشمس المعظم . فإذا كنتم تتشوفون لبلادكم ، وتتحرقون شوقاً إليها ، فاحذروا أن تصيبوا تلك القطعان بسوء ، فإنكم إن فعلتم غرقت بكم سفينتكم وذهب رجالك أباديد . أما أنت ، فتنجو بعد لأى وبعد نضال وأهوال ، فتصل إلى بلادك ملوماً محسوراً !» .

وتنفس الصبح الندى الرخى فذهبت تتبختر وتجرر أذيالها إلى قصرها

المنيف ، وذهبت أنا إلى الشاطىء فأيقظت رجالى ، وأمرتهم فجروا السفينة حتى استوت فى الماء ، ورفعت مراسيها ، ثم جَلس كل إلى مقعده ، وأعملوا أيديهم فى مجاذيفهم فتدافعت الفلك فى البحر ، وما هى إلى لحظة حتى أرسلت سيرس ، الربة المقدسة ، نسيما رُخاءً كان خير رفيق لنا ، إذ كفانا عناء التجديف ، فتطرحنا فى المركب ، واشتدت الريح فى غير عصف فأسرعت بنا دِرَاكا .. ثم كلمت رجالى وفى قلبى وجيب فقلت : « أيها الأصدقاء تعالوا أحدثكم عما تنبأت به سيرس لنا فى رحلتنا هذه ، فإنه سيان إن أفلتنا من العذاب أو تردينا فيه ؛ بل أردت أن أطلعكم على ما خبأته المقادير لنا لتأخذوا حذركم ، وتبرموا أمركم ، ويكون كل على نفسه وكيلا . لقد حذرتنى أن يستمع أحدكم إلى غناء السيرينات الشاديات وحلو تطريبهن ، وأجازت لى وحدى أن أصغى إليهن ؛ بيد أنها أوصتنى أن أخبركم أن تشدوا وثاقى بأمتن الأمراس فى سارية السفينة فلا تطلقوا سراحى حتى نبعد عن جزيرتهن . وكلما رجوتكم أن تحلوا عنى شددتم وثاقى أكثر فأكثر ( هذا إن أردتم أن تكون بنجوة من الهلك فى تلك الأرض الملعونة ) . وهكذا نبهت غافلهم بتحذيرى . ثم إننا انطلقنا فى اليم ، وأخذنا نقترب من جزيرة السيرينات ، وعرفت ذلك لما هدأت الريح فجأة ، ونام الموج ، وخفتت أنفاس الطبيعة ، وشمل الركود كل شىء حولنا ، كأنما مسحت يد مقدسة علوية كل هذا الوجود الرحب . ونشط الملاحون إلى مجاذيفهم فالتمع تحت بساط الماء ، ثم نشطت أنا إلى قِدْر من الشمع فعالجته بسكين ، ثم قوَّمته براحتى وتركته كى يلين قليلا فى أشعة الشمس ، ثم جعلت منه فى آذان رجالى واحداً فواحدا .. واستسلمت لهم

بعد هذا فشدوا وثاق فى شراع السفينة شداً محكما ، وجلس كل إلى مجدافه ، وانسربت الفلك فى الماء تشقه وتجرجر فيه .. وصرنا على مدى ما يبلغ الصوت من الجزيرة إلى آذاننا فاصغيت واصغيت ، وإذا السيرينيات الشاديات يتغنين هكذا :

« أوديسيوس أيها الزعيم ! يا من لهج بذكره كل لسان » .

« ألق فى جزيرتنا مراسيك يا فخر اليونان » .

« تلبّثْ عندنا أيها العزيز وشنف أذنيك بأغانينا » .

« لما من أحد جاز بجزيرتنا حتى عرج يتزود من هذا الغناء » .

« ثم يقلع أسعد ما يكون ، وأفطن ما يكون » .

« ذلك ونحن نعلم من أنباء ما أصابك كل شىء » .

« ما خضت من معمعان طروادة ، وما أصابتك الآلهة من مصيبة ، وما لقى قومك فى كل مكان .

« تعالى تعالى ... هلم نُحدثك فعندنا علم كل شىء » .

وهكذا شرع العذارى يسكبن إرنانهن الجميل فى قلبى ، وكأنما كن ينفثن فيه السحر فيصغى ويصغى وتلح عليه الرغبة فى الاصغاء ، ورحت أنا أضرع إلى قومى أن يفكوا قيودى ويطلقوا سراحى ويخلوا بينى وبين السيرينات المطربات ، فلم يسمعوا لإشاراتى ولم يستجيبوا لتوسلاتى ، بل هبَّ يوريلوخوس وبرميديس فضاعفوا أغلالى وشدوا على حبالى .. ثم بعدنا .. وظللنا نبعد ونبعد ، حتى إذا كنا حيث لا يصل إلينا من شدو السيرينات . شىء ، نهض رجال فأزالوا ما كنت قد جعلته فى آذانهم من الشمع ، ثم عمدوا إلى فأطلقوا سراحى ... وما كادوا يفعلون حتى

أبصرت فى ظلم البعد موجاً كالجبال كأنه ظلمات بعضها فوق بعض ، ودخانا كثيفاً ينعقد فى الجو ، ثم إذا بى أسمع رعداً قاصفاً يصم الآذان ! وقد ذهل رجالى عن أنفسهم ، وطارت المجاديف من أيديهم فلم تعد تجديهم نفعاً ، ووقفت السفينة كأنها الأرجوحة على أرؤس الموج ؛ وذهبت أنا أشجعهم رجلا فرجلا : « أيها الرفاق ! ها نحن نلق أولى عقباتنا ، وهى ليست على كل حال أشد هولا من مصيبتنا يوم حبسنا السكلوب فى كهفه السحيق ، وكيف احتلت لفرارنا من وجهه ؛ وسيأتى يوم نذكر تلك الشدة المفاجئة بمثل الغبطة التى نذكر بها الشدائد السوالف .. هلموا إذن فاثبتوا فى أماكنكم ، واصمدوا لهذا اللج المصطخب ، واضربوا فيه فى جلد وصبر ، عسى أن يكلأكم جوف ربكم فينجيكم منه .. وأنت أيها الربان أصغ إلى ، إنك تقبض على ناصية الحال فتحاش أن تقترب من هذا الدخان وتلك الأمواج الثائرة إبتعد ما استطعت عنها ، وخذ سبيل هذه الصخرة ، ذلك أدنى ألا تقذف بنا فى حمأة الخطر .. » وظللت أنفخ فيهم روح الصبر حتى فاءوا إلى أمرهم فاستقتلوا فى مجاهدة الأمواج استقتالا ... وتسلحت أنا بكل ما استطعت من عدة ، وجعلت فى يدى رمحين طويلين ، ووقفت أرقب سكيلاّ الهولة من بعد ، ولم أجسر أن أذكر كلمة عنها لرفاق حتى لا تفرغ أفئدتهم فرقاً فيهربوا من عملهم ويكتظوا فى بطن السفينة مخافة أن يمسهم منها أذى ... وشرعنا نعبر البوغاز ،.. ولشد ما أفزعنى أن أرى سكيللا ترمقنا وتتلمظ ، وقد انتصبت كالموت على الشاطىء القريب ، ثم أرى فى الوقت نفسه خاربْديس على الشاطىء الآخر تحشرج فى حلقها الرحب الفظيع عباب الماء ثم تمجه ، فكأنما تقذف من

جوفها ماء فاتراً يعلو فى الجو كالحميم ، ثم ينهمر وبله فى كل فج ، وتعود فيفيض فى البحر من بلعومها ، ثم تقذفه ، وهكذا دواليك .. يا للروع ، ويا للفزع الأكبر ! تالله لقد كنا ننظر ما تبدىء خاريديس وما تعيد فى جزع وفى هلع ، بينما كانت سكيللا تتوثب وتتوثب ثم ترسل أرؤوسها الستة فتلتقم ستة من رجالنا كانوا وأسفاه أشجعهم جميعاً ، وكان قلبى يتمزق حين راحوا يهتفون بى وينادوننى باسمى وأنا كالذى أسقط فى يديه ، ما أستطيع شيئا فأصنعه ، بل أنظر إلى أذرعم وأرجلهم تتقلب فى الهواء وهم يصيحون ويُعْولون ، وأنا ساكن ذاهل أقلب كفى ولا أفعل شيئاً آخر ! واحزناه !! ما كان أشبه سكيللا المتوحشة بصائد السماك الذى أطعم سناره وأرسلها من فوق صخرة تداعب السمكة المسكينة ، حتى إذا حان الحين جذبها إلى عل تترنح هنا وهناك . هكذا كانت هذه اللعينة التى جذبت إلى كهفها أشجع رجالنا وراحت تقتات بهم بين الصراخ والبكاء ، وبين التوجع والأنين ، وكلهم يمد إلى ذراعيه مستنجداً مستغيثاً فى قنوط ويأس !! أبداً ما وقعت عيناى فى جميع مخاطراتى ، على منظر أبعث للأسى ، وأمض للنفس ، وأجرح للفؤاد ، من ذلك المنظر الرهيب !

وما كدنا نفلت من سكيللا وخاريديس بعد تلك الفاجعة حتى اقتربنا من أرض الشمس ، حيث ترعى قطعان هيبريون [1] الجميلة الكثيرة ذات الفراء الناصعة .. ولقد كنت أسمع ثغاءها ورغاءها إذ أنا على ظهر سفينتى فى عرض البحر وسرعان ما ذكرت ما قاله لى الكاهن الطيبى الأعمى ، تيرزياس فى هيدز ، عن هذه القطعان ، ثم ما أنذرتنى به سيرس سيدة

(١) فى بعض المصادر أن الشمس غير هيبريون ، وفى بعضها أنها هو ، وفى بعضها أنه أحد سواس عربتها .

إيايا من وجوب الابتعاد عن هذه الجزيرة التي كانت منذ الأبد غواية البشر ، حتى قمت فى رجالى فجعلت أحذرهم وأقول : « أيها الرفاق اسمعوا : هذه هى جزيرة الشمس الهائلة التى حذرنا تيرزياس الكاهن الطيبى من الرسو بها أو الاقتراب منها . وكذلك حذرتنى منها سيرس ربة إيايا . فإن كان ما لقينا من أهوال ليس شيئاً إلى الهول الذى يحيق بنا إذا حللنا بها . فاسمعوا نصحى وسيروا بنا نذرع هذا البحر نسلم من شر مستطير ، وبلاء لا يجيرنا منه مجير » وكانوا يصغون إلى فى حيرة وذهول ، وما كدت أفرغ حتى انتصب يوريلوخوس يرد على فى جفوة وضيق : « أوديسيوس ، أيها القاسى الطاغية ، أما أوهنت كل تلك الشدائد جلدك ؟ أمخلوق أنت من حديد فما ترق وما تلين ؟ أتأبى على رجالك الموهونين المكدودين أن يرسوا بهذه الجزيرة الفيحاء المعشبة ليريغوا مما بها من آلاء ، وليطعموا من خيرها الكثير ؟ أتصرفنا عنها بنزقك وقلة بصرك لنخبط طول الليل فى هذا البحر الأجاج خبط عشواء مع ما تكون الريح عليه حينئذ من شدة وعنف ؟ خبرنا أيها الأحمق ماذا نصنع إذا عصفت بنا نكباء من الجنوب تحطم فلكنا ولا ينجينا من بطشها أحد حتى الآلهة ؟ أليس الأفضل لنا أن نرسو فى هذه الجزيرة فنقضى بها ليلنا ، حتى إذا انفلق الإصباح أقلعنا منها على هدى ؟! ».

وحبذا الملاحون ما قال ، فدار فى خلدى أن لابد مما ليس منه بد ، وأن لابد من وقوع القارعة الكبرى بنا ، فقلت فى كلمات يائسات : « لا ضير يا يوريلوخوس وليس بى من بأس أن أخضع لما ترى الجماعة ، ولكن تعالوا جميعاً فاعطونى موثقكم ألا تذبحوا شاة ولا تجزروا نعمة مما هنا

من هذه القطعان ، مهما ألح عليكم السَّغَبُ ، وأضواكم الجوع .. بل يكون حسبك ما حملتم من آكالٍ من عند سيرس » .

وأقسموا أغلظ الأقسام أن يفعلوا ، ثم يمموا بالفلك فى جون هادىء ترتفع فى وسطه نافورة رائعة ، فأرسوا ثَمَّ وتدفقوا على الشاطىء وراحوا يعدون وجبة المساء ، بيد أنهم سرعان ما نسوا مسغبتهم حين تذكروا إخوانهم الذين غالتهم سكيللا ، وراحت تتغذى بهم أمام كهفها السحيق فأخذوا يبكونهم ويذرفون عليهم دموعهم حتى غلبهم النعاس ، فناموا . . . وفى الهزيع الثالث من الليل ، حين عبرت النجوم فكانت فى كبد السماء ، ساق جوف رب السحاب الثقال ريحاً جابت البر والبحر ،
وغمرتها بماء منهمر ، ثم عقد فى الكون ظلمات فوق ظلمات يتدجى بعضها فى بعض . . . ثم أشرقت أورورا الوردية ، فنهضنا من مراقدنا ، وسحبنا الفلك إلى غار كان لبعض عرائس البحر يرقصن به أو يستروحن فيه ؛ وما كاد شملنا يجتمع ثمة حتى نهضت فى رجالى أقول : « أيها الرفاق إننا ما ينقصنا غذاء ، وما بنا من حاجة إلى أكل ، لمعنا من ذلك الشىء الكثير ، فإياكم أن تمسوا هذه القطعان بأذى ؛ وحسبكم أن تعلموا أنها ملك خالص لرب الشمس الذى يراكم أينما كنتم » وهكذا أيقظت فى نفوسهم النخوة . ثم إنا لَبِثنا فى هذه الجزيرة شهراً ما نريم عنها وما كان لنا إلى غيرها متحوَّل ؛ ذلك لأن الدَّبور[1] ظلت تهبّ من الجنوب فى صرامة وشدة ، فإذا هدأت ، لم تهدأ إلا لتهب ريح شرقية أشد منها عنفاً . لم يمسوا قطعان الجزيرة السائمة بأذى مادام لم ينفد ما كان معهم من طعام .

---

(١) ريح الجنوب ضد الصبا .

فلما تناقصت ميرتهم راحوا يتلمسون صيد البر والبحر ، أما أنا فكنت أجوس خلال الجزيرة عسى أن ألق إلهاً أضرع إليه فيجعل لنا من أمرنا مخرجاً . . . وبينما أنا أجوب الجزيرة إذا بى أبعد كثيراً عن رفاق ، فبدا لى أن أسكن إلى منعطف دافىء هادىء على سيف البحر ، فأغسل[٢] يدى مما علق بهما من قذر ، ثم جلست أصلى للآلهة ، وأدعو واحداً بعد واحد أن تهىء لنا من شدتنا مرفقاً ، ولكنها جميعاً - واأسفاه - أصمت آذانها عن دعائى ، ثم أرسلت علىّ طائفاً من الكرى . . . فنمت نوماً عميقاً . . . بينما كان يوريلوخوس التعس يوسوس إلى رفاقه فيقول : « أيها الأخلاء - أنا أخوكم فى البلاء فاسمعوا وعوا . ليس أشنع من الموت إلى النفس ، ولكن الموت جوعاً هو أشنع ألوان المنايا التى يرتجف منها الإنسان . . . هلموا . . . لنذبح من هذه الشاه والنعم ، ولنضح للآلهة أضخم ثيران الشمس ، ولننذر أن نبنى للرب المبارك هيبريون هيكلا عظيما حالما نصل سالمين إلى إيثاكا ، ولننذر أيضاً أن نجعل فى الهيكل من الطرف والتحف ما يرضى الإله ويكفر عن سيئاتنا . أما إذا آثر أن يغرق فلكنا وتظاهرت معه جميع الآلهة على ذلك ، لأننا ألحقنا أذى بعدد من قطعانه ، فإنى أول من يجاهر بقبول الموت مرة واحدة فى أعماق اليم ، على أن أموت هذا الموت البطىء جوعاً ! » وزين لهم ما قال ، فاستاقوا أسمن ما فى القطعان التى كانت ترعى العشب قريباً منهم ، ثم أطعموها أنضر أوراق الشجيرات الباسقة إذ فرغ كل ما لديهم من الشعير ، ثم صلوا للآلهة ، وجزروا الحيوانات البائسة ثم سلخوها ، وفصلوا الأفخاذ والشحم ، وقذفوا بها إلى

---

(٢) كان غسل اليدين كالوضوء عندنا شرعاً لا تصح الصلاة اليونانية بدونه .

النار تقدمة للآلهة وقربانا . . . ولم يكن معهم خمر ليتمسوا بها الشعائر القدسية ، فقذفوا فى النار بدلا منها ماء قراحاً . . . وجلسوا بعد هذا يعدون شواءهم من الحوايا[1] والكبد وما ألى ذلك مما فى جوف البهيم ؛ حتى إذا طعموا ملء بطونهم انطرحوا فى مراقدهم بينما استيقظت فجأة من سباتى ونهضت لأنطلق فى طريق صوبهم . وما كدت أشرف عليهم حتى ملأ خياشيمى قتار[2] ما فعلوا ، فوجمت وجوماً شديداً ؛ ثم أجهشت ، ثم استخرطت فى بكاء طويل وضرعت إلى الآلهة وظللت أقول : « أهكذا يا أرباب السماء تلقون علىَّ ذلك الطائف من الكرى فيفعل أصحابى ما فعلوا إذ أنا أغط فى نوم عميق ؟» . . . وطارت لمبتيا بالخبر المشئوم إلى إله الشمس فثار ثائره وطفق يصخب ويهتف بالآلهة ويقول : « يا جوف العلى ، وأنت يا آلهة السموات ! إثأرى لما فعل السفهاء من رجال أوديسيوس . لقد اجترأوا فجزروا من نعمى وشائى التى هى بهجتى وأنسى والتى أرمقها أبداً من علياء السماء ؛ فإن لم تنتقمى لى فوعزتى لأهبطن بشمسى إلى هيدز فأنير افاقها وأضفى أضوائى على الأشباح ثمة وأدع هذا العالم المشرق الجميل يضرب فى دياجير ما مثلها دياجير » . وأجابه رب السحاب الثقال فقال : « يا إله الشمس على هينتك ؛ بل ظل مشرقا على بنى الموتى الدائبين فى تلك الأرض ، وإنى مسخر صواعق على سفينتهم فى لمح البصر فتذهب بها وبهم أباديد » . . . أما من أخبرنى هذا فقد حدث به هرمز رسول الآلهة . . . ثم وقفت فيهم أنتهرهم وأنعى عليهم ،

---

(١) الأمعاء .

(٢) ريح الشواء .

ولكن ... واأسفاه ! أى انتهار وأى نعى وقد سبق السيف العذل ؟! ثم حدثت المعجزة !! وبدأت السماء تشهد آياتها فقد تحركت الجلود الملقاة على الأرض وزحفت نحونا ثم سمعنا مُضَغ اللحم الغريض سواء ما ظل منها دون أن يمس وما علق منها بالسفافيد ، وقد أرسل ثغاء وخواراً كأنها لاتزال على قيد الحياة !.. وهكذا ظل رفاقى يجزرون كل ثور حينئذ من ماشية إله الشمس ويغتذون بحواياها طوال ستة أيام ، حتى إذا كان السابع أمر جوف العاصفة فهدأت ، والبحر فتطامن ، فأهرعنا إلى الفلك فأنزلناه فى اليم ، ونشرنا الشراع ، وأقلعنا حيث لا ندرى ماذا يراد بنا !! ثم غابت الأرض عن الأنظار ، ولم يكن إلا البحر من ورائنا وأمامنا وعن شمائلنا وأيماننا ... ثم السماء من فوقنا ... ثم شرع زفيروس[1] يهب ويهب ، ويقلب اللج من حولنا ، ثم اشتد واشتد ، وصار ريحا عاصفاً هوجاء ، كسرت قلاعنا وحطمت سكاننا ، وذهبت بقلب الربان المسكين فلم يعد له صبر ولا جلد ... ثم سلّط علينا جوف صواعقه فقصمنا ، وحطم سفينتنا فترنحت أول الأمر ، ثم غاصت إلى الأعماق ، وطفونا على سطح البحر الغاضب بلا أدنى أمل فى أى شىء ، بله العودة إلى بلادنا ... ولقد كنت أرقب حطام الفلك يطفو معنا ويغوص ، حتى عنَّ لى أن أعلق بالهراب القريب منى ، فطويت عليه قطعة من الشراع الممزق وجعلته لى لماماً لصقت به ، بينما نامت الشمال لسوء حظى ، وأخذت الجنوب تهب فى عنفوان وبأس ، وتدفعنى بقسوة وقوة حتى خيل لى أنها ستنتهى بى إلى عين خاربديس الحمئة ... يا للهول ! لقد مضى على ليل أيماليل ... حتى

(١) إله الصبا .

إذا أشرقت ذكاء ، رأيتني ويا للأسف عند صخرة سكيللا ، وعلى مسافة من عين خاريديس . ولحسن حظى كانت اللعينة قد ابتلعت كل مياه الشاطىء . . . ثم دفعتني موجة من الأعماق فاستطعت أن أعلق بأحد أغصان التينة الهائلة النامية فوق صخرتها ، فبقيت لاصقاً به كالخفاش لا يمكنني أن أهبط أو أن أتسلق لعظم ما كانت الأغصان تبتعد من الأرض وتمتد من حولي ، ولأنها كانت تعرش من فوق خاريديس ، حتى كنت أرتعد من فزع وهلع عندما كنت أبصر تحتى فأرى العين الحمئة الملعونة تبتلع الموجة إثر الموجة ؛ ثم رأيت الهراب وقطعة الشراع التى كنت عالقاً بهما ينقذفان لحوها ويكونان تحتى فطربت ولو أن هذا جاء متأخراً حتى ريع قلبي ووهنت قواى ؛ وغمرنى شعور الذى انفرجت أزمته ، وكُشفت عنه غمته ، فهويت إلى الماء ، وتعلقت بهما بقبضتين مستميتتين . . . ويلاه علىّ !! أواه ! لو لحتنى سكيللا الهائلة طافياً هنالك ، إذن ما استطاع إنقاذى رب الأرباب نفسه من مخالبها وأنيابها !! ثم بقيت هكذا تسعة أيام بلياليها . . . يصرعنى البحر وأصرعه ، ويناضلنى الموج وأناضله ، حتى رثت الآلهة لحالى فساقتنى فى العاشر إلى أوجيجيا ، جزيرة عروس الماء كليبسو ، فرسوت ثمة فى ليلة ليلاء ، مظلمة طخياء . . . وقد نالنى من كرم العروس وجميل معروفها ما رد إلى قواى ، وأثابنى عما لقيت من شقوة وأرزاء . . .

ولكن لم هذا ؟ لقد سمعتم قصتى مع كليبسو من قبل ، إذ رويتها للملك ولزوجه أمس ، وإنى لأكره الحديث المعاد » .

# أوديسيوس يصل الى ايثاكا

وفرغ أوديسيوس من حديثه ، وجلس القوم فى الردهة ذات الظُّلَل مسبوهين مشدوهين من روعة ما حدث ، ومن غريب ما روى ، حتى تكلم الملك فقال : « أوديسيوس ، يا أيها العزيز ! صفا بالك وطاب حالك واستذريت من ذرى هذه القبة الشماء بركن ركين ، فلن ينالك أذى بعد اليوم ، ولن تقدر عليك الرياح الهوج فى رحلتك الآمنة إلى بلادك ، وإن يكن مثلك لا يبالى الحدثان ، ولا يأبه لصروف الزمان ، بعد إذ رضع لبانها ، وتقلب طويلا فى أحضانها . . . وإنه والله ليس أحب إلينا من أن تقيم آخر الدهر عندنا فتتحسى معنا من أكرم هذه الخمر ، وتشنف أذنيك بما يتغنى مطربنا الحبيب الإلهى ؛ وإلا ، فذاك صندوقك العزيز وفيه أذخار الهدايا وأعز اللهى ، من مطارف الديباج ، ومكنون الذهب الوهاج . . . ولكن على رسلك ، هلموا يا معشر الفياشيين فليحضر كل منكم للنازح الكريم طُرْفَةً من أبَرّ الطرَف ، وتحفةً من أجل التحف ، ولتكن ركيزةً من الذهب وأصيصاً صغيراً للزهر ؛ وليساهم الشعب فى هذا ، ذلك أدنى ألا تطيقوا ثمنها[1] » .

وصادفت مقالة الملك هوى فى قلوب السادة زعماء الفياشيين ؛ ثم نهضوا فتفرقوا إلى منازلهم يلتمسون الراحة ، وينعمون بطيب المنام ؛ ونضرت أورورا ابنة الفجر جبين المشرق بأفواف الورد فهب الزعماء العظام

---

(١) فى الأصل : إنه سيكلف الشعب بعض الضرائب لسداد الثمن ولا ندرى كيف يسيغ ملك أن يقول ذلك .

من مراقدهم ، وبادروا إلى السفينة بهداياهم التى وصف الملك . وقد كان ألكينوس نفسه ينتظرهم ثمة ؛ وكان يتناول كل هدية بيديه فيضعها موضعها الأمين تحت مقاعد المجدفين حتى تكون بنجوة من ضرر يصيبها ، أو أذى يلحق بها ، حين يكون الملاحون مشغولين فيما هم بسبيله من عمل البحر ومصارعة الموج ... حتى إذا أسلموا تذكاراتهم عادوا مع الملك إلى قصره المنيف لوليمة الوداع الفاخرة وقد قرّب إلى جوف الكبير المتعال ، رب الأرباب ورب السحاب الثقال ، بثور جسدٍ عظيم ؛ وأعدّ من فخذيه شواء شهيا أقبل عليه القوم يأكلون ويروّغون [1] ، بينما يسكب فى آذانهم غناءه ديمودوكوس مطربهم الحذق الحبيب . وان أوديسيوس يرنو بطرفه المشتاق إلى الشمس يود من أعماقه لو عجلتْ إلى خدرها ، وكان يضجره منها جريانها الوئيد ، فهو دائماً يرقب مغيبها بعينى الزارع الشقى الجوعان الذى أجهده طول النصب فى حرث حقله ، فعلق بصره بالشمس يتمنى لو هبطت فجأة فى المغرب ليلوى أعنة بهائمه إلى كوخه ، وليتبلغ هناك بلقيمات ! وما كادت تتوارى بالحجاب حتى وجه الخطاب لزعماء الفياشيين فى شخص الملك ، فقال : « مولاى الملك الجليل ألكينوس ! يا فخر شيرا وعماد الفياشيين ! تمنيتُ لو أديت الصلاة الخمرية يا مولاى وتفضلت فأذنت لى فى وداعكم ، مادمتم قد أعددتم لى الهدايا واللهى ، والأبطال الصناديد من رجالكم الملاحين ... وإنى لأضرع إلى الآلهة أن ترعانى فى رحلتى فى اليم ، وأن أصل إلى بلادى فالقى فيها آلى وعشيرتى سالمين ، كما أسأل أرباب

(١) يدسمون اللقمة .

الأولمب أن ترعاكم وأن تقر أعينكم جميعاً بذويكم ، وأن تفىء عليكم من نعمائها ، وتحفظ بلادكم من عاديات الزمان وملمات الحدثان » وسر الجميع من مقالته فهتفوا له ، ورجوا الملك أن يأذن له فى السفر ، فالتفت ألكينوس إلى مشيره وقال : « هلم يا بُنْتُون فادهق الزق واحمل الخمر إلى جميع أضيافنا ليريقوها خالصةً لوجه سيد الأولمب ، كى نتأذن لأوديسيوس بالرحيل إلى دياره » ولبىَّ المشير ، وأخذ كل كأسه ، ولم ينتظر أوديسيوس حتى يصل الندمان إلى الملكة المبجلة الوَقور ، بل هب مسرعاً وقدم إليها كأسه الهائلة ، وقال : « وداعاً يا مولاتى الملكة أحر الوداع ! وداعاً إلى آخر العمر ! وليكن عمراً موفوراً مُخفْرَجاً تقرين فيه بمولاى الملك والسادة النجب أبنائك المحبوبين وشعبك » وحَيَّا وبَيَّا ، ثم أهرع إلى المرفأ ومشير الملك يسعى بين يديه ، وثلاث من وصيفات الملكة يتهادين فى إثره ؛ أما أولاهن فكانت تحمل الثوب الديباجىّ الموشّى ؛ وأما الثانية فكانت تحمل الصندوق الثمين ذا الأذخار ؛ وحملت الثالثة مئونةً حافلةً من أشهى الأكال وأطيب الشراب ... حتى إذا كن عند السفينة ، سلمن ما حملن للملاحين الشجعان واثنين من حيث أقبلن ... واشتغل بعض البحارة بإعداد فراش وثير فى قمرة خلفية من أجل أوديسيوس ... الذى آوى إلى منامته واستغرق ثمة فى سبات لذيذ ، بينما كان الملاحون دائبين فى فك الحبار ورفع المرساة من صخور الشاطىء ، حتى إذا انتهوا توزعوا إلى مجاديفهم وأعملوا فيها أيديهم ، فهمت الفلك واحتواها الماء ، وأقلعت تشق الأمواج ، وتأخذ سبيلها فى البحر سرباً ... هذا بينما كان النائم البرىء قد استسلم لطائف من

الكرى يشبه طائف المنون .

وعمرك الله هل رأيت أربعا من صافنات الجياد تتبارى فى حلبة ، وقد أذن المؤذن فاندفعت تنهب الرحب ، وأرسلت فى الهواء أعرافها ؟ لقد كانت السفينة تتواثب على أعراف الموج مثلها ، والعباب الزاخر يصطخب من ورائها ، واللجة من بعد اللجة تجيش وتضطرب تحتها ، كأنما تتحدى اليم فى طمأنينة وثبات ، أو تسابق فى الجو البواشق البزاة !! وكيف لا ، وقد حملت رجلاً لا كالرجال ، وبطلا بز الأبطال ، وحكيما ترباً[1] للآلهة فى المكرمات وعظيم الفعال ، وقرناً ليس كمثله قرن فى يوم كريهة أو نزال ؛ لم يَغْف من قبل هذه الغفوة الناعمة التى باعدت بينه وبين ما تجشم من آلام ُحزان وأشجان . . .

وتلألأت فى الأفق الشرق نجمة الفجر الصادق ، حينما كانت الفلك قبالة الأرض الموعودة . . . ايثاكا . . . بعد إذ أتمت رحلتها الخاطفة فى جنح الليل . . . وهناك فى شاطىء المدينة ، أُنشىء مرفأ أمين باسم فورسيز رب الأعماق يُدخَل إليه بين حاجزى أمواج ممتدين على مدى الجون الجميل ، بين ذراعى الميناء ، فما تستطيع ريح أن تعبث بما فيه من سفين وقد بسقت أشجار الزيتون على الشاطىء وامتدت امتداداً هائلاً إلى كهف حريز تأوى إليه طائفة من عرائس البحار يقال لها النَّياد . وثمة ، أى فى هذا الكهف المقدس ، صفت أباريق من حجر وجرار كثيرة ، يأتى النحل فيودع فيها شهده ؛ وقامت فيه أيضاً عمد من حجرٍ يقال إن عرائس الماء تنسج عليها أثوابها العجيبة . وفيها أيضاً عيون من ماء زلال تسق ساكنيه . ويؤدى إلى

(١) الترب بالكسر اللدة أو المشبه .

الكهف طريقان عظيمان ، أحل أحدهما للناس يضربون فيه ما يشاءون أما الآخر فلا تطؤه إلا قدم إله كريم ، ويعرف بطريق الجنوب المقدس .

ويمم البحارة بفلكهم شطر الميناء ، ثم أرسوا فيه ، وجنحت السفينة بنصف حيزومها على رماله . . . وحملوا أوديسيوس الزعيم دون أن يوقظوه ، ووسدوه على فراش[1] وطأوه على الشاطىء ، ثم حملوا كل متاعه وأذخاره فجعلوها إلى جانبه خلف زيتونة ضخمة تحجبها عن أنظار المارة ، حتى لا يعبث بها عيّار إذ هو مستغرق فى نومه العميق . . . وركبوا الفلك بعد هذا وعادوا أدراجهم إلى شيرا . . . وأحس نبتيون الجبار رب البحار وعدو أوديسيوس الأكبر بما فعل الفياشيون فثار ثائره وقال يعتب على زيوس : « أيها الإله الأعظم الأبدى ، أبداً ما أحسبنى أنال نصيبى من التقديس والتبجيل بين الآلهة منذ اليوم ، مادام شعب فياشيا لم يأبهوا أن يحقرونى أو يبالوا بى ، فقد كنت عولت على ابتلاء أوديسيوس بأروع صنوف البلايا قبل أن تطأ قدمه أرض بلاده ، ولم يكن فى تصميمى أن أحول بينه وبين العودة إليها لأنك كنت قد وعدت بتمهيد السبيل لهذه العودة ، ولكنهم حملوه على فلكهم غارًا فى أحلى المنام ، ثم حملوه إلى الشاطىء الإيثاكى بما معه من العطايا والأذخار ، وطُرف النحاس ، وتحف النضار ، ومطارف الديباج ، وما حمل من كنوز لم يكن يحمل شيئاً منها حتى لو عاد بنصيبه من أسلاب طروادة ! واأسفاه ! واأسفاه » وقال يجيبه رب السحاب الثقال : « ماذا تقول يا مزلزل الشطئان والخلجان يا ذا الملكوت والجبروت ، يا أيها العظيم نبتيون ؟! لا عليك يا أخى ! لا عليك ، فإنه لن تحقرك الآلهة ولن

(١) فى نسخة أنهم حملوه بفراشه .

تستخف بك ! فإذا استخف بك ملأ ضعيف من بنى الموتى - عبادنا البشر - فما يضيرك ؟ أليس فى يديك ألف فرصة للبطش بهم والانتقام منهم ؟ أربع عليك يا نبتيون ، وصِلْ ملاذَّك ، فانك لست عبداً لأحد »

قال نبتيون : « جوف يارب السحاب إنه ليس أحب إلى من أن أبطش بهم كما أشرت ، ولكنى لا أخشى إلا تحديك لى دائماً بغير حق ، وإنى أرجو أن أعصف بسفينتهم فى دأمائى اللجىّ حتى لا يحملوا ضارباً فى البر والبحر مثل أوديسيوس مرة أخرى ، وإنى مقتف آثارهم الآن ، فضارب . فلكهم اللعين ، فاسحره فى الحال إلى طود عظيم ينهض بروقيه أمام مدينتهم حتى ليحجبها عن كل سارب فى البحر فلا يراها أحد أبدا !» فقال جوف يجيبه : « هلم يا أخى فاصنع ما بدا لك ، وافعل فعلتك التى رسمت ، وليكن ذلك حينما يقتربون من مدينتهم حتى يرى أهل شيرا ما يحل بسفينتهم لتكون لهم آية !» . وانطلق مزلزل الأعماق فى أثر الفياشيين حتى إذا كانوا قاب قوسين من الشاطىء أرسل يده تحت فلكهم فضربها ضربة هائلة أرسلتها فى الهواء وهوت بها إلى اللج ، ثم تركت مكانها جبلا عالياً أشم ، ولوى عنانه إلى أرجاء ملكه الرحب .

ووقف الفياشيون - ملوك البحار - على شاطىء البحر مسبوهين دهشين يسأل بعضهم بعضا : من ذا الذى أرسى هذا الجبل الهائل مكان سفينتهم تلقاء المدينة حتى ليحجبها عن أنظار السفن العابرة فى اليم ؟ والتفت الملك وكان واقفاً بينهم فقال : « ياللآلهة ! لقد ذكرت نبوءة قصها علىّ والدى فيما غبر من الزمان . . . فلقد ذكر لى أن شعبنا المجيد مأذون له من نبتيون أن يحمل الناس من كل فج ، من ضل سبيله منهم إلى بلادهم مهما تناءت .

وقد ذكر أيضاً أن سفينة من سفننا بعد إذا ترتد من رحلة لها إلى بلد رجل غريب نازح ، ستغرق فى اليم ويبسق مكانها جبل عظيم شاهق يحجب شيرا عن البحر . . . وهاقد تحققت النبوءة ، فهلموا نقرب لإله البحار نبتيون باثنى عشر عجلا جَسداً تكون أعظم عجولنا وأعلاها قيمة ، عسى أن يرثى لنا فيكشف عنا هذه الغمة ولا يحول بين البحر وبين مدينتنا بهذا الطود الكبير الراسى » وتفزّع زعماء الفياشيين ، وبادروا إلى عجولهم فجزروها باسم نبتيون ، وتكبكبوا حول مذبحه فصلوا له ، وسبحوا بذكره . . . أما أوديسيوس فقد هب من نومه وهو لا يدرى أين هو ؛ ومع أنه كان ينام ألذ النوم فوق شاطىء بلاده ، فإنه لم يعرفها لطول ما شطت به النوى ولأن مينرڤا الكريمة ، سليلة جوف العظيم ، كانت قد ألقَت حوله ظلالاً تحجبه عن أعين المارة مخافة أن يعرفه أحد منهم قبل أن تلقنه من حكمتها ما هو ضرورى له فى حالته هذه . . . كأنما أرادت ألا يستبينه أحد من مواطنيه ولا من أصدقائه وذويه حتى يبطش البطشة الكبرى بالعشاق الفُسَّاق الذين استباحوا عرضه واستحلوا بغير الحق زاده وخيره ، وعمروا كالشياطين داره . لذلك موهت مينرڤا كل شىء فى عينى أوديسيوس ، فالطرق مستقيمة مستطيلة والموانىء رحبة مترامية ، والجبال ذاهبة فى السماء ، والدوح باسق يطاول الجوزاء ، وكل شىء ليس مما عهده البطل فى بلاده . . . ووقف يقلب عينيه فى المشاهد المحدقة به ، ثم تنهد من أعماقه ، وبسط كفيه إلى السماء ، وضرب بهما فى بَرَم على فخذيه ، وأنشأ يقول : « ويلاه علىّ وألف ويل ! أى شعبٍ من الشعوب يقيم بهذه الأرض يا ترى ؟ أأجلاف ظَلَمة هم ، أم أطهار أخيار يخبتون للآلهة ؟ ليت شعرى أين أخبىء هذه

الكنوز والأحراز ؟ وَىْ ! بل أيان أذهب أنا ؟ لعمرى لقد كنت أوثر الا أنال شيئاً من هؤلاء الفياشيين على أن أكون قد حللت بأرض ذى نخوة وذى نحيزة من ملوك الأرض غير الكينوس هذا ، فكان يرسلنى آمناً سالما إلى بلادى ! ماذا أصنع يا ربى ؟ أأترك هذه الثروة الطائلة هنا ؟ أأدعها فريسة حلالا لغيرى من الناس ، وأهيم فى هذه البطحاء على وجهى ؟ واأسفاه ! أهكذايغررون بى فيلقوننى فى شاطىء غير شاطىء بلادى ، وقد وعدوا أن يهبطوا بى مرفأ إيثاكا الأمين ؟ اللهم يا چوف العظيم ، يا من إليه يجأر أبناء السبيل والمهاجرون والمساكين إنتقم لى يارب الأرباب من هؤلاء الخونة المبطلين ! ولكن . . . يجدر بى قبل كل شىء أن أحصى أذخارى لأرى هل سلبنى منها هؤلاء اللصوص شيئاً ؟» ثم راح يحصر كنوزه ، فما وجد شيئاً منها ناقصاً أو غير موجود ، وزاد ذلك فى أشجانه ، فأخذ يندب حظه ، ويبكى على ما لقى من زمانه ، وينشج نشيجاً مؤلماً لهذه الهجرة الظالمة عن أوطانه ، وجعل يروح ويغدو على سيف البحر المضطرب ، وحيداً مُعَنًّى ، ويرسل دموعه وزفراته حتى بدت له آخر الأمر مينرڤا فى صورة راع صغير غض الأهاب عجيب الثياب جميل المحيَّا ، كأبناء الملوك ، ملتفعاً حول عنقه ومن فوق صدره بثفيف[1] صفيق طُوى حولها طيتين وفى قدميه نعلان متواضعتان ، وفى قبضته حربة ناعمة لامعة . . . وكانت مفاجأة سارة فوجىء بها أوديسيوس فخطا خطوات عاجلة إلى الشاب وراح يسائله : « مرحباً أيها الغُرانق الجميل ! لقد كنت أول إنسى ألقاه هنا ، فبحق هذا عليك أن تحمينى وتحمى أذخارى هذه ، وألا تلحق بأيِّنا

(١) الثوب الرقيق .

أذى ! إنى أتوسل إليك كما لو كنت أتوسل إلى أحد الآلهة أن تصدقنى فيما أسألك عنه : أية بلاد هذه ؟ وأى قوم يعيشون فيها ؟ أهى جزيرة آهلة ، أم حَدُور من بلاد مترامية ؟ أخبرنى بأربابك أيها الفتى » .

وقالت مينرڤا ذات العينين الزبرجديتين تجيبه : « أيها الغريب اللاجىء كم أنت ساذج ! كيف تسائل عن هذه البلاد كأنك لست من أهلها ؟ إنها بلاد ذات ذكر فى المشارق والمغارب ، ومنها وإليها تصدر الركبان إلى كل فج ، ثم هى ليست بهماء مجهولة ، بل هى جنة مأهولة ، زاخرة الخيرات موفورة البركات ، ففيها أنضر سهول القمح ، وأبهج عرائش الكروم ، وأخصب المراعى الخضر الحافلة بقطعان النَّعم والشاء ؛ تسقى من ماء معين ، وأنهار وعيون ... هذه يا رجل إيثاكا ... إيثاكا المباركة ، التى استطالت شهرتها ، واستطار ذكرها حتى ملأ الخافقين ، وجاوز طروادة ذات المجد ، التى لا تبعد شطئانها من أخايا » .

وشاع البشر فى نفس أوديسيوس لما سمع الراعى الجميل يؤكد فى لهجة قاطعة أن هذه البلاد هى إيثاكا الموعودة ، وهز السرور أعطافه لما رأى من زهو الشاب وافتخاره بها ... بيد أنه مع ذاك راح يتجاهل ، ويُبدى عدم معرفته لهذه البلاد ، ويحاول أن يخدع الفتى عن نفسه ، وما يخدع إلا نَفْسَه هو ... قال : « أجل ... لقد سمعت عن إيثاكا فى أقاصى البحار ... والناس يعرفونها حتى فى كريت التى وصلت منها اليوم بعتادى هذا ، تاركاً فيها أبنائى وذوى رحمى ، فاراً بنفسى من الفعلة الهائلة التى فعلت ... يا ويح لى !! لقد قتلت العدَّاء المعروف أرسيللو بن أيدومين العظيم الذى لم يكن يباريه فى سرعة عدوه أحد . لقد حدثته نفسه أن

يسلبني ما غنمت من كنوز طروادة وأسلابها وما حصلت عليها إلا بعد قتال شديد ولظى حرب ، وركوب أهوال فى ذلك اليم . . . وذاك لأنى أبيت أن أقاتل تحت لوائه ، أو لواء سيده ومولاه ، بل قدت فيلقاً من الجند فظفرت وانتصرت ، فكبرت عليه هذه ، وحفظها لى ، واضمر فى نفسه الغدر ، فلما عدنا أدراجنا إلى أرض الوطن ، حاول أن يسرقنى كنوزى ، فأقصدته برمحى فأرديته ، وكان معه زميل له شرير فذبحته ، واستعنت عليهما بدجى الليل ودُجُنَّته ؛ ثم هربت تحت أستار الظلام بأحرازى إلى الشاطىء ، حيث حملتنى سفينة فياشية رجوت ملاحيها أن يبحروا بى إلى شاطىء بيليا ، أو إلى مرفأ إيليس . . . لكنهم وأسفاه اضطروا إلى الإرساء هنا لأن ريحاً عاصفاً قسرتهم على ذلك ، فوصلنا هنا برغمنا فى جنح الليل البهيم ، ولقينا عناء عظيما فى النزول بالمرفأ الأمين ؛ ومع شدة حاجتهم إلى الطعام ، فإنهم لم يستأنوا ، بل تركونى وحدى ، وأبحروا على عجل ، بعد إذ نمت على الشاطىء من الإعياء ، وبعد إذ حملوا إلى هنا متاعى . . . وهم الآن فى طريقهم إلى سيدونيا . . . وهأنذا وحدى هنا ، لا أعرف أيان أذهب ، ولا أين أمضى !! » .

وسكت أوديسيوس . . . ولكن الراعى الشاب الجميل أخذ يتحول فى فتون وسحر إلى صورة خلابة أخرى . . . لقد أصبح امرأة حسناء هيفاء . . وها هى ذى . . . تلك المرأة الحسناء الهيفاء . . . تبدو فى صورة مينرفا ـ ربة الحكمة ـ التى اقتربت من البطل فى تبسم وظرف ، وأخذت تعبث بلحيته الكثة الشعثاء فى دلال وسخرية ، وراحت بدورها تجيبه : « مرحى أوديسيوس . . . مرحى مرحى !! ما أحسب أن أحداً ـ

أحداً من الآلهة ـ يفوقك فى مكرك وبراعة حيلتك يا ابن ليرتيس !! أما آن تقلع عن مراوغاتك التى حذقتها مذ كنت يافعاً وعن توشية الأحاديث الملفقة التى حذقتها واشتهرت بها فى العالمين ؟! ولكن ... تعال ... ليدع كلانا ما يحاول أن يزوق به كلامه ، فكلانا بارع فى ذلك صناع ... أنت بفصاحتك . ودقة فهمك وطريف حيلتك بين الناس ؛ وأنا بحكمتى وقوة تدبيرى بين الآلهة ... وما أحسبك تجهل مينرفا ابنة جوف الأكبر ، التى كانت رائدك ورفيقك فى كل ما حاق بك من مكروه ... فقد كنت أقذف الشجاعة فى قلبك فى مواقف شدتك كما كنت أثير الحمية فى أفئدة الفياشيين الذين وصلوا بك إلى هنا ، وهأنذى طويت إليك فدافد الرحب لأخلو ساعة بك ، ولأن لى حديث نصح معك ، بودى أن أمحضك إياه ... وقبل هذا ينبغى أن تخبىء كنوزك التى أسبغت عليك بمشورتى ... ثم إنى محدثتك عما يتحيفك من أرزاء ، وما يدبر لك من كوارث تحت سقف بيتك ، ونصيحتى أن تحتمل مايصيبك أول الأمر بقلب جليد وصبر ثابت وطيد ، واحذر أن يعلم أحد ، رجلا كان أو امرأة ـ بوصولك إلى إيثاكا وحيداً شريداً لاحول لك ، كما وصلت ، بل أصمت كلما حاول أحد أن يتعرفك ، واحتمل الأذى كلما امتدت به يد إليك » . وقال أوديسيوس ، وقد أسقط فى يده : « لله درك يارية ! ماأبرعك فى تغشية العيون وتضليل الأبصار ، والتشكيل فى أى صورة شئت ! بيد أنك برغم ذلك حليمة رحيمة كعهدى بك دائماً ، ألا كم نصرت أبطال أخايا المذاويد ، وأظفرتهم بأعدائهم فى ميدان طروادة ... ولكنى لن

أنسى مذ أقلع أسطولنا من مياه تلك المدينة ، بعد سقوطها فى أيدينا أنك لم تظهرى لنا قط ، ولم تبادرى مرة إلى إنقاذى من إحدى الرزايا التى كانت تحيق بى والتى كنت أحتملها بقلب حديد ، وصبر شديد ، حتى رثت الآلهة لحالى فجعلت لى منها مخرجاً وانقذتينى إلى بر فياشيا ، حيث أثرت فى صدرى النخوة ، وأوليتنى الشجاعة ؛ وكنت دائماً دليلى ورائدى . . ولكن . . . أصدقينى بأبيك يا ابنة جوف ، هل وصلت حقاً إلى إيثاكا ؟ أم أنا فى صقع سحيق عنها وإنما أنت تسخرين منى وتعبثين بى ؟ أصدقينى بأبيك يا ربة ، هل هذه بلادى العزيزة إيثاكا ؟ هل هى حقاً ؟» وقالت ذات العينين الزبرجديتين تجيبه : « دائماً حذر يا أوديسيوس ، وإلى الأبد يملأ الوسواس صدرك ، برغم ما أوتيت من حكمة وتبيان ورجاحة فكر وسلامة جنان ! بيد أنك معذور يا صاح ، إذ أى رجل يتشوف لرؤية زوجه وأبنائه ولا يتحرق شوقاً للقياهم ، بعد هذا النوى الطويل ، والبعد الممض ، والأهوال الجسام الجمة ؟ غير أنه أفضل لك ألا تعلم شيئاً ولا تسأل عن شىء حتى تلمس بنفسك مقدار ما تكنه لك من الحب ، تلك الزوجة الوفية المخلصة التى ذهب شبابها عليك حسرات ، والتى ذرفت دموعها من أجلك آناء الليل وأطراف النهار طوال تلك السنين الباكية الحزينة الموحشة . . . إنى لم أتركك يا أوديسيوس كما تظن ، بل كنت أعلم أنك راجع دون ما ريب إلى بلادك ، وإن فقدت كل رجالك ورفاق سفرك الطويل الشاق . . . غير أننى أشفقت أن أثير حنق نبتيون ، عمى وشقيق أبى ، الذى يحز الأسى فى قلبه من فعلتك التى فعلت بعين ابنه السيكلوب . . . ولكن هلم . . . إنى سأقطع شكك باليقين ، وسأدلك على علائم تؤكد لك أنك فى إيثاكا . . . فهذه هى ميناء فورسيز حكيم البحار ،

وها هى الزيتونة الكبرى عند رأس المرفأ وعلى مقربة منها ذلك الكهف المقدس الإلهى الذى تأوى اليه عرائس البحر المعروفة باسم النياد ، وقد طالما كنت تجزر القرابين والأضاحى باسمهن عند وصيده ، وهناك جبل نيريتوس وأولئك غاباته الشجراء . . . » ثم رفعت ربة الحكمة الغشاوة عن عينيه فعرف دياره ولم ينكر شيئاً منها ، وهكذا شاءت العناية أن يشهد البطل المكدود بلاده الحبيبة مرة أخرى ، وهكذا خر أديسيوس جاثياً يقبل ثرى الأرض المقدسة ، ثم رفع يديه يصلى لعرائس الماء كسابق دأبه : « يا عرائس البحر ، يا بنات جوف الأعظم ، لقد قنطت قبل هذا من أن أراكن ، فهأنذا أعود إليكن بألف نذر وألف تحية وسلام .. ولكنّ القرابين الغوالى إذا مدت أختكن - مينرفا الحكيمة - فى أيامى وباركت رجولة ولدى ومعقد أحلامى » .

وقالت ابنة جوف تؤيده : « تشجع يا أوديسيوس لا طائل لهذه الوساوس التى تعذبك ! هلم ! البدار ، البدار ! لنخبىء هذه الكنوز فى أغوار ذلك الكهف السحيق لتكون فى مأمن من عبث عابث ، ثم هلم أدبر الأمر معك » وانطلقت الربة فى ظلمات الكهف تتكشفه بينما حمل أوديسيوس أذخاره فوضعها حيث أشارت مينرفا ، ثم حملت بيديها الجبارتين صخراً عظيماً فأحكمت به غلق المدخل الرهيب .. وجلسا عند أصل زيتونة باسقة ، وشرعا يرسمان الخطط ويحكمان التدبير لهؤلاء العشاق الفسّاق المعاميد ، فقالت مينرفا : « أوديسيوس ، يا ابن ليرتيس المجيد ، هلم فأعمل فكرك الآن فى الوسيلة التى تبيد بها أعداءك الذين لا يستحيون ، أولئك العشاق الذين استبدوا بأسرتك طوال أعوام ثلاثة ، واستباحوا

حماك ، وتكالبوا حول زوجتك كل هذه السنين يغرونها بالوعود ، ويزخرفون لها الأماني ، ويعسلون لها كلمة الفسق ، وهي ما تزداد إليك إلا تحرقاً ، وما ترقأ دموعها من أجلك ، فتحتال لهم ، وتعد هذا وتوشى المنى لذاك ، معللة نفسها بعودتك لتسحقهم جميعاً !» واستعبر أوديسيوس قليلا وقال : « أوه ! كأن القضاء الذي أسكت نأمة أجاممنون يكاد يحيق بي أنا الآخر في صميم داري ، ولكن .. وَيْ ! أضرع إليك أيتها الربة أن تشيري علي وتنصحي لي وتلقنيني كيف أثأر من هؤلاء الطغاة ؛ وأتوسل إليك أن تقذفي في قلبي الشجاعة كما قذفتها به تحت أسوار طروادة ، فإني بعونك أدوخ المئين من أعدائي ، ومادامت يدك فوق يدي ، فإني مستأصل شأفتهم جميعاً » قالت مينرفا : « اطمئن يا أوديسيوس ، فسأكون معك وإن لم يمتد إلى طرفك حتى تغتالهم أجمعين ، وحتى تطيح رؤوس أكثرهم على أرض قصرك ... ولكن تعال ، ألق بالك إلي ، إني سأغير من صورتك ، وأحور من شكلك حتى لا يعرفك منهم أحد ؛ فهاتان الوفرتان [1] تستطيلان حتى تغطيا كتفيك وحتى تتصلا باللمة [2] ، وسأدثرك بدثار مرقع رث يثير التقزز في نفوسهم فلا يمدون أبصارهم إليك ، وسأحدث أوراماً حول عينيك تزيد في تنكرك ، حتى ليحسب من يرى إليك من أعدائك أنك وأهلك بعض المساكين الذين لا يفتأون يضربون في الأرض .. على أنه ينبغي أن تلق راعيك الأمين يومايوس الرجل الوفي الذي لا يزال يخلص لك ، ويفي لابنك ، ويؤثر بأصفى وده زوجك .. فاذهب إذن الى

( ١ ـ ٢ ) الوفرة ما بلغ شحمة الأذن من الشعر واللمة ما ألم بالمنكب منه .

جُبيل كوراكس المطل على نبع أريثوزا ، تجد قطعانك ترعى العشب الحلو ثمة ، وتسق من السلسبيل المجاور ؛ وتجد راعيك الشيخ يتشوق إلى رؤيتك ، فحيه واجلس إليه ، واسأله عن كل ما ترى أن تعرف من أنباء بيتك وأهلك وعقارك ، وتلبث معه حتى أعود إليك بابنك من أسبرطة . . . إبنك تليماك الذى ذهب يذرع الرحب سائلا عنك ، متحسساً أخبارك حيث حل ضيفاً كريماً على الملك منلوس الذى أرسله إلى ليسديمون ليرى هل لا يزال أبوه حياً يرزق ؟» قال أوديسيوس : « واأسفاه عليك يا ولدى !! ولم أيتها الربة المحيطة بكل شيء لم تخبريه أنى حى أرزق وأنى لابد عائد إليه ، فكنت كفيته بلاء الرحلة فى تيه البحر ، بينما هؤلاء الكلاب يستنزفون ثروته وماله ؟» فقالت تجيبه : « لا تأس على ولدك هكذا يا أوديسيوس ؛ لقد أرسلته أنا ثمة ينشد الشرف وينشر ذكره بين الناس . . . إنه لا يلقى عنتاً هناك ، بل هو ينعم بالرعاية فى قصر أتريدس ! واعلم أن فريقاً من عشاق بنلوب يتربصون به ، ويترصدونه فى طريقه ابتغاء أن يقتلوه قبل أن يبلغ أرض الوطن . . . ولكن لا . . . خاب فألهم . . . إنهم لن يمسوه بأذى حتى تكون الأرض قد رويت من دمائهم ، وغيبوا جميعاً فى بطنها ، أولئك السفلة الذين يستحلون زادك وعتادك الآن » . ثم مسّته بعصاها السحرية فبدت عليه بدوات الكبر ؛ فهذا جلده قد تغضن ، وهاتان وفرتاه ولمته قد استطالت حتى بلغ شعرها قدميه ، وها هى ذى تضفى عليه الدثار المرقع الرث ، وها هى ذى تحدث الأورام حول عينيه وتزوده بمزق قذرة علق بها التراب والسخام [1] وها هى

(١) الفحم أو ما يعرف بالعامية بالهباب .

تضفى عليه بعد ذلك جلد ظبي قديم غليظ وتدفع إليه بعكازة طويلة يتوكأ عليها ، وتمده بمزود[٢] تدلت منه أوشية قبيحة ، وأحيط بسيور من جلد عتيق . . .

وافترقا . . فهو إلى حيث يلق راعيه . . وهى إلى حيث تلق تلياك فى مملكة ليسديمون .



---

( ٢ ) خرج .

## مع الراعى

وسلك سبيله فى طريق وعر محفوف بالأشجار الباسقة إلى مأوى صديقه الراعى الشيخ الأمين ، فوجده جالساً وحده فى مدخل الحظيرة الشاسعة القائمة وسط المرج المعشوشب النضير . ولقد سورها يومايوس ، إذ سيده غائب فى أقصى الأرض ، بسور عظيم ضخم من حجارة قوية نحتها من محجر قريب ، وجعل على السور فروعاً من قتاد وشوك وجذوعاً من سنديان ، حتى صارت أمنع من عقاب الجو ... كل ذلك دون أن يساعده أحد ... ثم قسمها اثنى عشر زَرْباً[1] جعل فى كل منها خمسين خنزيرة كنازاً ... أما ذُكران الخنازير فقد تركها سائبة فى الخارج ليرسل منها إلى العشاق المعاميد ما يأكلون منه وما يريغون ... وقد بقى منها بعد تلك الأعوام الطوال ستون وثلثماثة . وربضت لدى الباب كلاب أربعة كسباع البرية ، تلحظ الحظيرة بأعين كالجمر ، وجلس الراعى يعمل لنفسه نعالا من جلد ثور مدبوغ ، بينما انطلق خدمه ومعاونوه الأربعة يعملون ويدأبون هنا وهناك . وكان رابعهم على وشك أن يترك الحظائر إلى المدينة ، حاملا لحم خنزير حنيذ يذهب به برغمه إلى العشاق الفساق . ولمحت الكلاب أوديسيوس فأهرعت إليه ، وظلت تعوى وتنبح ، وترغى وتزبد ، وأوشكت أن تفتك به ، لولا أن هب يومايوس فكسر شرتها بما رماه به من الحجارة ، ولولا أن ترك أوديسيوس عكازه يسقط من يده لأن الكلاب لا يغيظها إلا أن يُمْسِك لها أحد عكازاً .. قال الراعى : « أيها اللاجىء العجوز سلمت ! خطوة واحدة ، وكانت هذه الكلاب قد

(١) الزرب : الزريبة للغنم .

مزقتك إرباً ، وكانت قد لحقت بى سبة لا تبيد ! ألا كم ترسل علىّ الآلهة من كروب ! وكم ترمينى به من آلام ! أنا ، هذا العجوز الهالك ، الذى أمضنى الحزن ، وشفنى الأسى من أجل سيدى ومولاى ! هأنذا أسمّنُ قطعانه وأرعاهم لينعم بها غيره ، بينما هو نازح غريب يجوب الآفاق ويشتهى كسرة يتبلغ بها ، إن كان لا يزال حياً يرزق ! أوه ! تعال أيها الصديق ، هلم فاتبعنى إلى دارى أطعمك ما تيسر ، وأسقك كفايتك من الخمر ، وتخبرنى بعدها من أنت ، ومن أين أقبلت وماذا وراءك !» وانطلقا ، وقدم إليه الراعى الكريم حَشيَّته التى كان يجلس عليها ، والتى اتخذها من جلد عنز حشاه بالقش ؛ فشكره أوديسيوس ، ودعا له بما يحب وبكل ما تصبو إليه نفسه . فقال الراعى يجيبه : « أيها الصديق ليس أمقت إلى من أن أذود لاجئاً إلى دارى وإن يكن أرث منك حالا ، لأن أبناء السبيل جميعا هم ضيوف زيوس رب الأرباب وأنا مع ذاك أعتذر إليك إذا لحظت أن زادى قليل وأن حالى رقيقة ، فلقد مضى زمن العز والعيش الواسع المخفرج وأصبحنا نعانى القُلّ والفاقة والعيش النكد تحت إمرة هؤلاء الرؤساء الأصاغر . آه يا مولاى يا زين الحياة ومؤدب الناس أين أنت وأين أيامك وخيرك الوفير ، ليتها دامت ، وليتك ظللت فعشنا فى كنفك .. وليت هيلين وكل من فى بيت هيلين فداؤك ... هيلين التى قتلت سادات هيلاس[1] مِمّن أبحروا مع أجاممنون لينيلوه النصر فى مهدان طروادة !» . ثم لملم دثاره وذهب إلى الزرب الأول فجاء بخنزيرتين سمينتين فذبحهما وسلخ جلديهما ، وجعلهما إرْباً إرْباً ؛ ثم أشعل ناراً

(١) اليونان وتسمى أخايا أيضا .

عظيمة فسوّى على جمرها السفافيد المثقلة باللحم ، وجاء بالشواء فوضعه أمام أوديسيوس ، ثم نثر عليه من الدقيق ، وأحضر زق الخمر ، وجلس قبالته وقال : « هلم يا ضيفى العزيز فكل وارْوَ .. لا تؤاخذنى إذا رأيت الشواء لا سميناً ولا حنيذاً ، فكل سمين وحنيذ يذبح أولا فأول ويرسل إلى العشاق السفلة الذين لا يرعون فى الآلهة إلاّ ولا ذمة ، ولا يخافون سماءً ولا بَشراً ... يالله من هؤلاء الفجرة ... الا يلمون شعثهم ويغيرون بخيلهم ورجلهم على بلد قاص فيثوبوا بأسلاب الغزو وسخط الآلهة ؟ أم تراهم أوحى إليهم بموت مولاهم فهم هنا قائمون ما يريمون ، ولزاده آكلون ومن خمره شاربون ، حتى فرغت الجرار ، وخَوَت الدار ، وضَوُل الزرع وجف الضرع !! أبداً ما ملك أحد مثل ما ملك مولاى ! لقد كانت ثروته تعدل ما يملك عشرة أو عشرون أميراً ؛ ولا أزال أذكر مما ملكت يداه اثنى عشر قطيعاً من الأنعام كانت ترعى العشب فى مروج الشاطىء[٢] المقابل ، وكثيراً من قطعان الأغنام وأرعال[٣] الخنازير وأسراب الماعز ، عليها أُجراء وخدم ورعاة لا يحصون ، ورجال مخلصون يزرعون فى حقوله الشاسعة ويحصدون ، ورجال يجلبون من قطعانه كل كناز للذبح ..

أما أنا .. فقد عهد إلى بهذه الأرعال التى ترى ، أطعمها وأعنى بها ، و ... وا أسفاه ؛ وأرسل إلى العشاق كل يوم بخيارها » .

---

( ٢ ) لعله شاطىء آسيا

( ٣ ) جمع رعيل ويجمع على رعال أراعيل وهو فى الأصل للخيل والبقر .

وصمت الراعى بينما كان أوديسيوس يصغى ويلتهم طعامه ويفكر ألف فكرة ، ويدبر ألف تدبير لسحق هؤلاء العشاق المفاليك . حتى إذا انتهى ، قدم إليه يومايوس كأسه دهاقا ، فتقبلها وشرب ما فيها وقال : « ترى ماذا كان اسم سيدك أيها الصديق ؟ لابد أنه كان مشهوراً ذا ذكر ، لما وصفت من واسع ثرائه وسمو جاهه وبسطة ملكه . لقد قلت إنه ذهب إلى طروادة مع أجاممنون ، فهل تتفضل فتذكر لى اسمه عسى أن أقص عليك من أنبائه ؟ لقد ذهبت أنا الآخر لمة ، وسافرت فى بلاد شتى ، ومحال ألا أعرف العظماء الذين جاهدوا مع أجاممنون . » فأجابه الراعى : « وا أسفاه أيها الأخ العجوز ! أبداً لا تنطلى الأنباء الملفقة عن مولاى على زوجه أو ولده ؛ فكم من جوّاب آفاق مثلك ، محتاج إلى لقيمات أو سروال ، قد لقى الزوجة المسكينة فلفق لها قصصاً مكذوباً عن رجلها ثم دلت الأيام على كذبه وزخرفه ، والزوجة فى كل ما تسمع تذرف الدموع وتصعد الآهات . كأحسن ما تصنع زوجة وفية من أجل زوجها الذى قضى فى بلد بعيد . وأكبر ظنى أنك تطمع فى كساء تخلعه عليك هذه الزوجة المفئودة الرءوم ، فأربع عليك ، فالرجل قد قضى ، وليس بعيدا أن تكون كلاب البرية وسباعها قد اغتذت به ، أو أنه قد غرق فأكله السمك ، ولفظت عظامه على سيف البحر لتذروَها الرياح ، تاركاً وراءه قلوباً تأسى عليه ، أحزنها عليه قلبى . تالله ما وددت أن أرى أبوى اللذين غادرتهما منذ أحقاب كما أتشوف اليوم إلى رؤية هذا الرجل .. آه يا أوديسيوس ! أين أنت .. إنك مهما شطت النوى وشحطت الدار فلن أبرح أذكرك وأسبح باسمك وأوقرك بما أحسنت إلى وعنيت بشأنى ، يا من فراقك عندى آلم لى من فراق

أعز إخوتى وأشقائى !» .

وحدجه أوديسيوس وقال : « أيها الصديق لم تيأس من عودة مولاك هكذا ؟ ولم يخامرك الشك فى أن رجوعه محتوم لا ريب فيه ؟ إذن فأنا أقسم لك قسما لا أحنث فيه أنه عائد لا محالة ، ومعاذ الآلهة أن أقسم وأؤكد الايمان لأنال القميص الذى ذكرت أو الدثار الذى أنا فى شدة الحاجة إليه ، بل ليبق القميص والدثار حتى يتحقق قسمى وتبر يمينى فأتسلمها منك ، فإنى أمقت الكاذب الحانث فى يمينه كما أمقت أبواب الجحيم ، والله على ما أقول وكيل .. إطمئن إذن يا صاح ، وثق أن أوديسيوس لابد عائد هذه السنة إلى إيثاكا بل ربما عاد هذا الشهر ، ولن يمضى شهر آخر حتى يكون قد ثأر لعرضه من أعدائه وبطش بهم جميعاً .. أولئك الفجرة الأشرار الذين جسروا على استباحة حماه ، وإهانة زوجه ، وعدم المبالاة بولده !» وسخر الراعى وقال : « أهكذا تقسم وتؤكد القسم يا صاح ؟ أبداً لن تنال الرهان أبداً ، فقد أودى أوديسيوس ولن يعود بعد .. هلم هلم ، تحسَّ كأسك الروية ودع هذا الحديث فإنه يحزننى ويثير شجونى .. حل قسمك ، وليقدم أوديسيوس فى خيالك أو فى الحقيقة ، فأنا وزوجه وأبوه وولده ... كلنا نشتهى ذلك ونتمناه على الآلهة .. يا ويح لك يا تلماك الحبيب ! لقد كنت أرقص طرباً كلما رأيتك تنبت كما نبت أبوك ، وتشب على الفضائل التى شب عليها ! أين أنت ؟ لقد ذهبت إلى ملك بيلوس تتحسس أخبار أبيك ، وها هم العشاق يترصدونك ويتربصون بك ليغتالوك فى الطريق . ألا طاشت أحلامهم ، وحماك جوف الأعظم من مكرهم ، وحفظك لبيت أرسسياس يا أعز الناس ....؛ ولكن تعال أيها

الضيف الكريم . . . قل لى بربك واصدقنى فى كل ما تقول : من أنت ، ومن أين أقبلت ، وفيم قدمت ؟ وما بلدك ؟ وأين يقيم أبواك ؟ وأى سفينة حملتك إلى شاطئنا ؟ فلعمرى إنك لن تدعى أنك وصلت إلينا سائراً على قدميك !!» فقال أوديسيوس يجيبه : « سأقص عليك من أنبائى التى لا يأتيها الباطل ما لو لبث عندك عاماً بين هذه الخمر وذاك الطعام ، بينما يكد الآخرون من أجلنا ويجهدون ، ما فرغت من قصها عليك . . فهى أنباء باكية وآلام متصلة ، شاءت السماء أن أقاسيها ، وأن أجرع غصصها . . . إذن فأنا ابن كاستور هيلاسيد أحد سراة كريت ، من سُريته المحبوبة التى كان يعزها كزوجة . ولم يكن أبى يفرق بينى وبين إخوتى من زوجه ، بل كان يولينا حبه على السواء ، وكان الناس يبجلونه كأحد آلهتهم لثرائه الواسع ، وحسبه الضخم ، ولأعماله الناجحة ؛ فلما مات اقتسم أبناؤه كل ما ترك ، وكان نصيبى منزلا متواضعاً ، ومالا كثيراً ، وزوجة غنية ذات مال وجمال . ولم يحاول إخوتى أن يَدُعُّونى أو يأكلوا تراثى ، لما كنت عليه من كريم الخصال وحميد الفعال ، وجمال المنظر ووسامة المظهر - لا كما ترى الآن - وأسفا على ما فات من نضارة الشباب ! تالله لن تستطيع ولن يستطيع أحد ، أن يحدس كم شقيت وكم بُليت ، وكم من الآلام والضنك وأوضار الحياة تحملت ؟ فلقد كنت لا أرهب الردى ، وكنت دائماً أخوض خبار المعامع فى حمى مارس ومينرفا فأشك قلوب الأعادى وأبهر القادة والزعماء بجلائل الأعمال . .ولم يكن منْ دأبى أن اشغل نفسى بأكلاف البيوت ومشاغل الحياة المعيشية الدنيا ، التى هى بالأحداث والغلمان أولى ، بل كنت مشغوفاً أبداً بركوب البحار وخوض غمار الوغى ، وملاعبة

الأسنة ، وما إلى ذلك مما جعلته السماء غراماً وفرحاً لى ، وضراماً وفزعاً فى فؤاد سواى - والناس كما تعلم فيما يعشقون مذاهب ... ولست أرسل القول على عواهنه ، فلقد قدت إلى طروادة تسعة جيوش ظَفَرَتْ بفيالقها قبل هذه الحرب الضروس الأخيرة بينها وبين هيلاس ... ولقد حزت الثراء الجم والغنى الوافر من جراء هذه الحروب ، فأصبحت بين شعب كريت المفضل المبجل .. ثم كانت الحرب الأخيرة التى قتل بسببها مئات من السادة الصناديد من رجال الإغريق ، فاختارونى أنا وصاحبى إيسدومين قائدين للأساطيل ... ثم حاربنا حول طروادة تسع سنين حافلات مثقلات ، وفى العاشرة سقطت المدينة فى أيدينا ، وعدنا أدراجنا نطوى اليم لا ندرى ماذا خبأت لنا المقادير ؛ ومن ثمة بدأ جوف يرسل صَبِّياً من الرزايا فوق راسى ، حتى إذا وصلت إلى كريت سالماً لم ألبث طويلا هناك ، ولم أمتع النفس بالأهل والوطن إلا شهراً واحداً ؛ ثم أقلعت فى نخبة من رفاقى بأسطولنا إلى مصر بعد أن أولمت لهم وقربت القرابين . وقد أرسلت العناية لنا ريحاً جرت بسفننا رخاء ، كأنما أبحرنا مع تيار نهر لا جبار ولا عنيد ، ولم يحدث لأى من جوارينا سوء حتى بلغنا شطئان مصر فى اليوم الخامس ، واتخذت سفننا سبيلها فى النيل عجباً ... ثم حدث ما لم أود أن يحدث ، إذ سطا رجالى بعد خُلْفٍ فى الرأى وشجار بينهم عنيف على حقول الفلاحين فاستاقوا أنعامهم وسبوا نساءهم ، واسترقوا أطفالهم ثم ذبحوا رجالهم ... بيد أنهم لم يسلموا مع ذاك من شر المصريين إذ استيقظت المدينة على صراخ الجرحى وأنين القتلى وتصويت النساء فأقبل أهلها كالجراد ، بين فارس وراجل ، وكل يحمل السيف البتار أو الرمح السمهرى ، فأعملوا فينا ضرباً وتقتيلا

واستنقذوا السبي كله ، وشفوا حرد صدورهم منا ... أما أنا ... فيا ليتني قتلت فيمن قتل واسترحت من هذه الدنيا التي جرعتني ضعف هذه الآلام بعد ! لقد كنت أشهد رجالي يهوون إلى الأرض ، وأعلم أن جوف قد أنزل هذا البلاء بهم جزاء لهم وفاقاً ؛ فلما رأيت أنني لا محالة شارب بالكأس التي شرب بها رفاقي ، ألقيت سيفي ، وجريت أعزل من السلاح إلى حيث الملك الكريم ، فركعت بين يديه ، وقبلت الأرض إجلالا له ، وبكيت ما شاء جوف أن أبكي ، ثم سألته العفو والمغفرة ، فرق لي ، ورثى لحالي ، وأمر بي فأخذني في جملة خدمه وخوله إلى المدينة . وقد رام رجاله أن يقصدوني برماحهم لولا أن صدهم مخافة من الله الذي أمّن اللائذين به ، المستذرين بظله ، ثم لبثت في أهل مصر سبع سنين هانئاً سعيداً محبوباً من الجميع . وحدث في السنة الثامنة أن قدم إلى المدينة رجل فينيق جواب آفاق ، مازال بي حتى أقنعني بالفرار معه إلى بلاده ، وأغراني بأن له ضياعاً وأملاكا ومالا ، ففعلت ، ولبثت معه حولا بأكمله ، ثم حدث أن كلمني بعد هذا الحول في رحلة لا أعرف إلى أين ، كانت أكبر الظن للسطو والقرصنة ، أو على الأقل لأباع في بلد قصي بيع الرقيق ، فينتفع بثمني ... ورحلنا .... ولكن عاصفة جبارة هبت علينا وتلاعبت بنا ؛ وعبست السماء ، وكلح الدأماء[1] وتمرد من تحتنا الماء ، ثم أرسل جوف صواعقه عليها ... وغرق الملاحون جميعاً ! ... وأكرمني الله العلي اللطيف فبعث إلى بقلع السفينة الأكبر فتعلقت به ، ولبثت الصبا تقذف بي نحو الجنوب أياماً تسعة ، وفي ظلام الليلة العاشرة ، دفعتني على شطئان

(١) عبس البحر .

تسبروتيا حيث أكرم مثواى ملكها العظيم البطل فيدون ، وعنى بشأنى ، وذلك أن ولده رآنى طريحاً على الشاطىء أكاد أموت من البرد والجوع ، فحملنى إلى قصر الملك حيث رددت إلى الحياة وأعطيت دثاراً وصداراً ، وخصصت لى غُرفة فسيحة ذات أرائك . . . وهناك سمعت عن مولاك النازح ، البطل أوديسيوس ، ورأيته بعينى رأسى وقد ذكر لى عن فضل الملك وإكرامه مثواه ، ما برهنت عليه أعماله ؛ ثم أرانى أوديسيوس كنوزه من الذهب والنحاس وطرف الحديد التى جمعها فى أسفاره ، والتى تكفى للنفقة على أسرته عشرة أحقاب . . . وكان الملك يحفظها له فى غرف كثيرة فى قصره إعزازاً له وتكريما ؛ وذكر لى أنه ذهب إلى ددونا النائمة بين أحضان الحور والسنديان ليستوحى كاهن جوف الأكبر عما إذا كان خيراً أن يذهب إلى بلاده متنكراً ، أو فى صورته الصريحة الحقيقية بعد هذا الغياب الطويل عن أهله . وقد أكد لى الملك أن المركب الذى سيحمل أوديسيوس إلى بلاده - إيثاكا - معد فى المرفأ ولولا أنى أبحرت قبله لشهدته بعينى يركب الفلك ، ذلك أن فلكا آخر لملاحين من جزيرة دلشيوم كان راسياً فى الميناء ، فأمرهم الملك أن يحملونى معهم ويذهبوا بى بأقصى ما يمكنهم من السرعة إلى الملك أكاستوس . ولكنهم - واأسفاه - تألبوا على فى عرض البحر ، وتآمروا بى ونزعوا صدارى ونضدوا دثارى ثم انتهزوا فرصة المد فأرسلوا بى إلى شاطىء إيثاكا ، بعد أن ألبسونى تلك البزة القبيحة التى ترى .. ولكى لا أقاوم أدنى مقاومة ربطوا ذراعى وساقى وشدوا وثاقى فى السارية فلم أبد حراكا . . . بيد أن الآلهة رأفت بى وحلت وثاقى فقذفت بنفسى فى الماء وسبحت الى الشاطىء حيث وجدتهم يعدون عشاءهم ويلتهمونه سراعاً . . . وقد اختبأت

فى الأدغال الكثيفة فلم يروف . . . وهالهم ألا يجدوني حيث شدوا وثاق ، فذهبوا يبحثون عنى حتى إذا لم يقفوا لى على أثر ، أقاموا عجلين ، ونجانى الله منهم ، وساقنى الى الرجل الصالح الطيب الذى وصل حياتى وأكرم مثواى . . . »

فتبسم يومايوس وقال : « تالله لقد أثرت فى فؤادى مقالتك أيها الضيف الكريم ، وأشجانى ما لقيت من أهوال ! ولكنك كما يبدو لى لم تكن جاداً فيما رويت من أنباء أوديسيوس فلم أيها الأخ وعليك من سيما النبل ومخايل الفضل ما عليك ، تلفق مثل هذه الترهات المضحكات ؟ أما والله إنه إن يكن قد نجا من الموت فى ساحة طروادة بما ألب عليه من سخط الآلهة أجمعين ، فأكبر ظنى أنه قد غدا جزر السباع وكل نسر قشعم . . . واأسفاه عليه ! ألا ليته قتل فى سبيل بلاده فى حرب عوان يحمى فى وغاها بيضة الوطن ! إذن لبكاه جميع الإغريق ، ولاجتمعت هيلاس كلها تتنافس فى صنع لبنات قبره ، وتخليد ذكره ، ولأورث ولده المجد والخلود ! هأنذا يا صاح ثاو فى هذا المكان ، لاصق بذلك البيت العتيق ، يفد على فى كل آنة غرباء مثلك ، يروون لى القصص ، ويلفقون الأحاديث عن مولاى ، فبعضهم يبكيه ويتحسر عليه ، وبعضهم يوشى الأكاذيب ليغنم بعض الرفد وينال بعض العطاء ، حين أقدمه للملكة الحزينة الكاسفة ، بنلوب ! ولعمرى ما انطلت على يوماً أحاديثهم ، ولا خدعت مرة بما روقوا وزوقوا !!! أفتحسبنى أصدق ما زخرفت أنت الآخر عن أوبة مولاى مثقلا بأحمال الذهب من كريت ، واهماً أننى بهذا أبالغ فى إكرامك ، وأحرص على التلطف بك ؟ لم تصنع هذا أيها الرفيق بعد أن ترفقت بك الآلهة ،

وهدتك إلى شاطئنا ؟ أما والله إنى إنما أكرمتك حباً لجوف ورهبة من بطشه ولما جاش فى صدرى من الشفقة عليك والرثاء لك ، والتألم من أجلك .»
وقال أوديسيوس يجيبه : « لشد ما أوتيت قلبا أفعمته الوساوس ، ونفسا ساورتها الشكوك أيها الشيخ ! هل هى أنباء ملفقة ، فما يمينى التى أقسمتها لك إذن ؟ تعالى ! هلم نتقاسم يميناً تكون آلهة الأولمب عليها شهداء ، إنه إن آب مولاك إلى بيتك هذا فى أقرب ما تظن من الزمان ، فيكون لى عليك صدار ودثار أصلح بهما شأنى حين أعود أدراجى إلى دلشيوم .. فإن لم يؤب كما عاهدتك فتجتمع أنت ورجالك وعمالك وتقذفوا بى من رأس قمة عالية سامقة يخشى أحقر الآفاقيين أن يتربع عليها ؟» وأجابه راعى الخنازير : جميل والله أيها الغريب اللاجىء ! تكون ضيفى ، وتؤاكلنى وأؤاكلك على مائدتى ، وتطمئن إلى ، وتأتمننى ، ثم أقذف بك من حالق ؟ جميل والله هذا ! وتضيع صلواتى ونسكى لدى جُوف العلى ! صه ! هلم هلم ، العشاء ياصاح ! لقد آن وقت العشاء . . . البدار قبل أن يدهمنا عمالنا فيزحموا المائدة ولا تجد لك مكاناً بينهم » .

وهكذا تشقق الحديث بين الرجلين ؛ ثم وصلت رعال الخنازير وأهرعت إلى حظائرها حيث ارتفع قُباعُها[1] وعلت ضوضاؤها . . . وهتف الراعى بأحد غلمانه فأمره أن يحضر واحداً من أسمنها لعشاء الضيف ولعشاء الرعاة . . . « . . . أفما نستحق واحداً منها مما تلتهم بطون غيرنا الذين ينعمون بثمار كدنا ونصبنا ؟» .

وجىء بخنزير جسد ، وأججت النيران واتقد الجمر ، وصلى يومايوس

(١) القباع بالضم صوت الخنازير .

للآلهة ، ودعا لمولاه بالخير ! وتمنى له العود أحمد العود ، ثم أهوى بشاطوره على عنق الحيوان فخر يتلبط فى دمه ؛ وسلخوه بعد ذلك ، وهم به يومايوس فقطعه ، ووضع إرب اللحم على صبغ الشحم ، ونثر من الدقيق على كل ذلك ، ووضع الجميع فى الجمر ، وكلما نضج شىء وضعه الغلمان على المائدة ، حتى إذا فرغوا تولى الراعى العجوز توزيع الأنصبة ، فجعل لابن مايا[2] سبعة أسهم ، ولعرائس الماء سهما واحداً ؛ وجعل لكل من عماله نصيبه بعد أن أتحف أوديسيوس بأجزل الأنصبة جميعاً ، ثم كان يمده بعد ذلك بإمدادات جمة !! مما أطلق لسانه له بالشكر وعليه بالثناء ... ورد عليه الراعى فى أدب وافر : « إن الله هو مانح كل شىء يعز من يشاء ويذل من يشاء ، ويعطى ويسلب ، له الملك ، لا شريك له » . ثم أدوا صلاتهم الخمرية فهراقوا المدامة للآلهة ، وكذلك صنع أوديسيوس ؛ وهم ميسولوس مولى يومايوس وخادمه الذى اشتراه عماله - فوزع الخبز ، ولبث يخدم ويسقى ، ويجىء ويروح ، حتى إذا فرغوا نظف المائدة وأعاد كل شىء إلى مكانه ؛ وانصرف القوم إلى مضاجعهم ليناموا ليلة ليلاء ممطرة شديدة القر ، عظيمة البرد ؛ ونام أوديسيوس قريباً من مضيفه ، ولم يكن عليه من الغطاء ما يقيه هول القرس[1] فلفق هذا الحديث للراعى الشيخ ولمن نام معه من عماله : « لله ما تصنع خمركم بالألباب يا قوم! لقد أوشكت أهذى وانتفض وأملأ شدقى بالضحك ... ولولا هذا القر لقمت فرقصت ، ولكننى محدثكم حديثا من أحاديث الشباب فيه هذيان وفيه ثرثرة ، وفيه من

---

(٢) هرمز .

(١) القرس البرد الشديد جداً .

حميا سلافكم ما فيه . ألا ما أحلى أيام الشباب وما أروعها لو رجعت !! إن لها لصدى فى نفسى يتردد ، وإنى ما عشت لن أنسى تلك الليلة القارسة الشاتية التى قضيتها فى صدر الشباب وريعان الصبى مع صديق أوديسيوس ومنلوس فى كمين تحت أسوار طروادة ، فى مستنقع آسن ذى قصب ، نرقب من عدونا فرصة تظفرنا به وتنصرنا عليه ، مقنعين فى الحديد والزرد ، صابرين لما يصفعنا به بوريس[٢] من ريح عاتيه وبرد ، ويسفعنا به من قر وبرد ، حتى انعقد الصقيع على دروعنا ، وكدت أنا أجمد ويجمد الدم فى عروقى ؛ لأنى وا أسفاه استهنت أول الأمر بما أنذرت به الحال من هذا المآل ، فخرجت فى عدتى وسلاحى ، ولم ألبس معطفى ولم ألتفع ريطتى[١] ، بينا قد احترز رفاقى فتدثروا بكل ثقيل ... وخفت أن أصبر لهذا البرد فتكون القاضية ، فهتفت بأخى أوديسيوس : « أدركنى يا ابن ليرتس النبيل فقد أشفيت على الهلاك من ذلك الزمهرير ! أدركنى بأربابك فإنى قد استخففت بالفصل الذى نحن فيه فلم أحضر معى معطفاً ويكاد يقتلنى البرد ويهرؤنى الصقيع » . وأسكتنى أوديسيوس خشية أن يسمعنا أحد فلا نفلت من الموت ، وقال لرفاقه : « أيها الإخوان ! رأيت رؤيا وبودى لو يذهب أحد إلى أجاممنون فيطلب لنا مَدَداً فلقد بعدنا عن الأساطيل ، ولسنا بخير لما ترون من قلتنا ! » ، وانبرى لها أندريمون ، فخلع معطفه وأطلق ساقيه للريح ... وأشار أوديسيوس الخبيث إلى ، فلبست المعطف واستدفأت به ، وحمدت الآلهة « أفليس فيكم أيها الأجاويد رجل رشيد ،

---

(٢) ريح الشمال أو الصبا .

(١) الريطة تشبه الكوفية .

فينزل لى عن معطفه أتق به هذا البرد الشديد وأنا فى مثل سنى وأنتم فى ميعة شبابكم ؟ ألا تفعلون ! لتكن لكم هذه اليد علىّ تفضلا أو تأدباً !» وقال يومايوس يجيبه : « لا عليك يا ضيفنا العزيز ... إنك لن تشكو برداً ولا تقصيراً عندنا ... وليس لدى كل منا إلا دثاره وصداره ومعطفه ، وليس لدينا منها كثير نباهى به ، ولسوف يعود تليماك بن سيدنا ومولانا فيخلع عليك من الملابس ما يسرك ويبهجك ؛ ولكن رويداً فسأكفيك عادية القر برغم هذا ... وبرغم ما غمزت فى حديثك ولمزت !!» . ثم نهض فجمع شيئاً كثيراً من فراء الغنم وجلد الماعز فجعله ركاماً بالقرب من المدفأ ، ثم جعل عليها ظِهارةً[1] من الصوف ، فصلحت بذاك أن تكون لأوديسيوس وسادة وثيرة ليس بها من بأس ، نام فيها فاستراح ، والتحف بفراء أُخر ، وبات ليلته والابتهاج يغمر نفسه لما رأى من حرص راعيه على ذكراه ، وحنينه للقياه ، وعنايته بقطعانه ... أما الراعى العجوز الشيخ ، فكأنما أثرت فيه مقالة أوديسيوس فهب فألق عليه سلاحه ، وأضفى على كاهله دروعه ، بعد أن خلع معطفه ، وأتزر بجلد عنز ؛ ثم أجلس بازيه الباشق على كتفه الضعيف ، وحمل حربته التى يذود بها الناس والسباع عن رعاله ، وانطلق فى العراء ، حيث جلس على صخرة مشرفة على السهل ، وذاك ليحرس القطيع النائم ... غير عابىء بقرس الريح ولا وحشة الليلة الليلاء ...

(١) ظهارة الفراش ونمطه ما يفرش عليه كالملاءة .

# عـــودة تليمـــاك

ثم رفت مينرڤا رفتيــن أو نحــوهما ، فــكانت فى وادى ليســـديمون الخصيب حيث حل تليماك ضيفاً كريمـاً على الملك منلــوس ، وحيــث وجدته يتقلب على فراش السهد والأرق ، لا يستطيع أن يغمض عينيه مـن هول ما يفكر فى أبيه ... بينما نام ابن الملك نسطور مـلء عينيه نـوماً هادئاً عميقاً على سرير مقابل لسرير الفتى المحزون .

ووقفت الربة عند رأس تليماك وأنشأت تقول له : « إلام تظل هنا فى مُهَاجرك بأقصى الأرض نائياً عن وطنك يا تليماخوس ؟ أو هـكذا رضـيت أن يأكل العشاق الفساق تراثك ويذهبوا بنعمـــاء الســماء عليــك ، ثــم لا تلبث أن تثوب إليهم من تطوافك بالآفاق بقبضة من هواء ، وخيبة مـن رجاء ! هلم هلم ! سل الملك أن يأذن لك فى السفر من فورك فقـد ألـح جدك وأخوالك على أمك أن تتزوج من الأمير يوريم ، لما اتفـق عليـه مـن مهر ضخم ، وتقدمات وافرة ، أضعاف ما وعد الآخرون ... هذا فضلا عما يوشك أن يسلب من الفُتى العزيز عليك من بيتك ، التـى تنقص مـن هنا لتزيد فيما هناك ، فإنه ليس أحب من هـذا إلى فـؤاد المرأة ، وهــى سرعان ما تنسى أطفالها من زوج شبابها ورفيق صباها من أجل زوجها الثانى الذى تود لو تهبه كل شيء . فالبدارَ البدارَ إذن ، وعد أدراجك إلى بلادك لتحفظ تراث أبيك ينفعك حين تكون لك زوجة صالحة وذرار أنجاب ببـركة السماء ورعاية الآلهة ... ثم خذ حذرك يا تليماك ، فلقـد اختبـأ زعيـم العشاق فى ثلة من رجاله بين ساموس وإيثـاكا يتـربصون بـك ويتــرصدونك

ليغتالوك قبل أن تصل إلى شاطىء الوطن . . . وإن فـألهم لخـائب ، ولن يفعلوه حتى يهال تراب الموت عليهم جميعاً . . . ألا فـارحل يـا بنـى فى ظلام الليل ، واجْنُبْ سفينتك أن تسـلك سـبيل سـاموس ، وابعـد ما استطعت عن الجزائر القريبة منها ، وسيرعاك بعض الآلهـة ، ويسـخر لك ريحاً رخاء تسارع بك إلى بلادك فإذا بلغت أول الشاطىء الإيثاكى فانزل إلى البر ، ولتسلك الفلك سبيلها من دونك ، ولتذهب أنت إلى يـومايوس راعى قطعانك الذى يحبك فأرسله إلى أمـك كى تقـر عينهـا بـأوبتك . » وما كادت تفرغ حتى زفّت[1] إلى الأولمب . وهب تليماك فأيقظ رفيقه مـن نومه قائلا : « هلم پيزاستروس ! هلم فلْسرج الخيل ونسر من فورنا ! » وقال له ابن نسطور يجيبه : « هلم إلى أين يا صاحبى ؟ كيف نختبـط فى هذا الليل الدامس ؟ ألا نصبر حتـى تشرق ذكاء . . . يلقـاك الملك فيخلع عليك ويحسن وداعك ، لتظل ذكراه الحسنة مـاثلةً إلى الأبـد فى روعـك ؟ » .

وانبلج الصبح ، فنهض منلوس الملك من حضـن هيليـن الـدافىء ، ويمم شطر الغرفة التى نام فيها تليماك ورفيقه . وما كاد تليمـاك يلمـح فى غبشة الفجر صورة الملك حتى هب مسرعـاً ، وأضـفى عليـه طيلسـانه الفاخر ، وأتزر فوقه بمئزر آخر ، ثم دلف نحو البـاب فلقـى الملك ثمـة وقال له : « بورك الملك وتعالى جـده ! تـالله لقـد آن لى أن أعـود إلى إيثاكا ، وبودى لو أذن الملك بذلك » فقـال الملك : « إنـا لا نستطيع أن نحجزك إذا كانت رغبتك أن تشد رحلك يـا تليمـاخوس ؛ وإنـه ليس

(١) زف الطائر أسرع فى طيرانه ورما بنفسه .

أشق علينا أن يقيم ضيف لدينا برغمه ، أو أن نَعْجلَه على الرحيل من عندنا . . . بيد أنه يحسن أن تنتظر قليلا حتى نهيىء لك أفخر الهدايا وأعز اللهى ، وحتى نعدها لك فى عربتك ، وسآمر نَدَاماىَ فيعدون لنا فطوراً يليق بوداع ضيف كريم عزيز مثلك ، لابد له من إكلةٍ حافلةٍ تصبر لسفر طويل يزمعه . فلو أن سفرك هذا كان خلال هيلاس ، وكنت من أجله ستجتاز آرجوس شرقاً لغرب ، إذن لسافرت معك ، ولجزت بك مدائن شتى ، ولأهرع إلينا عمال الأقاليم يقدمون إلينا الهدايا والتحف ، من صحائف الذهب وركائز الإبريز وكل كأس ثمينة ، ومن كل دابة مطهمة وجواد كريم » وأجاب تليماك فى أسلوبَ الفطين الحذر : « مولاى أتريدس ، منلوس العظيم ! تالله إنه لآثر إلى أن أرحل لساعتى ، فلقد تركت ورائى بيتاً لم أدعه فى صيانة أحد ، وحطاماً لست آمن عليه أحداً . . . وأخشى يا مولاى أن أقضى فى رحلتى هذه وراء أبى ، فلا أكون قد أبقيت على نفسى ، ولا رعيت تراثه الذى تركه لى » وأمر الملك خدمه فهيأوا الخوان ، وزودوه بما بقى من عشاء أمس ، بعد أن أضرم رئيسهم إيتون ناراً أسخن عليها ما ينبغى أن يكون منها حارًّا . . . وتوجه الملك إلى غرفته ، فلقى فيها زوجه وولده ؛ فتناول كأساً من الذهب الخالص ، ودفع لولده بدلها من الفضة ؛ أما الملكة فنهضت إلى خزانتها فأحضرت ساجاً[1] عملت فيه يدها الصناع فزخرفته وزركشته حتى بدا كسماء التمعت فيها نجوم . . . وعاد ثلاثتهم إلى حيث ينتظرهم تليماك وكلمه الملك فقال : « ذاك تذكارى إليك يا ابن أوديسيوس بودى

(١) الساج الطيلسان .

لو تقبلته ؛ وهو كأس عجيبة من صنع فلكان أهداها إلىّ البطل فيديم ملك سيدون حين حللتُ عليه ضيفاً ؛ هذا وأنا أدعو لك أن يكلأك جوف فى رحلتك بعين الرعاية ، وأن يكُتب لك السلامة والتوفيق » ثم قدم إليه الكأس العظيمة وكذاك فعل ابنه ؛ أما هيلين فقدمت إليه الساج ، وتبسمت عن فم ألذ من أقحوانة ، وقالت له : « وأنا أيضاً أدعو لك يا بنى ، وأقدم إليك سدوساً[2] من أنفس الديباج حبذا لو جعلته قنْيَةً تذخره لك أمك حتى تقدمه بدورك لعروسك ليلة زفافها إليك » وكان لكلماتها فى نفسه نشوة ، فأخذ الطيلسان وناوله ابن نسطور ، الذى عنى به ووضعه بمكانه من العربة . ثم يمموا المائدة الكبرى ، وصببت الماء على أيديهم جارية ذات حسن وأناقة وظرف ، وأخذوا بعد ذلك فى فطورهم ، بينما وقف ابن الملك يدهق الكؤوس ويشرب الخمر ، حتى إذا فرغوا نهض تليماك ورفيقه فسلما وودعا ، وركبا العربة الفخمة المثقلة بأثمن الهدايا ؛ وتناول الملك كأساً من الخمر وسار حتى دنا من الخيل ؛ فصبَّها صلاة للآلهة من أجل الراحلين وقال : « لكما الصحة والصفاء أيها الشابان اليافعان . تحياتى إلى نسطور أخى الذى كان يرعانى كأحد أبنائه تحت أسوار طروادة » فأجابه تليماك : « لا غرو أيها الملك ، فسنقص عليه آية كرمك وعظيم سخائك . . . وأرجو لو وصلت إلى إيثاكا فلقيت أبى أوديسيوس ثمة ! » وما كاد ينتهى من كلمته حتى بدا عن يمينه نسر عظيم يحمل فى مخالبه إوزة كبيرة بيضاء ، وقد حلق فى الهواء ، وجرى حوله الخدم والحشم من أهل المدينة ، بيد أن النسر

(٢) هو الساج أيضاً .

فاتهم جميعاً . . وقد زُعج الملأ الواقف لتوديع تليماك ، وبدا الهلع فى وجه بيزاستراتوس ، فسأل الملك فقال : « ليتفضل الملك فيحدثنا عن هذه العلامة إذا كانت من أجلنا أو من أجل مولانا » ولكن الملك لم يحر جواباً لفرط دهشه . . فلما لحظت حيرته هيلين زوجته ، تكلمت فقالت : « أيها الملأ اسمعوا وعوا ، فإنى أحدثكم كما علمتنى الآلهة . . تا الله إن هذه لآية ، فكما غلب ذاك النسر أولئك الناس ، وذهب بتلك الأوزة البيضاء ، فهى له ، فكذلك يعود أوديسيوس من تجواله وطويل ترحاله إلى إيثاكا ، فيبطش بأعدائه الذين استباحوا عرضه وعشقوا زوجه ، ويخلوا له وجه بنلوب » وانتفض تليماك من شدة ما أثرا فيه كلمات النبوءة أعبدُك ، وأكتب لأبى السلامة أخبتُ لك ، وأكتب لى أن عود إلى بلاده فألقاه ثمة تكن لك صلاة دائمة وذكر متصل يا إله السموات !» ثم حيا الملك ، وألهب الجياد فانطلقت تنهب الرحب . . .

ولم يزالا على سفر طوال يومهما ، حتى بلغا قصر ديوكليوس مع مغيب الشمس ، فضيّفهما وباتا ليلتهما عنده ؛ وما كادت أوروا تنضر جبين الشرق بالورود حتى هبا مسرعين ، وودعا مضيفهما الكريم ، وواصلا رحلتهما . . . وكان ابن نسطور قد أخذ بأعنة الخيل فجعلها تنساب حتى لكأنها تسابق الريح . . . ولما بلغا أبواب بيلوس قال تليماك لصاحبه وهو يحدثه : « أنت عذيرى يا أعز الأصدقاء إذا سألتك أن تصل بى إلى السفينة من غير أن تتوجه إلى بيتكم للقاء أبيك ، فقد يكبر علىّ أن أرفض نُزُله ، وأستأنى بذلك عنده ، فى وقت أنا فى أشد الحاجة إلى العودة إلى

الوطن ... على أننى سأحفظ لك فى أعماق ذكرى خالدة لا تمحى ، زادتها هذه الرحلة الحزينة جمالا ، وعقد أواصرها ما بين أبوينا من السود ، وما بيننا من اتفاق السن ، وصفو المودة وجميل الإخاء » وتردد ابن نسطور أول الأمر ، بيد أنه لم يستطع إلا أن يلبى رجيّة تلماك ، فثنى أعنة الخيل إلى الشاطىء حيث كانت تنتظره الفلك ، فنقل فيها متاعه ، ثم ودعه صديقه وعقرت القرابين باسم مينرفا ، وصلى لها الجميع وسبّحوا سبحاً طويلا ... وإنهم لكذلك ، إذ بشاب طويل مفتول العضل يتقدم إلى تلماك ، فيخبره أنه قاتل آبق [1] ، وأنه يلوذ به ، وأن اسمه تيوكليمين ، وأنه يرجوه فى أن يسافر معه . فهش له وبش ، وأخذ سلاحه فألقاه فى السفينة ، وأذن له فى الركوب ، وجلس الرجل مع تلماك عند مؤخر السفينة ، فى حين كان الملاحون يهيئون القلاع ، وينشرون الشراع ، ثم أقلعت الفلك ، وأرسلت مينرفا بين يديها سَجسَجاً تدفعها فى رفق ، وتطوى تحتها الماء فى حدَب ، وكانت الشمس تتوارى بالحجاب ، وكان الليل يلق سدوله فوق الكون ... وما هى إلا عشية حتى مرت السفينة بفيريا ، ثم بإبليس ، وجوف فى كل ذلك يحرسها ويرعاها ..

هذا ما كان من أمر تلماخوس الفتى .. أما ما كان من أمر أدويسيوس وراعيه ، فقدكانا يلتهمان فى هذا الوقت طعامهما ، وما كادا يفرغان من ذلك حتى أحب أوديسيوس أن يرى لنفسه إذا كان الراعى قدضاق به ذرعا فينطلق من لدنه ، أو هو كريم ذو نخوة ونحيزة فيبقى عنده ، فنهض يقول :

---

( ١ ) نضرب صفحا عن قصة هذا الرجل لبعدها عن هذا الموضوع .

« أيها الراعى يومايوس ... وأنتم أيها الأصدقاء الرعاة .. اسمعوا وعوا ... تالله إنى لأخشى أن أرهقكم بضيافتى أو أثقل عليكم بلبثى عندكم طويلًا ، فرجائى إذا انفلق الإصباح أن يقودنى أحدكم إلى المدينة لأستجدى وأتكفف ، فلن أعدم فيهم من يتفضل على ببلغة أو كسرة أو جرعة ماء ... ولسوف أيمم شطر بنلوب ، وعسى أن أستطيع لقاءها لأبلغها أنباء أوديسيوس ، فإذا لم أستطع فلن أعدم عملا فى خدمة العشاق ، لأنى والله المحمود ولى من أولياء هرمز رسول السماء ونصير الضعفاء ، ولن أضيق بتكسير الخشب ، أو إضرام الحطب ، أو حمل الكاس والطاس ، أو القيام على الشواء ... أو ما إلى هذا وذاك من عمل الفقراء البائسين » واهتز يومايوس إشفاقاً وقال : « أيها الرجل ماذا تقول ؟ أتجازف بنفسك فتلق بها إلى التهلكة وسط هؤلاء الناس ؟ من أنت أيها الفقير حتى تحسبك تقدم الخمر لهم أو تخدمهم ، ولهم خدم شباب غَرّانيق ، وندامى كالكواكب نضرةً وجمالاً ... وحَشَم يلبسون أحسن الوشى وأفخر الحرير والديباج ... لتبق معنا أيها الشيخ فلن نضيق بك ، وحين يعود سيدى تلماك فإنه يكسوك ويسبغ عليك ، ويبعثك مكرماً معززاً أنى شئت » . وشاع البشر فى أعطاف أوديسيوس فقال : « شكرا لك يا يومايوس ألف شكر ، وجزاك الله عنى أجزل الخير ، بما كفيتنى شر السؤال وذل الاستجداء ، وليس شراً منهما على نفس أبية قاست الأهوال ولا تزال تقاسى ... بيد أن لى مسألة عندك بودى لو جلوتها لى : ألا يزال والد أوديسيوس حياً يرزق ؟ وهل لا تزال أمه بخير ؟ أما انهما اليوم من أهل الدار الآخرة ؟ لقد غادرهما أوديسيوس يوشكان أن يطرقا باب

هيدز ، فهل عندك من أخبارهما شيء ؟» . قال الراعى : « ومالى لا أصدق أيها الشيخ » إن ليرتيس ـ إبا مولاى ـ لا يزال على قيد الحياة .. لكنها حياة شاقة أنقضت ظهره ، وأنفدت صبره ، وهو ما يفتأ يضرع للآلهة أن تخلصه منها بالموت . . . إنه قد فقد أحسن آماله حين فقد حامى شيبته الذائد عن شيخوخته ، ولده أوديسيوس ، وقد عجل له الشقاءَ موتُه ، وحياتُه هو من بعده ، فهو ما ينى يبكيه ، وما ينفك يُساقط نفسه حسرات عليه . . . أما أمه فقد قضت من أسى وحزن وطول بكاء ، قضاءً ما قضى كأعز من أمى لأنها نَشَّأتنى صغيراً ، ورعتنى كبيراً ، وكانت تحبنى كمحبة ابنتها ستيمينا التى تزوجت أحسن زيجة فى ساموس من كفء مهرها أحسن مهر وأعلاه . . . أبداً لا أنسى أنهم البسونى أحسن اللباس ، وأعطونى نعلين جديدتين ، فرحا بزواجها ، ثم أرسلونى إلى الحقل ، ولكنهم لم ينقصوا من محبتى . . . لقد عاشت مولاتى بعد أوديسيوس معيشةً شقية كلها آلام ، وكنت أواسيها وأعزيها ، ولكنها ما انتفعت قط بعزاء ، ولا استروحت إلى سلوة ، حتى ماتت وهأنذا أبكيها كلما ذكرتها ، وقلَّ أن أنساها ، على أنى أحمد السماء على ما وألتنى من خير ، وأسبغت علّى من نعم ، هى حسبى وحسب الضيف الذى يغشانى . . . على أنى أعذر مولاتى وسيدتى بنلوب إذا لم أر منها عطفا علّى ، لأنها فى شغل بحالها وسط هؤلاء الأوغاد المعاميد . . . وهىّ بالرغم من ذلك تولى خدمها المقربين منها نصائح غاليةً تنفعنا جميعاً . . . ثم هى لا تنسى أن تنفح الكثيرين منهم مما يفرحون به من آلاء وأعطيات ، غير ما يأكلون وما يشربون » . وكأنما أراد أوديسيوس أن يتهكم عليه ويسخر به فسأله عن بلده ووالديه ، وعن القوم

الذين أخذوه عنوةً ، وفى أى سفينة جاءوا بــه ، وبــكم بــاعوه لأهــل أوديسيوس ، فقال الرجل : « أيها الصــديق أعـرنى أذنيــك ، وارشــف خمرك ، أقص عليك قصتى ، فالليل طويل ، وفى جنحـه يحلـو السـمر ، وليس أشهى من أن يروى ذو أشجان ، وأنتم أيها الإخوان ، من كان منكم فى حاجة الى النوم ليصحو مبكراً فليذهب ولينعم بالكرى ... ثم أحسـبك سمعت أو عرفت جزيرة سيريا التى عند أورتيجيا ... إنها جزيرة صـغيرة ، لكنها غنية بأغنامها وماشيتها وقمحها وأعنابها ، كما اشتهرت بهوائها العليل ، ومناخها الجميل ، وصفوها وطيب ريـاها ... لـذلك لا تعـرف أبـدان أصحابها الأوصاب ، بل يُعَمَّرون حتى يأتيهم أبوللو[1] فيصيبهم بسـهامه ، وتعجل أرواحهم إلى هيدز ، ويقتســم أرض الجــزيرة أهــل مــدينتين عظيمتين ، كانتا تخضعان لسيطرة أبى الزعيم العـظيم سـتريوس أورمينـد .. وحدث أن أرست فى شاطئنا سفينة فينيقية محملـة بـالطرف والتُحف ولعـب الأطفال ، من صناعة الفينقيين ؛ وحـدث أن كَانـت فى بيـت أبى جـارية قسيمة وسيمة ذات حسـن وذات دلال ، كانـت تقف على سـيف البحـر لبعض شئون المنزل ، فرآها بعض ملاحى المركز واستطاع أن يخدعها بـكلام معسول ذى طنين وذى رنين ؛ ثم سألها من هى ، ومـن أى البـلاد أقبلـت إلى هذه الجزيرة وكان الخبيث يمزج ألفـاظه بنظرات الابـالسة ، وغمـزات الشياطين وابتسامات الغزل ، فانقادت له ، ضعيفة كبنى جنسها إذا نصبت لهن شراك الهوى ، وجذبتهن أحابيل الغرام ، وقد أخبرته الغـادة أنهـا مـن

---

( ١ ) تضيف بعض النسخ ديانا - وهذه أول مرة نرى فيها أبوللو يقوم بوظيفة عزرائيل فى الأدب اليونانى ، لأنها وظيفة هرمز ( مركيورى ) خاصة ( المترجم ) .

سيدون المشهورة بصناعة الصلب والنحاس وأن أباها أربياس الفلاح ، وأن بعض القرصان قد اختطفها حين كانت عائدة أدراجها من حقله ، وباعها لصاحب تلك الجزيرة بأبخس الأثمان ، وقد أغراها الملاح بالعودة معه إلى بلدها على فلكه ، وبالفرار من حياة الرق والعبودية للقاء الأهل والأحباب والأبوين الثريين اللذين كانا لا يزالان حيين يرزقان .. فاستحلفته المسكينة إذا كان جاداً فيما قال ، فحلف لها ، واستقسمته إذا كان أميناً غير ذى غرض أو لبانة ، فأقسم لها ؛ ثم تعاهدا على ذلك وقالت له : « والآن فلا يذكر أحد من أمرى معكم شيئاً لأي من أهل المدينة ، حتى لايفشوا السر ويعلم به صاحبى ، فيكون فى ذلك وبالى ووبالكم وهلاكى وهلاككم .. بل أمضوا فى بيع بضاعتهم وشراء ما يلزمكم ، ثم إذا عزمتم أن تفعلوا فابعثوا أحدكم إلىّ بقصر صاحب الجزيرة ، فانى مرضع ابنه ، وهو الآن يحبو ، بل يدرج ، وانى محضرته معى فانه سينفعكم ، بل تستطيعون بيعه فى أحد البلاد ببعض المال ، وسأحضر معه كل ما نستطيع يدى أن تحمل من آنية وأكواب من خالص الذهب وغالى الفضة ، مما يخف حمله ويعلو ثمنه » وعادت البائسة إلى قصر أبى ... ولبث الملاحون عامهم كله فى مرفئنا يبيعون ويشترون ، حتى إذا حال الحول أو كاد ، حضر واحد منهم إلى بيتنا يبيع بنيقة[1] من ذهب وكهرمان ، فالتف حوله وصيفات القصر ثم حضرت أمى فاشترت بضاعة الرجل الخبيث ؛ الذى استطاع أن يومىء إيماءته المتفق عليها إلى مرضعى فلما انصرف من فى القصر من أضياف ، وذهب الخدم إلى شغلهن قادتنى مرضعى التاعسة من يدى فمرت

(١) بوزن سفينة ولا تشدد ، هى ( الياقة أو الكولة ) .

بى فى غرفة الزائرين ، حيث كانت أكواب الشراب لا تزال على المائدة فدست منها ثلاثة فى ثيابها ثم ذهبت بى - وأنا طفل لا أدرك - إلى المرفأ ، حيث ركبت معها فى سفينة الفينيقيين ، فأقلعوا ساعة الغروب .. ودفعتنا ريح عاصفة طيلة ستة أيام ، وفى صبيحة اليوم السابع ، أرسلت ديانا سهاما مسمومة إلى صدر المرأة - مرضعى الآبقة - فماتت لساعتها - ووضعوا جثمانها فى سأب[2] ثم قذفوا بها فى اليم ، طعمة غير سائغة للأسماك ، ورحت أنا ، لفرط حبى لها ، أبكيها وأعول من أجلها ... ثم دفعتهم الريح والموج إلى شاطىء إيثاكا ، حيث ابتاعنى صاحبها العظيم ليرتيس ، وبقيت فيها إلى اليوم » وألم أوديسيوس لما قص الراعى وتوجع ، وواساه بكلمات طيبات ... « فلقد وصلت فى رعاية جوف إلى سيد رحيم ورجل بر ، كفل لك الهناءة والحياة الهادئة ... أما أنا ، فلا أزال موكلا بفضاء الأرض أذرعه ، وببلد ألبسه وآخر أقلعه » ... ولم يناما طويلا ، فقد قطع حديثهما حبل الليل .... أما ما كان من أمر تلياك ورجاله ، فقد وصل ملاحوه سالمين إلى الشاطىء الايثاكى ، وأرسوا ثمة ، وربطوا حبالهم فى أوتاد المرفأ ، ثم اجتمعوا إلى فطورهم فأكلوا وشربوا .. فلما فرغوا أمرهم تلياك أن يذهبوا هم إلى المدينة ، « ... أما أنا .. فذاهب لبعض شأنى فى المراعى القريبة وسأعود قبيل الغروب ؛ وفى الغد ، سأسقيكم سلافة الأوبة التى تذهب عنكم وعثاء هذا السفر » . ونهض تيوكلمين ( الشاب الآبق ) فاستأذن فى الذهاب بالبشرى إلى والدة تلياك ، ولكن

---

( ٢ ) الساب والمساب وعاء كبير للزيت او الخل وهو الزق ولم نجد مرادفا لكلمة ( برميل ) المعروفة فاستعملناه .

تلماك قال : « كلا يا تيوكلمين ، لا أريد أن تعلم أمى بقدومى اليوم ، فابق مع رجالى هؤلاء حتى لا تقع أبصار العشاق المناكيد عليك ؛ وإن شئت فاذهب إلى أحدهم ، يوريماخوس ، فهو أعظمهم قدراً وأنبههم ذكراً ، وهو الذى يحاول جاهداً الزواج من والدتى ، والجلوس على عرش أبى ، فاربط حبالك بحباله . . . أواه يا أرباب السماء ! حنانيك يا چوف ! بعداً لهذا الزواج ، وبعدا لمن يحلمون به !» وما كاد يفرغ من حديثه حتى بدا إلى يمينه بازى باشق - هو من غير ريب رسول أبوللو الأمين - وقد أمسك فى مخالبه حمامة بيضاء فظل يُدَوِّم ويرنق حتى إذا كان بين الفلك فى اىبحر وتلماك فى البر نثر خوافيها فى الجو ، فنزلن بالقرب من تلماك - وهنا - تكلم تيوكلمين فقال : « تالله إنها لآية من السماء يا سيدى ، إنك ابن أعظم من فى هذه الأرض ، وإن بيتك أعرق بيوتها ، وستظفر كما ظفر آباؤك » وشكره تلماك ، وتمنى لو صدقت نبوءته ، ثم أوصى به أعظم رجاله وأخلصهم له - كليتوس - فاهتزت أريحية الرجل ، ووعد أن يكون له كسيده ( تلماك ) حتى يئوب . . . وسلم تلماك - ومضى للقاء يومايوس ثم أقلعت السفينة بمن عليها إلى المدينة .

# أوديسيوس يلقى تليماك

لقد كانت هَدْأة الفجر الساكنة الجميلة حينما هب يومايوس وضيفه من نومهما ليلبسا ثيابهما ويعدا فطورهما ، وليرسل الراعى عماله وراء قطعانه النائمة فى السهل الصامت الوديع ... وحينما أقبل تليماخوس أهرعت إليه الكلاب تلحس ثيابه وتعلق قدميه ، وتهتز من نشوة وطرب لأنها رأته بعد طول الغياب ... وقد لحظ أوديسيوس ذلك فقال يتحدث إلى الراعى : « يومايوس ! هذا أحد معارفك أو الأوداء إليك مقبل ... لشد ما تتملقه الكلاب التى أوشكت من قبل أن تعقرنى ! إنها لا تنبح ولا تكشر ، بل تقع فى إثره ذليلة !» وما كاد يفرغ من حديثه حتى كان ولده واقفاً أمامه فى رحبة الدار . وما كاد يومايوس يلمحه ، حتى هب من مقامه مسبوها مرتبكا ، وحتى انقذفت الأكؤس التى كان يمزج فيها الخمر من يديه ... بيد أنه ذهب إليه يقبله ، ويبالغ فى تقبيله ، كأب مشوق لقى ولده فجأة بعد بضع سنين من مرارة البعد وألم الفراق ! ثم قال يكلمه : « أواه تليماخوس ؟ أهو أنت يا نور عينىّ ؟ أنت نفسك ؟ أوَ قد عدت ؟ تالله ما كان يخطر بخلدى أنك عائد من سفرك بعد الذى دَبَّروا لك ! هلم يا حبيبى ! تعال يا بنى ! فلقد عادت روحى من سفر سحيق برؤيتك ... تعال تليماخوس فما أندر ما تزورنا هنا لطول اشتغالك بالمعاميد المناكيد !!» وقال تليماك يجيبه : « أجل أيها الصديق ؛ غير أننى أتيت لأسألك عن أمى ! ألا تزال مخلصة لذكرى أوديسيوس ، قائمة

على عهده ، أم أنها هجرت مهاده لتقع فى شرك من شراك العناكب المحدقة بها ؟! » وأجابه الراعى فوصف له ما تلقاه الأم المحزونة من الضنى والحَزَن ، وما تذرف من الدموع فى جنح الليل لما يرميها به الحِدْثان ... ثم دخل تليماك بعد أن أخذ الراعى حربته ، فنهض أوديسيوس ليخلى لولده مقعده ، فأبى تليماك ... « لأن المكان فسيح ، ولأن يومايوس يستطيع أن يعد لنا مقعداً آخر ... فوالله لتجلسنّ أيها اللاجىء الكريم !» . وهيأ الراعى لسيده مقعداً من الحشائش الغضة والحلفاء الرطبة جعل عليها فروة كبيرة مما عنده ؛ وجلس تليماك ... وأحضر يومايوس فطوره فى أطباق من أطباق أمس وشيئاً من الخبز والخمر ؛ ونشر الصحاف على الخوان أمام مولاه ، وأخذ الثلاثة يلتهمونها أكلة مريئة هانئة ... حتى إذا فرغوا ، توجه تليماك بالحديث إلى راعيه فقال : « ممن ضيفك يا أبتاه ! ومتى وصل إلى إيثاكا وكيف ؟ وأى الملاحين حملوه إلى شاطئنا ؟» . قال الراعى : « والله يا بنى ما أستطيع أن أخفى عنك ما قال ؛ فهو يدعى أنه من نسل الأماثل الأمجاد من أمراء كريت ، وأنه طوف فى الآفاق ، وسافر فى البلاد ورأى من المدن ما لا عين رأت ... وهو يقول إن فلكاً قبرسيا قد حمله إلى شاطئنا قبل أن تحمله رجلاه إلى كوخى هذا ... ولكن ... لم هذا ؟ ولم أتولى أنا الإجابة ؟ إنه أمامك وأنا أدع أمره لك ، فاصنع به ما تشاء إنه لائذبك ، قاصد بابك ، وأحسب أن له حاجة عندك !» وبدا الألم فى محيا الشاب فأجاب : تالله لقد آلمنى حديثك أيها الأب يومايوس ! أنت تجعله لائذاً بى قاصداً بابى ، وأنت تعرف من حالى ما تعرف ، وتعلم

أننى مُرزَّأ بهذه الطغمة ، مشغول بوالدتى التى لا أستطيع أن أدفع عنها إصر هؤلاء الأنجاس المناكيد ، الذين طال لبثهم حولها ، وتوقحهم بسببها ، حتى لأخشى أن تضيق بهم فتختار مرغمة ، أفضلهم بعلا لها ، أو أكثرهم عطاء ، وأوسعهم ثراء ... بيد أننى أوثر أن أمنحه دثاراً وصداراً ، ونعلين ، وسيفاً جُزراً ، ثم أرسله إلى أى أقاليم العالم شاء ، فى حمايتى ... وإن أَحَبَّ ، فليبق فى ضيافتك أنت ، وسأرسل إليه ما هو حَسْبُه من طعام وشراب خشية أن يرهقك ، أو أن تضيق به ... أما أن يصحبنى إلى القصر الذى تعلم من أمره ما لا تعلم ، فذاك ما لا أرضاه له ... فقد يغمزه أحد بكلمة فيجرحه ، وأُجرح أنا بسببه ، وأنت لا يخفى عليك أننى صغير/ لا أستطيع مهما أوتيت من الشجاعة أن أرد عادية هؤلاء الأوغاد » ، وتولى أوديسيوس الإجابة فقال : « أوَّه أيها الحبيب الطيب القلب ! لشد ما تتمزق نياط قلبى لما سمعت من أمر هؤلاء العشاق الأشقياء الذين يستبيحون منزل فتى كريم مثلك ! ولكن قل لى ، إذا أذنت أن أتكلم فى هذا الشأن : هل عن رضي منك لصقوا بمنزلك فما يريمون ؟ أم برغمك أيها العزيز ؟ أليس لك إخوة يسندونك ويشدون أزرك فتطردهم من بيتك ؟ أواه لو عاد لى شبابى الآن أواه ! وآه لو عاد الآن أوديسيوس ! تالله لو أننى فى حالك هذه لآثرت أن أمتشق سيفى فى وجوههم فإما أن أطهر بيتى منهم ، وإما أن أخر قتيلا بينهم فلا تقع عينى على ما يصنعون ، ولا أرى إلى عيثهم وعبثهم بكل ما فى منزل أبى من خير ومَيْر ، السنين الطوال ! » فقال تليماك : « ليس سراً أيها اللاجىء الكريم ما بينى وبين قومى ، وليس منهم من يضمر لى

عداوة أو يطوى جوانحه لى على حقد ... أما الأخوة والأشقاء فليس فى أسرتنا من رزق هذه النعمة ، بل هذا دأب عائلتنا منذ القدم ؛ ذلك أرسسْيَاس لم ينجب غير ليرتيس ولم ينجب ليرتيس غير أوديسيوس ، وهذا لم ينجب غيرى ... أنا ... هذا المرزأ المحزون الموجع القلب ... من أجل ذلك طمع هؤلاء الطامعون فينا وتكالبوا على بيتنا من كل فج ، فأقبلوا من ساموس ودلشيوم وزاكنتوس وأطراف إيثاكا ، ومن الجزر الكثيرة المنتثرة فى هذا البحر ... كل يرغب فى أن تكون أمى له من دون العالمين زوجة برغمها ، فهم مقيمون لا يريمون ، آكلين ناعمين ، يستنفدون غلة ما ترك أوديسيوس ، آتين على كل ما فى بيته وخزائنه ، ويوشكون أن يأتوا على أنا الآخر !» ثم أمر يومايوس أن يذهب إلى القصر فيخبر أمه بعودته سالماً من بيلوس ؛ فذكره يومايوس بجده الضعيف الشيخ الذى امتنع عن الأكل والشراب منذ أن رحل تليماك يسائل عن أبيه ... وذلك مما أضواه من الهم ، واستأذنه فى أن يمر عليه فيخبره بعودة مولاه حتى يطمئن هو الآخر . ولكن تليماك أمره بأن يذهب من فوره إلى القصر فيخبره ... وانطلق يومايوس ... وكانت مينرڤا تنتظر ذهابه لتبدو لأوديسيوس فى صورة حسناء ذات وقار وحسن سمت ، وقد أخذت الكلاب بروعة مرآها فتكبكبت فى أحد أركان الحظيرة ، وراحت توقوق وتهر [1] مما شدهها من منظر مينرڤا ، وقد لفت فعلها أوديسيوس فهب مسرعاً إلى ربة الحكمة التى قالت له : الآن ينبغى لك أن تكشف نفسك لولدك فتقفه على حقيقة الأمر ، ثم تذهب معه إلى المدينة وفى

(١) الوقوقة صوت الكلاب إذا خافت والهرير صوتها إذا أنكرت شيئا .

قبضتك الموت. الزؤام تُجَرعُه صاباً ويحموماً للعشاق . وسأكون دائماً معك ، وسأشرف على المعركة بنفسي » ولمسته بعصاها السحرية فارتد إلى صورته الحقيقية ، وعاد إلى الكوخ فى حلته الضافية التى كانت عليه من قبل . . . فلما رآه تليماك شُده وفَرِق وقال له : « أيها النازح الغريب ماذا أصابك ؟ لقد تبدلت أيما تبدل ! خبرنى أرجوك وأتوسل إليك ، أأنت إله كريم فنعقر لك القرابين ونذبح من أجلك الأضاحى ؟» قال أوديسيوس : « ليفرخ روعك يا بنى فما أنا إله إن أنا إلا بشر ، وإن أنا إلا أبوك الذى ذهبت تذرع الدنيا من أجله والذى بسببه غصصت بكل هذه الآلام ، وصبرت للؤم هؤلاء الناس !» ثم ضم إليه ولده وطفق يقبله ويذرف دموعه على خديه !! بيد أن تليماك لم يصدق وراح بدوره يقول : « أبى ؟ لن تكون مطلقاً أبى ! بل أنت إله تنزل من السماء ليعبث بى ، وليزيدنو شقوة وأشجاناً ! أى بشر يستطيع أن يصنع ما صنعت ، وكنت منذ لحظة عجوزاً منحنى الظهر مجعد الوجه غائر العينين ، تلوح فى مِزَقٍ وأسمال ، ثم تخرج هنيهة وتعود فى هذا البدن الفينان وذاك المظهر الفتان الذى لا يكون إلا للآلهة ؟ فقال أبوه : « أى بنى أنا أوديسيوس ، ولن يرجع إليك أوديسيوس آخر سواى ! اطمئن فقد صنعت مينرفا ما رأيت بأبيك ، وما صنعته أنا بنفسى إنها ربة ولها القدرة على كل شىء ، ففى وسعها أن تظهر من تشاء فى صور شتى ، وليس هذا على أثينا بعزيز » وأحس تليماك ما كان يشيع فى كلمات أبيه من حرارة وإخلاص لا يصدران إلا عن قلب أب ، فانطلق يبادل والده عناقاً بعناق ، ودمعاً بدمع ، وقبلات بقبلات ! ثم سأله كيف عاد إلى الوطن بعد كل تلك السنين الطوال ، فقص عليه

قصته ثم قال له : « ولكن حدثنى أنت عن أمر أولئك العشاق الأوغاد ما عددهم ، وهل نستطيع كلانا أن نقف لهم فنظفر بهم ؟» فأجاب تليماك : « أبتاه ! لقد سمعت الثناء على شجاعتك وسعة حيلتك وجليل حكمتك فى كل ملحمة وبكل نقع ... ثناءً يلهج به فم الدنيا جميعاً ! بيد أنه ينبغى ألا نجازف هذه المجازفة التى لا نعرف ماذا وراءها ... إذ ماذا يصنع اثنان بعشرين ومائة من خيرة صناديد إيثاكا وما حولها ؟ الرأى أن نفكر فى أنصار يشدون أزرنا ويكونون عوناً لنا » فقال أوديسيوس وهو يبتسم : « وما قولك يا بنى فى اثنين الله - جوف العلى - ثالثهما ، ومينرفا نصيرتهما على القوم الظالمين ؟ أإذا كان هذان معنا ، أفنحتاج إلى عون آخر ؟» فقال تليماك : « بلى ... تعالى جوف وجلت مينرفا ... إن لهما لأيدياً فوق أيدى الناس لأنهما يحكمان من فوق عرشهما الممرد فوق السحاب ، فى الأرض وفى السماء على السواء . » وقال أبوه يزيده طمأنينة : « وسيكونان معنا فى الحلبة حين يجد جدها ... فإذا كان الصباح فاذهب إلى القصر واختلط بالعشاق وسيقودنى راعينا الأمين إلى هنالك ، متنكراً فى صورة الشحاذ الفقير الذى رأيت ، فإذا فرطوا علىّ فلا تأس ، حتى ولو كان فرطهم بالضرب والسباب ... ويسرنى أن تحتمل وتصطبر ، فإذا زادوا فاصرف عنى أذاهم بكلمة طيبة حتى يحكم الله بينى وبينهم حين يحين حينهم ... وأحذر أن تخبر أحداً بعودتى حتى ولا أبى ... بل على الأخص أمك بنلوب أو هذا الراعى يومايوس ... إذ ينبغى أن نستعين على أمرنا بالكتمان حتى نعرف أصدقاءنا ونخبر أعداءنا !» وطمأنه تليماك وأكد له كل شئ ... ثم وصل يومايوس إلى

بنلوب فأخبرها بعودة تليماك ، وذاع النبأ بين العشاق فذعروا ، لفشل مؤامرتهم ضده ، وانتشروا خارج القصر ، واعتزموا أن يبعثوا نفراً منهم بهذا النبأ إلى الطغمة التى ذهبت تتربص بالفتى لتغتاله إذ هو عائد من بيلوس ... ثم اجتمعوا يمكرون السيئات ، ويدبرون قتل تليماك حين تتيح فرصة أخرى . وكان ميدون قريباً منهم فاسترق سمعهم وطار به إلى بنلوب التى هالها ما مكروا وما دبروا ، فذهبت فى جميع وصيفاتها إلى رحبة القصر ، حيث اجتمع أعداؤها إلى شياطينهم ، فصاحت بزعيمهم أنطونيوس من وراء حجابها قائلة : « أنطونيوس تبت يداك يا ألأم الناس ! أنت من يدعونك التقى الصالح وأنت أسفل مما يظنون طوية وأخبث سريرة ! كيف حدثتك نفسك بهذا التدبير السيىء فترسم لأشرارك قتل ولدى الذى لم يعد لى فى الحياة رجاء غيره ؟ ألإنه ضعيف بنفسه ؟ ألا فاعلم أنه قوى بالله الذى ينتقم لعباده من الظالمين ! أيها اللئيم ، أبمثل هذا تجزى جميل أوديسيوس الذى حال مرة بين أبيك وبين أعدائه معرضاً بنفسه للتهلكة ، ولولاه لظفروا به ، ولولا أن قتل منهم من قتل وصرع من صرع لعجلت روحه إلى نيران هيدز وبئس القرار ؟ أفلم يكفك ما تأكل بغير حق من زاده ، وتعبث غير عابىء بعتاده ، فترسم لأشرارك غيلة ابنه ؟» وانبرى يوريماخوس يهدىء من ثورتها ويطمئنها أن أحداً من العالمين لا يستطيع أن ينال تلياك بأذى مادام هو حياً يدب على قدمين ... وكان يتكلم برغم ما كان ينطوى عليه قلبه ... لأنه كان من أكبر المتآمرين على حياة ابنها العزيز الحبيب ...! وبعد أن توارت أوروريا عاد الراعى إلى حظائره يدب على عكازه ؛ وكانت مينرفا قد لمست

أوديسيوس بعصاها السحرية فعادَ إلى صورة الفقير الشحاذ وعادت إليه مزقه وأسماله ، فوجد سيده وضيفه الفقير يعدان عشاءهما . ولما لمحه تليماك قال له : « ما وراءك يا يومايوس الصالح ؟ أعلمت عن الطغمة التى استأنت فى ساموس تتربص بى شيئاً ! » فأجابه الراعى : « تالله لا علم لى بشىء يا مولاى ، فأنا لم أنتظر طويلا فى المدينة لأتسقط الأنباء ، لأنك أمرتنى أن أرتد على عجل ؛ بيد أننى لمحت مركبا يطوى البحر إذا أنا عائد ، ويدخل المرفأ ، وفيه من العدة والعدد ما يبهر النظر ويخطف البصر ، وأحسب أنهم هم الأمراء الذين تعنى ، غير أننى لا أجزم بهذا » .

ونظر تليماك إلى والده مبتسما ، محاذراً أن ينتبه الراعى إلى شىء .

* * *

## أوديسيوس فى قصره

ونضرت أورورا جبين الشرق بالورد ، وخضبته بالشفق ، فهب تليماخوس من نومه الهانىء الهادىء الموشى بالأحلام ، فلبس وانتعل ، واخترط سيفه ثم قال لراعيه : « أيها الأب الصديق ، إنى متوجه إلى المدينة لألقى أمى ، فأكبر الظن أنها لن يرقأ لها دمع ولن تخفت لها آهة حتى ترانى . . . أما هذا اللاجىء . . . فرأيى أن ينطلق إلى المدينة فليسأل الناس وليطرق الأبواب ، ولن يعدم إذا تكففهم أن ينال رزقه ويحصل على لقمات يتبلغ بها . . . إن لدى من المتاعب والمشاق ما يشغلنى عن كل جوّاب آفاق . . . إمض به إلى المدينة إذن ؛ فإذا

آلمه هذا ، فهو حر . . . إنى رجل لا أعبأ أن أقول الحق ! » فنهض أوديسيوس ليقول : « سيدى ! إنى لم أبغ أن أتلبث هنا ، فليس لشحاذ فقير مثلى أن يلتمس رزقه فى الحقول والغيطان ! بل إنى منطلق إلى المدينة ولست مقعداً أو ضعفاناً فلا أقوى على عمل يؤجرنى عليه أحد أمرائها . . . تفضل أنت فاذهب لطيتك ، وسأمضى أنا مع خادمك حين تمتع الشمس قليلا ، فأنا كما ترى رجل شيخ ، وأخشى أن يقتلنى برد الصباح وصقيعه ، وليس ما يحفظنى منهما إلا ماترى من مزق مضى أصلها وبقى رقعها! » . . . وانطلق تليماك فبلغ القصر ، ولقى أول من لقى مرضعه يوريكليا ، حيث كانت وأترابها ينشرن فراء على كراسى وحمالات مبعثرة فى الردهة . . . فلما رأته عجلت إليه ورحبت به وسلمت عليه ، وانطلقت الدموع من عينيها فانعقد لسانها وانحبس منطقها ، ثم اجتمع الجوارى يقبلن تليماك ويحدقن به حتى لفتن نظر الأم المعذبة المحزونة المطلة من إحدى شرفات القصر ، فأهرعت من عل وأخذت فى حضنها المحب الرحيم أعز الأبناء ، وأمطرت جبينه وخديه بالدموع والقبل ، ثم جعلت تقول له : « أوقد عدت إلى الوطن يا نور عينى ! تليماك ! تالله لقد وقر فى قلبى أننى لن أراك بعد إذ أبحرت إلى بيلوس برغمى ، وعلى غير علم منى ، لتتسقط أنباء أبيك . . . ولكن . . . خبرنى يا بنى ماذا عساك سمعت » فقال الفتى : « أماه ! لم تعودين بذاكرتى إلى عبوس الحياة وقد أفلتُّ من الموت ؟ أولى لك ثم أولى أن تضفى عليك من أفخر أثوابك ، ثم تصلى للآلهة أن تهيىء لنا يوم انتقام عادل لا يبقى ولايذر !! بيد أنه ينبغى أن أذهب الآن لألقى ضيفاً كريماً

عزيزاً جداً على - عزيزاً جداً على يا أماه ! - حضر معى فى سفينتى أمس ، وقد أرسلته مع من يضيفه عنى حتى أعود فأضيفه أنا نفسى »

وذهبت بنلوب فصلت طويلا للآلهة ، وانطلق تليماك فلقى تيوكلمنوس وعاد معه إلى القصر ، وجلسا يتحدثان ، بينما أحضر أحد الخدم مائدة حافلة بألوان الطعام وأطيب صنوف الشراب ، فوضعها أمامهما . . .

وأقبلت بنلوب فجلست لدى الباب تنسج ثوبها الذى لا ينتهى فلما فرغا من طعامهما اقبلت فقالت تخاطب تليماخوس : « يبدو لى أنك لن تقص على الآن ما سمعت من أنباء أبيك يا تليماخوس ، وأوثر إذن أن أصعد فأضطجع فى فراشى الذى أبلله دائماً بدموعى منذ فارق أوديسيوس ، فإذا انصرف الأوغاد المعاميد وفرغت من شغلك بهم فاحضر إلى لتقص على من أنبائه . » ولكن تليماك قال : « أماه ! لم لا أقص عليك ما سمعت وما سافرت إلا لأطمئنك وأطمئن نفسى ؟ لقد سافرت إلى بيلوس وحظيت بلقاء نسطور الذى هش لى وبش وفرح بى كأنما أنا ابنه الذى افتقده طويلا وعاد فجأة إليه ؛ غير أنه لم يذكر لى عن أبى قليلا أو كثيراً لعدم علمه بشىء من أنبائه ، ولذلك بعثنى مع واحد من أبنائه إلى ملك أسبرطة لأسأله عن أبى . . . وقد لقينى منلوس فأحسن لقائى وأكرم مثواى ، ورأيت زوجه هيلين الحُسَّان المفتان التى شبت بسببها حروب طروادة ، والتى لقى من أجلها أبطال الإغريق أنكى ألوان العذاب . . . ولما سألنى الملك فيم قدمت ، نبأته بأنباء العشاق المعاميد ، ووصفت له ما يجرون على بيت أبى من الخراب ، فأرغى وأزبد ولعنهم أشد اللعن ، وتوسل إلى الآلهة أن ترد إليهم أوديسيوس فيبطش بهم ، ويعيد إليهم صوابهم ، ثم قص

على ما سمعه من أحد أرباب الماء - بروتيوس - الذى أخبره أن أبى لايزال حياً يرزق فى إحدى الجزر النائية ، وأن عروساً من عرائس الماء تحجزه عندها فى تلك الجزيرة برغمه ، لأنها تحبه وتهواه ، وأنه لا يجد سفينة يثوب عليها إلى الوطن . . . هذا يا أماه كل ما علمته عن أبى من الملك منلوس ، وقد أذن لى فى العودة فأبت فى رعاية السماء وحفظ الآلهة » . وكانت بنلوب تصغى وثورة من الحزن تجتاح نفسها ، ولظى من الوجد يفتك بقلبها . فلما فرغ تليماك ، التفت تيوكليمنوس المتنبى إلى السيدة الرؤوم فقال : « يا زوج أوديسيوس أعيرينى سمعك ! إصغى إلى فسأتنبأ لك ! إن ابنك هذا لم يسمع عن أبيه أى نبأ يقين . . أما أنا ، فقد بدت لى امارات وشهدت فى السماء علامات . . . ومحال أن تكذب علامات السماء . . . أقسم لك بجوف العلى رب الأرباب ، وأقسم بهذا البيت بيت أوديسيوس ، أن زوجك هنا ، وفى إيثاكا . . . وهو يعلم كل صغيرة وكبيرة من أنباء العشاق وخباثاتهم ، وإنه ليدبر لهم عقاباً هائلا لن يفلت أحداً منهم !! » وسكت المتنبى . . . وأقبل العشاق من لعبهم فخلعوا عباءاتهم ، ثم نشطوا إلى الشاء والخنازير فجزروا لطعامهم . . .

هذا ما كان من أمر تليماك وأمه ، وما كان من أمر العشاق . أما ما كان من أمر أوديسيوس فقد مضى فى الطريق إلى المدينة بخطى متعثرة والراعى بين يديه ، وعلى كاهله حقيبته ، وفى يده عكازه ، وكلما لقيهما أحد صعّر خده ، وشمخ بأنفه ، تقززا من منظر هذا الشحاذ الفقير القذر . . . ثم أتيا إلى نبع يتفجر فى الطريق فيستقى الناس منه ، وقد

بسقت من حوله أشجار الحور والسنديان ، وترقرق الماء فوق الحصباء كاللجين يتدحرج من حيْد أكمةٍ هناك ، أقام الصالحون فوقها مذبحاً لعرائس الغاب حيث يتقدم الناس بنذورهم ويعقرون إضحياتهم . . . وقد لقيا هناك راعى ماعز الملك - ملانتيوس - يسوق قطيعاً من أسمن ما يرعى لأجل ولائم العشاق . . . ولقد كان ملانتيوس هذا من أذنابهم ومتملقيهم . وكان يصنع كل ما يحببه إليهم ويضمن له عطفهم ، فلما رأى الفقيرين وأحدهما زميل له ، انطلق يهوى ويصخب ، ويسب ويسخر ، ويغمز الرجلين غمزاً شديداً موجعاً ، حتى غلى الدم فى رأس أوديسيوس : « إنْشَملا أيهذان المسخان ! طاعون يجتاحك يا راعى الخنازير القذر ! حقاً إن الطيور على أشكالها تقع ! كلب يقود آخر . . . إلى أين ؟ إلى حيث يلتقط فتات موائدنا ! عجباً ؟ ألا تطلقه معى إلى المزارع ينظف الزرائب ويحمل العلف ويحرس الغلة ويشرب ما شاء من اللبن الحازر[1] والمخيض ، ويكسو عظامه المعروقة بإهاب من اللحم ؟! ولكن هيهات ! فقد بلدت طباعه فلا يصلح لعمل شريف ! ». وهكذا ظل الراعى الشرير يقىء من هذا البذاء ، وركل أوديسيوس آخر الأمر ركلة قوية فى ساقه ، فلولا ما حرص الملك عليه من كتمان أمره لحطمه بسببها ، ولمسح به ظاهر الأرض ! ولقد هاج هائج يومايوس فدعا آلهته لتنتقم لرفيقه الضعيف وطفق يقول : « يا عرائس هذا النبع المقدس اسمعى بحق ما عقر لك أوديسيوس وباسم ما ضحى أن ترديه إلى بلاده لينتقم من أمثال هذا الوغد الزنيم الذى لا يحسن إلا أن يملق أعداء مولاه ،

---

(١) شديد الحموضة والمخيض الذى استخرجت زبدته .

وإلا أن يغشى رحابهم ، بينما قطعانه سائمة فى المرج لا راعى لها ولا حفيظ !» فصاح الراعى الوقح : « هاه ! أجيبى يا عرائس دعاء كلبك الأمين ؟ أواه لو أستطيع أن أحملك فى فلك أحد هؤلاء السادة فأبيعك بيع الرقيق فى بلد سحيق ! أوديسيوس ماذا أيها البهيم ! لقد أودى أوديسيوس ولن يعود إلى الحياة قط . وبودى لو لحق به ابنه تليماك !!» ... قالها ... وانطلق حتى بلغ القصر وغشى مجلس العشاق يطرفهم بما حدث له مع راعى الخنازير ... أما أوديسيوس وأمينه فقد سارا رويداً حتى أتيا بوابة القصر فتلبثا عندها ... وتناول أوديسيوس يد الراعى وقال : « يومايوس ! لا ريب أن هذه سراى الملك ، أنظر ! هاهى ذى الحجرات يتلو بعضها بعضا ، وهاك الرحبة الكبرى ذات العماد وذات الأبواب ... وإنى أحدس أن هناك أضيافاً اجتمعوا لوليمة ، وهذا قتار اللحم يملأ خياشيمى ، وإرنان القيثار يجلجل فى أذنى » فقال يومايوس يجيبه : « أنت ذكى شديد الذكاء ! إنه هو المكان بعينه والآن ، هل تذهب أنت وحدك فتستعرض الأمراء وتعود ، أم تنتظر حتى أذهب أنا فأخطف نظرة إليهم ؟ على أنك يجب ألا تتلبث هنا طويلا فقد يراك بعضهم فيؤذيك ويطردك من هنا شر طردة » وقال أوديسيوس « بل انطلق أنت وإنى منتظرك هنا ، فإذا لكمنى أحد أو لكزنى أو ركلنى ، فلشد ما احتمل هذا وذاك ، وهل هو إلا بعض ما احتملت فى حروبى الطويلة ؟» وبينما هما يتحدثان ، إذا كلب كبير رابض يقف فجأة فيبصبص بذنبه وينصب أذنيه ، ويحدق بصره فى أوديسيوس ، ويظل مسحوراً ذاهلا !! آه ! إنه الكلب العزيز آرجوس الذى رباه الملك قبل

أن يرحل إلى طروادة . . . لقد أهمل أمره ، فهو رابض هكذا فى حمأة من الروث والقذر والقمل أمام بوابة القصر ، كالشاعر العجوز الذى يجتر ذكرياته !! لقد عرف صوت مولاه برغم السنين الطوال ، فبكى ، وهر ، وأرسل الدموع حراراً تسقى صدغيه ! وقد تأججت فى قلبه الحيوانى ثورة من الحزن الطارىء المفاجىء فلم يقو أن يزحف ليمسح بلسانه قدمى مولاه . . . وقد لحظ أوديسيوس ما أصاب كلبه العزيز فبكى هو الآخر تأثراً ، وسجل هذه الآية من الوفاء للحيوان على الإنسان ! وأشاح بوجهه عن الراعى حتى لا يدرك ما بعينيه من دموع . فلما مسحها بكمه قال يحدث يومايوس : « أليس عجيباً ومؤلما معا يا صديقى أن يتركوا هذا الكلب الذى تبدو عليه سيماء النبل فوق هذه الكومة من الروث قد يكون أقعده الضعف عن متابعة الصيد وقد يكون إبقاؤهم عليه من أجل منظره وحسن سمته !؟» فأجابه الراعى : « أوه ، بلى أيها الرفيق ! أما والله لو شهدته فى إثر مولاه أوديسيوس لعجبت لعظم قوته وشدة جبروته ! أبداً لم يخلق الله وقتئذ كلباً أتبع لصيد ، أو أقوى حاسة شم منه وأبداً لم يكن عندنا كلب كآرجس هذا الرابض يساقط نفسه أنفساً !! إنه يبكى مولاه الذى قضى وتركه من ورائه لإهمال الوصيفات وقلة اكتراثهن . . . أما عبيد هذا القصر فهم كالوصيفات حذوك النعل بالنعل ، فهم لا ينشطون لعمل كما ينشطون وسيدهم بينهم ، ثم هم قد فقدوا بالعبودية وذلة الرق نصف آدميتهم ورجولتهم !!» ثم مضى أوديسيوس نحو صديقه وخدن صباه ، فبكى وذرف دموعه ، وكذلك فعل الكلب . . . حتى مات . . . ولكن بعد أن رأى سيده تارة أخرى !!

ولمح تليماك راعيه فأومأ إليه ، وأخذه جانباً ، ثم أمده بنصيب جزيل من طعام الوليمة . . . وبعد لحظات أقبل أوديسيوس فى صورة الشحاذ الفقير ، وجلس على الأرض ، فأرسل إليه ولده شيئاً من اللحم والخبز مع يومايوس ، وأسر إليه أن يرسله بين الأمراء يتكفف ، وبالأحرى ليتعرف ؛ فلما فرغ من طعامه نهض فسار بينهم يسأل هذا ويحدق فيه ، وينصرف إلى ذاك ويحدجه ، ويمد يده من أجل لقمة كما يصنع الشحاذون ، وقد رثى له كثيرون فأمدوه بلقمات ومضغ من اللحم ، إلا أنطونيوس ، فقد استهزأ به وبمن أحسن من الأمراء إليه ، وعيرهم بأنهم يتصدقون بما ليس لهم ، ثم هاج وماج ، ورفع كرسياً أوشك أن يحطم به رأس أوديسيوس ، وأمره أن ينصرف فلا يعكر عليهم صفوهم أكثر مما فعل !! ولكن الكرسى صدع كتف الملك ، وأعفى رأسه ، ووقف أوديسيوس كالصخرة لا يتحرك ولا ينبس ببنت شفة . . . ولكن ألف ألف فكرة سوداء كانت تكظ فؤاده وتزحم تفكيره . . ثم مضى فجلس حيث كان من قبل ، وهتف بالعشاق فى صوت جهورى فقال : « سادتى الأمراء اسمعوا ! تالله لو أنها ضربة فى حرب بين كفئين لما حملت لها موجدة فى نفسى . . . ولكن أنطونيوس رأى من سلطان الجوع والضعف ماجرأه وأثار نحيزته . . وأنا مع ذاك أترك جزاءه لله ، وأضرع إليه جل ثناؤه أن يقبضه قبل أن تزف إليه عرسه ! » وكأنما خجل العشاق مما فعل أنطونيوس فجعلوا يلومونه ويتلاومون فيما بينهم . قال قائلهم : « من يدرى ؟ ألا يحتمل أن يكون أحد آلهة السماء جاء ليبلونا . . . والويل لك ياأنطونيوس أذا صدق حدسنا . . ألا تعلم أنهم طالما يتنزلون

فيغشون مدننا فى صور الشحاذين ليروا بأعينهم ما نأفك وما نمين ؟ »
ولم يبال بهم ولم يأبه لما قالوا . . وكان تليماخوس يتميز من الغيظ ، ويسُر فى نفسه أوجع الالم لما نال أباه من الضرب ، بيد أنه غلب غضبه ، وحبسه فى أعماقه ، كما حبس فى عينيه وابلا من الدموع . . . وكانت بنلوب تطلع من شرفتها وترى ماحل بالرجل من إيذاء ، فهتفت بيومايوس أن يرسله إليها كيما تسأله عن أوديسيوس ، لما يبدو عليه من أثر السفر وجوب الأفاق ، قال الراعى : أجل يامولاتى ، إنه رجل من كريت ، وقد خاض ألف مكروه قبل أن تحمله الصدفة إلى بلادنا ، ثم هو محدث ساحر الحديث طلى الرواية ، حتى ليخلب سمع من يصغى إليه بأشد مما يستطيع مطرب أن يفعل ! وكلما طال حديثه لذت طلاوته ، وكثرت حلاوته ، فلا تمله أذنان ، ولايضيق به مصغ إليه . . وأعجب ماذكره مرة لى أنه رأى أوديسيوس وعرفه فى أبيروس . . بل يزيد فيؤكد أن مولاى عائد أدراجه إلينا ، حاملا معه كنزا من الذهب ، وأذخاراً لم تر العين مثلها ولم تخطر على قلب بشر !! » فتنهدت بنلوب وقالت : « انطلق إذن فأحضره ، ودعه يحدثنى بما روى وجهاً لوجه ، وسأهبه صدارا ودثارا إذا توسمت فى قوله الحق ، وآنست فى روايته الصدق » . .

وادعى أوديسيوس أنه يخشى أن يجوز وسط الأمراء مرة أخرى ، وفضّل أن يلقى الملكة فيتحدث إليها إذا جَنَّ الليل بجانب المدفأة . . . ووافقت الملكة ، وصوّبت رأى الرجل ؛ وكان الوقت أصيلا فقصد الراعى إلى تلماك واستأذنه فى الانصراف الى حظائره ، فأذن له ، ولكن بعد أن أمره بالتزود لعشائه ، ففعل يومايوس ، ثم مضى ليسهر على خنازيره .

## أوديسيوس يتشاجر مع شحاذ

وبينما كان أوديسيوس جالساً يزدرد طعامه ، إذا شحاذ ضخم الجسم شائه المنظر يدخل فجأة ، فيلتفت إليه جمهور العشاق . ويعرفون فيه الفقير إيروس ، المشهور بنهمه الذى لا يوصف ، وبإقباله الشديد على أردأ ألوان الشراب . . وكانت له عليهم دالة ، وليس فى الجزيرة كلها من يجهله . . . فلما لمح أوديسيوس جالساً يتبلغ بلقماته ، نظر إليه نظرات المغيظ المحنق وقال له : « انحرف عن الباب أيها العجوز القذر وإلا جررتك من عقبيك . . . ولو أننى أترفع عن مقارعة أمثالك !! » وحدجه أوديسيوس وقال : « أيها الصديق إنى ما آذيتك ، وإن فى المكان متسعاً لكلينا . . . أرجو ألا تثيرنى أكثر مما فعلت وإلا فلا يغرنك هرمى وتقدم سنى ، فتالله لأرينك كيف أضربك ضربا تقول منه الهامةُ اسقونى ! اجنح للسلم هو خير لك ! وأصغ الى نصحى ، وإلا فلن تدخل قصر الملك أوديسيوس بعد اليوم . . ! » وغيظ الشحاذ إيروس وقال : « اسمعوا ماذا يهرف هذا الشره المخرف ! ألا ما أشبهه بزوجة حمقاء تثرثر أمام كانون ! تالله ليخيل إلىّ أن أنقض عليه فأنفض ثناياه ! هلم أيها الرجل ! استعد للقاء ، وليشهد السادة كيف أمثل بك ؟ » وقهقه أنطونيوس وقال : أيها الأصدقاء اشهدوا ! إن إيروس يتحدى هذا الفقير ، والفقير بدوره يتحداه ، فهلم نجعل حولهما حَلْقة لنرى إلى هذا العراك المضحك ! » وسكت أنطونيوس ، وتكبكب الأمراء حول الرجلين ضاحكين عابثين ، ثم التفت إليهما أنطونيوس وقال : « إسمعا إذن ؛ ههنا كعكات ليس أجود منها . . ! وإنها خالصة لمن يتفوق منكما على قِرنه . . . ولمن فاز أجر

عندنا عظيم .. إنه سيجلس معنا فى جميع ولائمنا منذ غد ، ولن ندع أحداً من الشحاذين يضايقنا بعد هذا اليوم » وتخابث أوديسيوس وقال : « يا سادة ! من الظلم أن يتبارى رجل عجوز ضعيف مثلى مع هذا الهولة ... ولكن الجوع يدفعنى إلى البطش به مع ذاك ... بيد أن لى رجاء ألا يساعده أحد على ،فيلكمني مثلا أو يلكزنى حينما أكون مشغولا به » فقاسموه ألا يفعلوا . وتقدم تليماخوس إليه فقال : « أيها الرجل ؟ إذا وسعك أن تناضل هذا الزميل فلن تخشى من هؤلاء رهقاً .. إنى أنا مضيفك ، وليس أحب إلى أنطونيوس ويوريماخوس من أن يشهدا هذا اللقاء الفذ بينكما !» ثم إن أوديسيوس شمر عن ساعديه وفخذيه ، وكشف قليلا عن صدره ، عامداً ليظهر الأمراء على عضله المكتز وقوته الخارقة .. وقد صدق حدسه ، فقد بهت العشاق ونظر بعضهم إلى بعض يقولون : « واعجباً ! أى عضل وأى ساعدين وفخذين يخفى هذا الرجل تحت أسماله ومِزَقه البالية ؟ مسكين إيروس ! ماذا يبقى منه بعد هذا اللقاء ؟!» أما إيروس فقد انتفض واقشعرّ بدنه مما عراه من الذعر ، ولكن الخدم لم يتركوا له أن يفر من اللقاء الذى دعا هو إليه ، بل شمروا له عن ساعديه وفخذيه كما فعل غريمه ، ثم جروه إلى الحلقة برغمه ... وود أوديسيوس أن يبطش بالرجل فيحطمه بأول لكمة ؛ غير أنه آثر ألا يفعل خشية أن يكتشف العشاق من هو ... فلما امتدت الأيدى تصنع الدفاع ، وأقبل وأدبر ، وكر وفر ، ثم أهوى على أذن الرجل بضربة سحقت عظامه ، وطرحته على الأرض .. ولبث المسكين لا يبدى حراكا من هول ما حل به ؛ بيد أن أوديسيوس جره من عقبيه إلى ساحة

القصر ، ثم عرج به نحو جدار كبير حيث سنده إليه ، وجعل فى يده عكازه وقال : « إلبث هنا ولا تغش منازل الملوك بعد ، وذد بعصاك الخنازير السائبة ، فذلك خير من أن تصيب بها الغرباء أمثالى . . فإن عدت إلى مثل حماقتك فلن يصيبك ألا شر مما رأيت ! وتركه وانثنى إلى حيث كان ، فوجد العشاق يضحكون حتى كاد يقتلهم الضحك . . . وهتفوا له ثم قالوا : « حقق الله آمالك ، وأنالك أمانيك أيها الغريب اللاجىء ، بما خلصتنا من هذا الشحاذ النهم الملحاح !» وسمع أوديسيوس دعاءهم ، وابتهل إلى الآلهة أن تستجيب !! ثم وضع بين يديه أنطونيوس كعكة كبيرة ، وزوده أمفينوموس بخبز وخمر صبها له فى كأس كبيرة من ذهب ، ودعا له بخير ، وآنس فيه أوديسيوس طيبة ودماثة خلق فقال له : « هيه ! هلم أيها العزيز أمحضك نصيحتى وأحدثك عن تجاريبى . . . ألا ما أضعف الإنسان ! إنه إذا ما مسه ضر دعا الله فإذا كشف عنه الضر فهو مقتصد ناء بجانبه كأن لم يمسسه ضر . . . فأنا مثلا ، لقد كنت فى عنفوان صباى أعيث فى الأرض مغتراً بقوتى وفتوتى ، حتى أسقط الكبر فى يدى فَفِئْتُ إلى أمر السماء ، ولكن بعد أن كتب علىَّ الشقاء ، وهكذا أولئك الأمراء الذين غرتهم الأمانى وأضلهم جبروتهم فأقاموا بهذا القصر غارين آمنين لا يظنون أن له صاحباً قد يفجأهم بعودته فيستأصل شأفتهم ويذهب بريحهم . . . وإنى والله أيها السيد لأرى أنه عائد ليس من هذا بد ، وأنه عائد قريباً ؛ فتقبل أنت نصيحتى ولا تقم معهم ، بل انطلق إلى بيتك وأهلك ولا تَسْتَأْذِن حتى يدهمك معهم فيحطمنكم أجميعن . . .» وشرب أوديسيوس ، ودفع الكأس الى الأمير

الشاب الذى بدت عليه أمارات الهمّ مما قال الرجل ، ولكنه .... وأسفاه ! لقد كتب عليه الشقاء ، فلم يصغ لنصيحة أوديسيوس .

وبدا لبنلوب أن تذهب فى بعض وصيفاتها فتخطر بين العشاق ليروها ، ولترى ماذا يكون .. وقبل أن تفعل ألقت عليها مينرفا نُعاساً وأَمَنَةً ، وبدت لها فى الرؤيا كأنما لُهى عجيبة ؛ ثم إن الربة أضفت عليها رواء كرواء الآلهة . ونضّرتها بنضرة الشباب والجمال ، فربا جسمها واستطال ، وزانته لمعة عاجية وسناء ... فلما هبت من نومها ، مرست عينيها متعجبة ، وشدهتها تلك الغفوة الطارئة التى جلبت لها السعادة فى دنيا من الهموم ... وتمنت لو أراحها الموت من حياة اتصلت أشجانها وباعدت بينها وبين إلفها بمفاوز من الآلام والأحزان ... وانطلقت فى سرب من وصيفاتهافاشرفت على العشاق وقد ضربت بخمارها الشف على وجهها المتألق الناصع ، فذهل الملأ ، وزاغت أبصارهم ، وأحسوا أن شيئاً يخلع قلوبهم ، فما منهم إلا من تمنى أن يكون صاحب هذا الجمال الرائع والحسن الباهر ، والفتنة المتقدة ...ونهض يوريماخوس فقال يخاطبها : « يا إبنة إيكاروس بوركت ! تالله لو رآك كل من فى هيلاس لاجتمعت حولك قلوب غيرنا من العاشقين ، ولأقبلوا من كل فج فازدحموا حولك ههنا ... فى ذلك القصر العتيد !» فقالت بنلوب : « يوريماخوس ! تالله لقد ذهبت الآلهة بجمالى الذى تصف يوم رحل عنى زوجى أوديسيوس فيمن رحل إلى طروادة ... وما أنس لا أنس ما قال لى وهو قابض على يمينى يودعنى : « زوجتى ! إن أكثر من ترين من هذا الجيش لن يعودوا إلى ديارهم .. ففى طروادة محاربون صناديد ، وملاعبو

أسنة لايشق لهم غبار ، وذادة ورماة ! وأني لا أدرى ماذا يكون من أمرى هنالك ، ولذا ، أكل إليك كل ما أدع ورائى ، وإنى موصيك أول ما أوصيك بأبى وأمى ، فاعنى بهما كأحسن ما كنت تعنين وولدهما معك ، فإذا شب ولدى وترعرع ، فلك أن تتركى هذا القصر إن شئت ، وتتزوجى ممن تختارين من الأكفاء الأنداد » هذا وإنى أرى أن هذا اليوم العصيب قد حان ! ولكن واأسفاه ! إنكم اجتمعتم هنا لتأكلوا وتشربوا وتعيثوا وتعبثوا بكل ما ترك صاحب القصر .. وكنت أظنكم تقيمون فى منازلكم وترسلون إلى هداياكم لتكبروا عندى ولا تهزل مكانتكم لدى ... ألا ساء ما تَزرون » .

وتبسم أوديسيوس من قولها ، ووثق من إخلاصها وعجب من شدة ما سحرت ألباب العشاق ومما أخذتهم به من حزم ... أما أنطونيوس فقد أجابها بقوله : « أما هدايانا يا ابنة إيكاريوس فلا أحب إلينا من تقديمها إليك .. على أننا لن نريم عن هذا القصر حتى تختارى لنفسك بعلاً يكون كفئاً لك » وأيد العشاق ما قال قائلهم ، فنهضوا ليحضروا هداياهم ، وسرعان ما عادوا يحملونها ... وتقدموا بها إلى بنلوب ؛ فهذا ثوب ثمين من فاقم موشى بالذهب تزينه اثنا عشر زراراً ذهبياً ... وهذا عِقْدٌ حُليت خرزاته بقطع من الكهرمان الحر ؛ وتلك أساور من ذهب وشُنُوف كثيرة وأقراط[1] . وعادت بنلوب ومن خلفها وصيفاتها يحملن الهدايا واللهى ... وأخذ العشاق كدأبهم فى القصف واللهو والعبث والغناء ... حتى أقبل الليل ، فقدم الندامى بمجامر من نحاس بها وقود

( ١ ) الشنوف والأقراط ( الحلقتان ) لأذن المرأة .

يشتعل ، وطفقن يلقين فيها من الند والرند والعود ذى العرف ، وطفق البخور يعبق فى أرجاء البهو الكبير . . . وهنا . . . نهض أوديسيوس وتوجه إلى البنات يقول : « أيها العذارى أولى بكن ثم أولى بكن أن تذهبن إلى سيدتكن فتسلينها وتواسينها ، وسأقوم بالنيابة عنكن على هذه النار حتى ينصرف العشاق . . . ولن يئودنى أن أقوم عليها حتى مطلع الفجر ؛ ولن أضيق بجمعهم مهما عبثوا بى ، فأنا رجل ذو تجاريب » . فتضاحكن به ، وقالت ميلانتو التى هى أجملهن وأقلهن احتشاماً ، تعبث به : ماذا أصابك الليلة أيها النازح الغريب ؟ انطلق إلى حداد المدينة فنم فى دكانه ، فهو خير لك من أن تسهر ههنا وتثرثر . . هل غاب صوابك يا شيخ لأنك ظفرت بالشحاذ إيروس ؟ أربع عليك ، فقد تبتليك السماء بمن يبطش بك كما بطشت به ، ويطردك من هنا !؟» . . ورشقها أوديسيوس بعينه وقال : أسكتى يا هناه[2] والله لأحدثن بما حدثت الأمير تليماخوس فليقطعن لسانك ، وليمزقن جسدك !» . وذعر العذارى وولين هاربات ، وقام أوديسيوس على النار وجعل يلحظ العشاق وفى قلبه ضرام ، وما فتىء يفكر فى ألف خطة للانتقام منهم والبطش بهم . . ولم تشأ مينرفا أن تنهى هذا الشقاء الذى ضربته على أوديسيوس ، بل تركته يستهزىء به العشاق ، ويسخر به يوريماخوس ، فيضحك العشاق إذ يقول : « ما أظن إلا أن الآلهة قد أرسلت إلينا هذا الرجل ليكون حامل مشاعلنا وحامى قبسنا . . أنظروا إلى رأسه النحاسى ، أليس يصلح أن يكون مشعالا يضىء لنا ؟ » ثم التفت إلى أوديسيوس

( ٢ ) الهناة الداهية .

وهو يقول : « أإذ استأجرتك لِتسوح مزرعة لى بعيدة من هنا وتغرس بها أشجارا ، على أن أطعمك وأكسوك وأنقدك مالا ، فإنك ترضى ؟ ولكن لا .. إنى لأظنك تنسرق منها طواعية لغرائزكِ وخَبثِ جبلتك فتنطلق إلى المدينة لتستجدى وتتكفف ... »

وتخابث أوديسيوس وقال يجيبه : « يوريماخوس ! تالله إنه ليس أحب إلى من أن أباريك فى فلاحة فى يوم من أيام الربيع حين يطول النهار من مشرق الشمس إلى مغربها ، على ألا يذوق أحدنا طعاما ولايسيغ شراباً ... أو أن يعهد إلى كل منا بأربعة أفدنة فى أرض جبوب ، وثورين حنيذين ذَوَى خوار ، فى ذلك اليوم ، لترى أينا يصمد لحرثه ويفلح أرضه ... بل إنى لأتمنى ، إذا نحن فى هذه الأرض ، أن يدهمنا عدو بخيله ورجله ، وتكون لى درع سابغة ، وخوذة من نحاس ، ورمح فى يدى ، لترى كيف لا يحول الجوع بينى وبين أقرانى ، وكيف أضرج بدمائهم الأرض ، وأتركهم فى البرية جَزَرَ السباع وكل نسر قشعم .. أيها اللُّكعُ الوقح .. والله لو أن أوديسيوس رب هذا البيت قد فجأك الآن لضاقت عليك الأرض بما رحبت ... أنت أيها المغرور المتعاظل الذى غره أن يكون شجاعاً بين نَوْكى لا حول لهم !» .

وجن جنون يوريماخوس ، وأخذ مُتكأً ثقيلا وقذفه شطر أوديسيوس ، ولكن البطل انفتل بعيداً وسقط المتكأ على الساقى المسكين ، فخر إلى الأرض يئن ويتوجع .. وغيظ العشاق أيما غيظ ، وعلا لغطهم ، وودوا لو يسحقون أوديسيوس ، لولا أن تقدم تليماخوس وحال بينه وبينهم وهو يقول :

« يا سادة ! إنى كصاحب هذا القصر ، لا أستطيع أن أطرد الرجل

منه بعد إذ آويته وضيَّفته .. والرأى أن تقطعوا سمركم هذا وتذهبوا من فوركم إلى منازلكم حتى يتصرم الليل » ... وأيده الأمير أمفينوس ، ووقفوا جميعاً فاحتسوا الكأس الأخيرة ثم انقلبوا إلى منازلهم ... وفى نفس يوريماخوس من الهم ما تنوء بحمله الجبال ...

## المرضع العجوز تعرف أوديسيوس

وهكذا خلا الجو لأوديسيوس وولده ، فقال ، يحدث تليماك : « أى بنى : ينبغى أن نخبىء أسلحة القوم فى مكان حريز ، فإذا سألوك عنها فقل لهم إنك تحفظها لهم حتى لا تتأثر بالدخان والغبار وتقلبات الجو .. وامتثل تليماك ، ودعا المرضع العجوز يوريكليا فقال لها : أماه ليقرَّ الوصيفات فى مضاجعهن حتى أنقل أسلحة أبى إلى مكان حريز فقد تراكم عليها الوسخ وأتلفها الدخان » وقالت يوريكليا معجبة : « أجل يا بنى ، إنه ينبغى أن تعنى بكل ما يتعلق بأبيك وبكل ما ملكت يداك ... ولكن قل لى ... من يحمل لك المصباح حتى تنقلها إلى حرزها ؟ ألا أدعوهن فيحملنه لك !» وشكرها تليماك ، وذكر لها أن الرجل الغريب سيحمله ، وأهرعت يوريكليا إلى داخل القصر ، وهب أوديسيوس وولده يحملان الخوذ والدروع والرماح ، وبدت مينرفا الكريمة تحمل بين أيديهما مصباحاً ذهبياً كان يشع سناء عجيباً ، ونوراً لم تقع عينا تليماك على مثله . فقال لأبيه وقد أخذه العجب « أبتاه ! ما هذ النور المنعكس على الجدران والعمد والقوائم والعوارض حتى ليكاد يجعلها تلتهب ! أبداً ما رأيت مثل هذا أبداً ... لابد يا أبى أن إلهاً معنا

هنا !» وقال أبوه : « أخزن عليك لسانك يا بنى ، واملأ قلبك بما ترى ، فإنه من نور السماء وهذا دَأْبُ الآلهة ... والآن ، لتصعد أنت فلتنم ملء عينيك كى تستريح ... أما أنا ، فباق هنا ، لأنه لابد لى من أن أكلم أمك وخدمها » .

وانطلق تليماك إلى مخدعه، وأقبلت بنلوب وأقبل فى إثرها سرب من خدمها فأعددن لها عرشا مفرداً من ذهب وعاج استوت عليه وأسندت قدميها العاجيتين إلى متكأ جميل ، فبدت كإحدى الآلهة . وجلس أوديسيوس على كرسى صغير بُثَّتْ عليه فروة غليظة ، ثم كلمته الملكة فقالت : « والآن أيها الغريب الكريم قص على من أنبائك وخبرنى من أنت ، ومن أى البلاد قدمت » فقال أوديسيوس : « أيتها الملكة تعالى جدك وصلح حالك .. إن لك فى العالمين لذكراً يعبق كالعطر ، واسماً كريماً ليس لملك عظيم يحكم أمة عظيمة بالعدل وتجزيه بالمحبة .. إننى يا مولاتى رجل كرثه الزمان ، وعسفت به يد الحدثان ، فإذا سألتنى ما اسمى وما بلادى ، فإنك تثيرين فى أعماقى ذكريات عنيفة تدمى فؤادى ، وتفجر الدموع فى مآقىَّ ، فاعفينى أيتها الملكة من ذكر ذلك ، فإنه ليحزننى أن أجلس بين يديك باكياً متصدعاً مهموماً ...» وبدا الألم على وجه بنلوب وقالت : « أواه أيها الغريب ما أقسى ما ذبلت حياتى وذوت زهرتى مذ رحل زوجى المحبوب إلى طروادة ، تاركا لى الهم ، ومخلفاً لى الحسرة ! ألا ما أقسى ما يحن قلبى إليه ، ولشد ما يخفق من أجله ! لقد أسلمنى بعاده لليل أليل من الآلام ، فما أدرى منذ فارق كيف أهش لضيف مسكين مثلك ، ولا كيف أبش لأحد من

العالمين . . . وهؤلاء الأمراء اللؤماء الذين تكبكبوا حولى يريدون ليرغمونى على اختيار أحدهم بعلا لى من دون أوديسيوس لا أدرى كيف أذودهم ، ولا أعرف السبيل لدفع أذاهم . . لقد مكرت بهم طويلا ، ولكنهم مكروا بى السيئات ، فلا أدرى كيف أنقذ نفسى منهم ؛ وهذان أبواى يريداننى على هذا الزواج البغيض إلىّ ، وهذا ابنى قد شب ، وهو يضيق بعشاقى ذرعاً ، وإن فى صدره حرجاً منهم لأنهم يهلكون ثروته ، ويعيشون فى قصره ، ويخوضون فى عرض أبيه . . . ولكن . . . حدثنى بأربابك من تكون ، ومن قومك ، وأى بلاء من الدهر شردك عن وطنك . . . تكلم أيها العزيز ولا تحزن ». وأرسل أوديسيوس آهة عميقة ثم تكلم فزخرف حديثاً طويلا مُوشًّى ، ولفّق قصة حزينة متقنة ، وذكر للملكة أنه رجل مُرزَّأ من جزيرة كريت كانت له نعمة وكانت له سعة من العيش ، وذكر أبويه وأهله والحياة الواسعة المخفرجة التى كانا يحيانها ، وذكر أنه عرف أوديسيوس أول ما عرفه حين غرقت به الفلك وقذفه الموج على الشاطىء الكريتى ، فهرول إليه ولتطف به وأخذه إلى داره حيث أكرم مثواه واحتفى به أبواه . . . ولم يكد أوديسيوس يفرغ من حديثه حتى ترقرقت الدموع فى عينى بنلوب ، وانطلقت تبكى على زوجها الذى لم تدر أنه جالس إليها يحدثها ويوشى لها أطراف الكلام . وتأثر هو من بكائها فكادت عيناه تفيضان بالدمع ، لولا أن ملك حاله ، وهيمن على عواطفه ، فحبس العبرات التى أوشكت تنهمل بأجفان من حديد . . ثم أرادت الملكة أن تمتحنه إن كان صادقاً فقالت : « وهل تذكر أيها العزيز ماذا كان يلبس يوم لقيته ؟ أتستطيع أن تصفه لى ، وتصف رفاقه الذين صحبوه فى هذه

الرحلة المشئومة ؟ وتخابث أوديسيوس فقال : « مولاتى ! ليس من اليسير على شيخ كبير مثلى أن يذكر أحداث ما قبل عشرين عاماً ... بيد أننى سأحاول أن أرسم لك الظلال الضئيلة التى لا تزال تنطبع من صورته فى رأسى ... أذكر يا مولاتى أنه كان يلتفع بثوب أرجوانى موشى بالذهب ، وقد رسم فيه بالذهب أيضا كلب صيد معروق يحمل فى برْطيله[1] ظبياً مرقَّطاً .. وأذكر أننى رأيت قميصه ولمسته ، فلا أذكر أننى لمست فى حياتى أنعم ولا أرق ولا أثمن ... وكان يسعى بين يديه مشير أكبر منه جسماً وسناً ، ذو كتفين مستديرتين وبشرة سنجابية وشعر مُفَلْفل ... وكان أوديسيوس يوقره ويبجله أكثر مما كان يبجل سائر أصحابه » .

وصمت أوديسيوس ، وبكت بنلوب فاستخرطت فى البكاء ، ثم قالت : « لشد ما كنت أرثى لك أيها الغريب النازح الجوّاب ؛ أما الآن فإنى أحترمك وأعطف عليك ، بل أحبك ؛ تالله لقد صنعت له هذا الثوب بيدى ، وأنا التى وشيته بالذهب ! وأأسفاه عليك أوديسيوس ! إنك لن تعود إلى يا حبيبى ! بُعْداً ليوم نزحت فيه عن وطنك إلى هذا البلد اللعين المشئوم ... طروادة ! » وهش أوديسيوس وقال : « خففى عنك يا مولاتى ، ولا تتلفى قلبك بطول هذا البكاء . ثم لماذا تيأسين من أوبته وقد سمعت عنه أخباراً سارة حين كنت فى أبيروس » لقد مات عنه كل أصحابه ، ولقد غرقت سفينته فى أعماق اليم لغضب صبته الألهة

(١) عن ثعلب عن ابن الأعرابى انه فم الكلب أو شفته ولم يذكره صاحب القاموس .

عليه ؛بيد أنه نجا مع ذلك :وهو الآن سليم معاف يوشك أن يصل إلى إيثاكا بخير . وأنا لا أرسل ما أقول حديثاً ملفقاً ، بل أحلف عليه وأقسم بأغلظ الأيمان أنه سيصل إليكم فى عامكم هذا .. بل ربما كان بينكم قبل أن يتم القمر دورة هذا الشهر !!» . فتأوهت بنلوب وقالت : « ويك أيها الضيف ! تالله إن قلبى ليكذب ما تسمع أذناى ، وإنه لا يصدق أن صاحبى عائد يوماً إلى إيثاكا .. ولكن هلم .. إنى سآمر وصيفاتى فيغسلن قدميك ويعطينك ثياباً وكسوة ويهيئن لك فراشاً وثيراً هنا . فإذا كان الغد فستجلس مع تليماك على مائدة الأمراء ولن يجسر أحد منهم أن يكلمك كلمة أو أن يمد يده إليك بأذى » وشكر لها أوديسيوس وقال : « مولاتى لقد اعتدت أن ألتحف السماء إذا نمت ، وأن أفترش الغبراء ، ولن تمسنى وصيفاتك ، فقد يذعرن من خشونة قدمى ... ولكن إذا كان فيهن واحدة مخلصة شربت من كؤوس الزمان مثل ما شربت من محن وآلام ، فلا بأس أن تغسل لى قدمى ، على أن تكون عجوزاًحيزبوناً !؟» وسرت بنلوب وقالت تجيبه : « أبداً ما علمت أحزم منك ولا أوفر ذكاء وعقلا أيها الضيف الكريم . لك ما سألت ، فإن عندنا خادمة أمينة طاعنة فى السن كانت موكلة بمولاى أوديسيوس إذ هو طفل تغسله وتسهر عليه ، وهى التى ستغسل لك قدميك ... يوريكليا .. يوريكليا .. إقبلى فاسهرى على هذا الرجل العجوز الذى له مثل سنك وتجاريبك ... إن له سحنة كسحنة أوديسيوس وسيماء كسيمائه ... إغسلى قدميه وقدمى له كسوة تليق بضيف حل بيتنا » وكأنما هاجت ذكرى أوديسيوس شجون المرأة فترقرق الدمع فى عينيها الملوزتين وقالت : آه يا أوديسيوس لشد

ما ينزع فؤادى إليك ويخفق لذكراك ! تالله لم أر رجلا أخبت للآلهة ، كما أخبت وضحى لها كما ضحى ... ومع ذاك فقد ناموا جميعاً عنه فلم يتأذنوا برجوعه إلى وطنه ! ومن يدرى ؟ فقد يكون غريباً كهذا الغريب ، جواب آفاق فى بلاد نائية ، ومن يدرى ؟ فقد تكون نسوة تعبث به كما عبثت نسوة هذا القصر بهذا الرجل .. هلم أيها الضيف الكريم ، لا أحب إلى من أن أغسل قدميك كما أمرت مولاتى .. أوه يا للعجب ؟! لماذا ينجذب إليك قلبى هكذا ! ياللآلهة !! أبداً ما رأيت من أضياف هذا البيت العتيق أشبه بأوديسيوس منك صورة وصوتاً وخَطَراناً ..». وتأثر الملك وأنشأ يقول : « ربما يا أماه ! لقد قال مثل ما قلت كثيرون ممن رأونى ورأوا أوديسيوس » وذهبت يوريكليا فأحضرت طسًّا[1] به ماء وانتهز أوديسيوس انشغالها عنه فابتعد عن الموقد ، لأنه ظن أن المرأة قد ترى الندوب التى بقدميه ، الباقية ثمة من عضة خنزير برى كان قد بطش به فى حداثته فتكشف ما حرص هو عليه من كتمان أمره ... بيد أنها لمست النَّدَبة[2] الكبرى فى ساق سيدها إذ هى تغسلها ... وكانت الظنون قد ساورتها لما سمعت من صوته ، واستذكرت من صورته . فلما تحسست الندبة زاغ بصرها ، وحملقت فجأة فى وجه مولاها وسقطت يداها فى غير وعى فانقلب الطس النحاسى محدثاً صوتاً مُرنًّا مُدَوياً .. وسال الماء .. وانحبس الدمع والمنطق فى عينى العجوز ولسانها ، ثم عالجت المفاجأة السارة المحزنة فى

---

( ١ ) الطس بالفتح والطست والطسة ( الطشت ) الذى يغسل فيه ( قاموس ) .

( ٢ ) أثر الجرح القديم .

صدرها ... وصرخت تقول : « أنت ! هو أنت ! والله إنك لأوديسيوس .. لقد عرفتك ... هذه هى النّدبة التى أحدثها الخنزير بساقك ! لقد لمستها بيدى ! » وأهرعت العجوز مذهولة نحو بنلوب لتزف إليها البشرى الهائلة .. ولكن مينرفا كانت أسبق منها .. فقد سحرت عينى بنلوب وسمعها .. وعجل أوديسيوس إلى العجوز فأطبق بكفه على فمها وقال . « يوريكليا !! أصمتى !! أنا هو ! ولكن أصمتى ! إن كلمة واحدةً منك تقضى على ! لقد غذوتنى ونشأتنى فى حضنك صغيراً ، فهل تكونين نكبتى وشاحذة سكينى ، وبعد أن وصلت إليكم بعد يأس وقنوط من عودتى ؟ أصمتى ! غُلّى لسانك بسلاسل وأصفاد فلست أريد أن يعلم أحد أننى هنا ... وإلا ... فتالله لن أرحمك - ولو أنك مرضعى - يوم يجد الجد ! » .

وارتعدت يوريكليا ، وقالت تجيبه : « أى بنى ! لم تكلمنى هكذا ؟ أتشك فى ثباتى وحفاظى ! إطمئن يا بنى ، فسأكون أصمت من الحجر الصلد ، وأستر لسرك من الحديد ! » فحدجها أوديسيوس وقال « أصمتى إذن ، ولا تفسدى تدبيرنا ، ولنتوكل جميعاً على الله ! وذهبت فأحضرت ماء آخر ؛ وأخذت فى غسل رجليه العظيمتين ، فلما فرغت ضمختهما بأفخر الطيوب ، ووقفت تقلب عينيها فى مولاها بينما كان هو يربط لفائف على ندوب ساقيه . وأخذ أوديسيوس كرسيه وجلس قريباً من الموقد تلقاء بنلوب التى شرعت تحدثه وتقول : « أيها الضيف ، ما أرى بأساً فى أن أسالك إذا كنت أبقى هنا مع ولدى أو أختار أحداً من أولئك الأمراء فيكون لى بعلا .. على أن رؤيا رأيتها لا تزال تضطرب فى خلدى

ولا أعرف كيف أعبرها .. ذلك أننى كنت أقتنى عشرين إوزة بيضاء ، وكنت أحبها وأرعاها بنفسى ، فرأيت فيما يرى النائم نَسراً قشعما انقض عليها من الجو فافترسها جميعاً بينما كانت تأكل طعامها من المعلف الذى أعددته لها ... ولما رأى النسر شدة حزنى والتياعى على أوزى ، وقف على نتوء قريب ثم أنشأ يكلمنى ويقول : لا تحزنى يا ابنة إيكاريوس على الأوز فإنه يمثل عشاقك الفُسّاق .. أما أنا فأمثل زوجك النازح الذى سيعرد من سفره فجأة فيبطش بالطغمة العاتية التى استباحت قصره ، وولغت كالكلاب فى عرضه .. ألا يا ابنة إيكاريوس اسعدى ! » واستيقظت من نومى مسبوهة ونظرت إلى أوزى لأطمئن عليه فوجدته سالماً ... فهل تستطيع أن تعبر عن تلك الرؤيا أيها العزيز ؟» .

فقال أوديسيوس : « أيتها السيدة الفاضلة ... لقد فسر لك الرؤيا زوجك بلسانه ... وهى لاتعنىغير ما قال ... إنه قادم وشيكا لا ريب ... وإنه حامل إلى العشاق مناياهم » .

وأثّاقلت پنلوب ثم قالت : « أبداً ... إن هى إلا أضغاث أحلام ! إذا كان غد فإنى ذاهبة إليهم فذاكرة لهم شرطاً إن استطاعوه نالنى أفواهم فذهبت من فورى إلى بيتى ، وتركت كل هذا القصر الذى دخلته زوجة لخير زوج ، ليكون حلماً جميلا يزخرفه لى الماضى ... وذلك أننى شارطة عليهم أن يحملوا قوس أوديسيوس فيصيبوا بها غرضاً يخترق السهم إليه اثنَى عشر ( دنجلا )[1] فإن أصابه أحدهم فإنى له » . وهش أوديسيوس وأيد فكرتها « لأن واحداً منهم لن يستطيع أن يوتر قوس

---

( ١ ) لم نجد فى العربية ـ أو لم نعرف ـ مرادفا لمحور القرص أو العجلة ، فأجزنا هذه اللفظة لشيوعها بين الصناع .

أوديسيوس قبل أن يحضر أوديسيوس فيحطمهم جميعا !!» وأشارت بنلـوب إلى خدمها فأعددن لأوديسيوس مُتّكأ وفراشاً وثيراً . . وذهبت بنلوب لتذرف فى مخدعها دموعاً من بلور .



# نـــذير من الســماء

طفق أوديسيوس يتقلبَ فى فراشه على أحر من الجمر ، وطفـق رأسـه يغلى كالقدر ، بل يفور كالتنور بطائفة ثـائرة صـاخبة مـن الأفـكار والوساوس ، وهو لا يدرى ماذا يصنع بهذه العصبة أولى القوة مـن أولئـك العشاق المفاليك ، وهو وحده ، ومهما يكن شجاعاً صنديداً فقـد يتـكاثر الذباب على الأسد فيقتله ..

وهبطت من السماء مينرفا اللطيفة فى صورة حسناء هيفاء ممشوقة القـد بارعة القسـمات ، فجعلت تواسيه وتطمئنه ، وتبشره بأن الأولمب كله مـن ورائه فلا يخاف ولا يأسى ..

ـ « هذا حسـن أن يكون الأولمب ، وتكونين أنت يا ربة الحـكمة ، من ورائى حتى أنتصر على أولئك الجبارين ... فكيف لا أخشى أن يهـب من ورائهم قبائلهم وذراريهم واللائذون بهم يثأرون لهـم فيحـل بى بـطش شديد ؟؟» فتقول مينرفا : « الذى يحفظك منهم غداً يحفظك من غيرهم بعد غد ، ولو جمعوا لك جحفلا أضـعافاً ... فـلا عليـك أيهـا العزيز ... خلِّ عنك الوساوس إذن ... ونم ملء جفنيـك ... واتـرك للسماء قيادك فهى حسبك ...» قالت هذا وزفّت فى الأثيـر اللانهائى إلى أولمب ، تاركة وراءها القصر العتيد بمن فيه من نُوّام وغير نوام ..

مسكينة بنلوب ! لقد كانت هى الأخـرى شـاردة اللـب ، مـوزعة القلب ، ما ترقأ لها عبرة ، ولا تغفى لها عين ، ولا يقر لها قرار ... لقد لبثت ليلها كله تتشوف إلى أوديسيوس وتبكى عليه ، وتستذكر أيـامه ،

وترثى لهذا الفتى اليافع تليماك ؛ ثم تدعو الموت كى يخمد أنفاسها ، ويوفّر عليها أحزانها ... ولكن المنايا نوافر لا تستجيب لدعاء أحد ... وهبَّ أوديسيوس عند مطلع الفجر فانطلق إلى المذبح الكبير حيث جثا متضرعاً لهفاناً ، يسبح باسم زيوس العلى ويصلى له ، ويهتف به أن يجعل له علامة يطمئن قلبه بها ، وليعلم أن كبير الآلهة لايزال يحميه ويكلؤه ، كما كلأه فى شدائده فى كلا البر والبحر ... وكان أدويسيوس يزكى صلاته بأطهر الدموع وأحرها ، وكان سيد الأولمب يصغى لدعائه من علياء السماء ، فما إن فرغ الملك المحزون حتى أرسل زيوس فى الأرجاء زلزلة عظيمة مدوية رجّعت أصداءها جنبات القصر الساكن ، وأحياد الجبال الشامخة ... وكانت خادم بائسة تسهر طوال ليلها عاملة فى طاحونها ناصبة ، فلما وقرت فى سمعها الزلزلة ذعرت وروّعت ، وأزاحت طرف الستر لتنظر إلى السماء فلم تجد فيها سحابة واحدة ، بل وجدتها مشرقة بتباشير الصباح ، مضيئة بنور ربها ... فجعلت تجأر إلى الله وتقول : « زلزال وليس فى الأفق سحاب !! أما والله إنه لنذير ، أما والله إنها لغضبة السماء على هؤلاء المناكيد ... القساة ... الذين يقسروننى على هذا العناء وذاك النصب طوال الليل كأننى من حديد ... ياجُوف العلى ... إن يكن ما سمعت حقاً ؛ فإنى أسألك بحق أسمائك أن يكون هذا الدقيق آخر ما يأكلون من زاد هذه الدنيا !! » .

وتبسم أوديسيوس من قولها ، وتوسم فيه وفى تلبية السماء خيراً له ، وشاع فى أعطافه شعور قدسى بما دنت ساعة الانتقام ... وكانت الوصيفات الأخريات يوقدن نار المدفأة فى الردهة الكبرى ، بينما برز

تليماخوس من مخدعه مخترطاً سيفه ، ورمحه يختالُ من خلفه ، حتى إذا بلغ وصيد الباب الكبير هتف بالمرضع العجوز يوريكليا يقول : « كيف حال الغريب النازح يا أماه ؟ بودى لو أنكن عنيتن به كما ينبغى ، لأن والدتى على ما جبلت عليه من خير ولطف ، لا تهش لأمثاله من النازحين الغرباء » وقالت يوريكليا تجيبه : « يا بنى لا تثريب على والدتك فى هذه السبيل فقد احتسى ضيفك من الخمر ملء بطنه ، حتى لقد أبى أن يذوق طعاماً بعد ، وقد أبى إلا أن ينام على فراش خشن فى الردهة الكبرى ، ولا أدرى لماذا تشبث بهذا » . وانطلق تليماك إلى المدينة يتبعه كلباه . ثم أقبل الراعى يومايوس يسوق بين يديه ثلاثة خنازير كناز من أسمن قطعانه ، وما إن رأى أوديسيوس ـ الشحاذ الفقير فى حسبانه ـ حتى قصد إليه ، ولبث يسائله عما لقى من العشاق ـ فذكر له أوديسيوس ما كان من وقاحتهم . . . وبينما هما كذلك ، إذ أقبل الراعى السفيه ، سليط اللسان ، ميلا نتيوس وهو يحدو قطعانه وماعزه ، وطفق كدأبه يسب أوديسيوس ويرسل عليه وعلى يومايوس ما نزح به فمه من شتائم ، تحرشاً بالرجل الشحاذ الفقير ، ولكن أوديسيوس لم يحرك ساكناً . . . وأقبل راع آخر يقود بقرة صفراء لا ذلولا ولا فارض ، يدعى فيلوتيوس ، فوقف عند زميله يومايوس يسائله عن صاحبه الفقير الشيخ ، وكأنما راعته ملامحه وحسن سمته : « إن له سيماء كسيماء الملوك برغم أسماله ومزقه ! » ، ثم صافح أوديسيوس وقال له : « مرحباً أيها الأب ! خفف الله عناءك ووضع عنك وزر ما تشكو . . . يا للسماء ! إن مرآك يفجر الدموع فى عينى لأنك تذكرنى بمولاى أوديسيوس الذى وكل إلى رعى قطعانه وأنا بعد

صغير حدث ، فكَبُرَت كما كَبُرْت ، وتضاعف عددها ... ولكنى والأسفاه لا أفرح بسمنها ووفرة عددها ، بل إن الحزن ليرزح على نفسى لأنها تسمن فتكون غذاء لا مباركاً ولا هنيئاً لأولئك الظالمين ... ولولا رجائى فى السماء ... وأملى الكبير فى عودة مولاى أوديسيوس لَلُذْت من بعيد بسيد آخر أخدمه ، لأن الصبر على خبائث هؤلاء العتاة الطغاة لم يعد فى طوق أحد ... والأسفاه عليك يا مولاى أين أنت اليوم ؟ الا ليتك تعود فتبطش البطشة الكبرى بهؤلاء الجبارين !» ... واغتبط أوديسيوس بما سمع من كلام الراعى فقال له : « لله ما أشجعك أيها الصديق ! ولكنى أبشرك وأطمئنك ، وأقسم لك أن مولاك عائد ما فى هذا شك ، وهو عائد عما قريب ، وستشهد عيناك هاتان مصارع البغاة الطغاة !» ... وبينما هما يتحدثان إذا بالعشاق يقبلون أفواجاً فيملأون البهو ، ويجلسون إلى وليمتهم ، فيشير تليماك إلى أبيه فيجلسه معهم ، ويعد له مائدة ومقعداً ، ويحضر له من الشواء والخبز والشراب ما هو حسبه ويقول له بمسمع من الجميع : « إجلس أيها السيد ولا تخش رهقاً ... إنى أمقت أن أسمع شغباً اليوم ، فالبيت بيت أوديسيوس وإنى لصاحبه !» وغيظ أنطونيوس فقال : « دعوه فقد حق له أن يقول ما يشاء ، فتالله لولا أنْ حال جُوف بيننا وبينه لأسكتنا إلى الأبد أنفاسه !» وقال سفيه آخر : « طب نفساً يا تليماخوس وقرّ عيناً ، فهاك منحة منى لضيفك ، مضغة مشتهاة !» ثم تناول عظمة من السلة القريبة فقذف بها أوديسيوس الذى انحرف عنها لم تصبه ، وعندئذ قال تليماك مغاضباً : « تالله لو أصابته لأقصدْتك برمحى هذا فنفذ فى صدرك ، وخرج يلمع من

ظهرك ، ولانقلب العرس الذى تحلم به فكان مناحة تؤز بيتك ... إنى لم أعد صبياً بعد فلا ترهبونى ! سترون كيف أستطيع أن أضع لكل ذاك حداً بعد إذ طفح الكيل !» وهنا هب لئيم آخر فحبذ فى سخرية مقالة تليماك ... « لأن من حقه أن يحمى ضيفه ... ولكن اسمع يا تليماخوس ... لم لا تمضى إلى أمك وقد يئست من عودة أبيك فتطلب إليها أن تحضر فتختار البعل الذى يروقها من بيننا ؟» فتعمّل تليماك الكلام وقال : « هى حرة مطلقة الحرية . إنى لا أقف فى طريقها ولا أقسرها على شىء !» وما كاد يفرغ حتى انفجر المناكيد يضحكون ويضجون .

ثم حدثت المعجزة !

لقد تضرجت وجوه القوم بحمرة الدم ... ولقد تحركت قطع اللحم فوق الخوان فهى تقطر دماً أحمر كأنه ينبثق من غلاصم قتلى ! ثم امتلأت عيونهم بدموع غِزار حرار ... ثم طفت دموعهم تعلو وتهبط وتنشق عن تنهدات تَصّعدُ من سويداءات القلوب ... ثم هذا ثيوكليمنوس - الكاهن الأبق - يشهد المعجزة ويرى النذير ، فينهض فيهم قائلا : « تعساً لكم أيها الأنجاس لقد سىء بكم ماذا تخبىء لكم المقادير يا ترى ؟ ما هذه الظلمات كأنها قِطَعُ الليل تغطش رؤوسكم وتزلزل أقدامكم ؟ وما هذه الدموع تتصبب من عيونكم فتشوى خدودكم ؟ أنظروا إن استطعتم ! ما هذه الدماء التى تضرج جدران القصر ؟ ما هذه الأشباح التى تكظ البهو الخالد ؟ إنها تتهاوى إلى عالم الفناء فويل لكم !؟ أوه ! وتلك آية أخرى لقد كسفت الشمس فجأة وتوارت بالحجاب ! الضباب الضباب ! ما أروع

الضباب ينتشر فيملأ ما بين الأرض والسماء !!» .

وبالرغم مما أنذر الكاهن فقد أغرق القوم فى الضحك ، ولـم يـزدادوا إلا خبالا . . . وقال قائلهم ، وإنه ليوريماخوس : « ما أحسـب إلا أن به جِنَّةً ! خذوه فغلوه ثم فى السوق صـلوه ، عسى أن يجد ثمة ضياء يمشى فيه ، إنه لا يجد ضياء هنا !!» .

وتلبَّث الكاهن فقال : « أربع عليك يـا يـوريماخوس فـإن لى عينيـن وأذنين وإنى لأرى وأسمع . . . وإنى نذير لكم من بلاء يحل بكم فلا يبقى ولا يذر . . . أيها الأفاكون المفسدون !» وانطلق الكاهن من القصر . . . ولمز أحد العشاق تليماك فقال : « ألا ما أتعسك فى كل من ضَيَّفت مـن ضيف يا فتى ! أما كان بحسبك هذا الفقير الشحاذ القذر الذى تـطعمه ، ما عليه من سبيل ، حتى تجلب هذا المتفيهق الذى يدعى النبـوة ويـرجم بالغيب ؟» .

وصمت تليماك فلم ينبس ، وظل ينـظر إلى أبيـه ، ويــرقب ســاعة الجد .

* * *

## وما رميت إذ رميت ...

وكانت بنلوب جالسة فى الحريم تسمع إلى ضجيج القوم وعجيجهم ، فبدا لها أن تضع حدا لهذا العبث العقيم الذى استمر كل هذه السنين الطوال فأمرت بعض وصيفاتها فتبعتها إلى المخبأ الذى حفظت به أذخار الملك وعتاده ، والسلاح الذى فَرِّقت له قلوب وارتعدت فرائص وزاغت من هوله أبصار .

لله ما كان أشجاها ذكريات حافلة بأروع ضروب المجد ! ها هى ذى تلك الرماح التى طالما لاعب بها أوديسيوس الأسنة ، والسيوف التى طالما انتزع به الأرواح ، والدروع السابغات التى كانت تدرأ عنه وتحميه ، وتحفظه وتفتديه ... ثم ها هى ذى تلك القوس العظيمة معلقة فوق الحائط تلمع وترقص من حولها المنايا ... القوس ذات الذكر التى أهداها إلى أوديسيوس أحد المعجبين به ... ها هى ذى بعد هذه السنين الطوال لم يحملها أحد غير أوديسيوس ، لأن أحداً غير أوديسيوس لا يستطيع أن يثنى قوس أوديسيوس ، وفيها الوتر العُرُد ، الذى لا يلين ولا يبين ولا يَرُدُّ ، إلا إذا كلمه أوديسيوس ، وتناولت بنلوب كنانة السهام التى طالما قذفت المنون فى قلوب الأعادى ، وجلست تنثرها فى حجرها ، وتنتقى منها ، وتبكى أحر البكاء ... لأن كل سهم منها كان يهيج فى قلبها ذكريات زوجها البطل .

وأشارت إلى وصيفاتها فحملن القوس العظيمة ، وحملن ( الدّناجل ) ، ثم حملت هى السهام وسارت أمامهن ، وعلى وجهها

نقابها السادر الحزين ؛ حتى إذا كانت عند الأمراء هتفت بهم فصمتوا ، ثم قالت لهم وفى صوتها نبرة الحزن ، وموسيقى الآلام : « ها هى ذى قوس أوديسيوس وتلك هى سهامه أيها السادة الأمراء ، فمن استطاع أن يثنيها فيرسل عنها سهماً يخترق الدناجل الاثنى عشر فإنى له ،، وهو صاحبى .. وعسى أن تبطل السماء حجتكم اليوم .. فقد طالما ذهبتم بخير هذا القصر ، وأرَغْتم من زاده بحجة أنكم عشاقى ، كما استبحتم أن تسموا أنفسكم ، فإليكم القوس فانظروا ماذا تصنعون » وأشارت إلى الراعى يومايوس فتسلم القوس العظيمة ، وحملها معه زميله راعى الضأن فيلوتيوس ... ثم إن الراعيين لم يطيقا ذكريات سيدهما التى هاجتها فيهما القوس فذرفا دموعهما ثم استخرطا فى البكاء .. وانتهرهما أنطونيوس فقال : « تباً لكما أيها الفلاحان القذران فيم هذا البكاء ! ألتهيجان الشجو فى فؤاد سيدتكما ؟ إنطلقا أيها المسخان فابكيا بعيداً فتالله ما أحسب بكاءكما إلا يزيد فى صلابة القوس ، وتالله ما أحسب أحداً منا ببالغ منها مأرباً .. وَىْ ! من منا له بأس أوديسيوس ؟! لقد كنت طفلا ، بل كنتُ وليداً ، حينما رأيت رجلا ذا صولة وفتوة يهديها إلى البطل .. أجل ... رأيت هذا بعينى هاتين » .. وكان فى كل ما قال ساخراً ... فقد هيأ له الغرور أنه بقليل من العناء سيثنى القوس ويرسل السهم ويحظى ببنلوب ! .

ونهض تليماك فقال إنه سيساهم فى الرماية فإذا استطاع فإنه سيُبقى أمه لديه ولا يتركها تغادر منزل أبيه أبداً ... ثم حفر حُفَراً على خط مستقيم فجعل فى كل منها دُنجلا وثبت حولها بالحجارة والتراب .. ثم إنه تناول

القوس العظيمة وألقمها السهام ، وجمع قواه وطفق يشد ؛ وفشل مثنى وثلاث ، وكانت القوس تشمخ عليه فلا تكاد تنثنى ، حتى إذا حاول الرابعة وأوشك أن يظفر ، أومأ إليه والده ففهم ما يريد وقال : « أوه ! إنه لا يقدر على هذه القوس إلا من هو أقوى منى وأكمل جسماناً وأتم بنية .. فليتقدم لها من شاء منكم حتى نرى ! » .

وقال أنطونيوس : إنهم جميعاً مشتركون فى التجربة حسب مقاعدهم ، حتى الكاهن ... فنهض هذا ويمم شطر الوصيد وحمل القوس الرهيبة ، وحاول مائة مرة أن يثنيها فلم يستطع ، فألقاها وقال : « أيها الرفاق ... ما أحسب هذا القوس إلا موئسةً للجميع ... لقد أوهنتنى وذهبت بَمنَّتى ... ألا فلتحلموا بامرأة أخرى غير بنلوب ، فوالله ثم والله إنها للرجل الذى كتبتها المقادير له ... الذى يحضر إليها بما ليس فى وسعكم من كنوز ومن أذخار » .

وغضب أنطونيوس وتجهم للكاهن ثم قال : « ألا ساء ما تقول أيها الرفيق !! أحسبت أننا نيأس من هذه القوس لأنك لم تقدر عليها ؟ ومتى كنت رجل جلاد وجهاد ؛ ومتى ثنيت قوساً أو أرسلت سهماً ! اربع عليك ففينا الكثيرون الذين يستطيعونها بالقليل الأقل من الجهد » ثم أمر راعى الضأن ملانتيوس أن يحفر حفرة ويوقد فيها ناراً يجعل بها وعاء من شحم ليعالجوا به القوس عسى أن تلين قبل أن يُدْلوا دلوهم .. فلما كان هذا أخذ الأبطال كل بدوره يعالج أن يثنى القوس ، ولكنها استعصت عليهم جميعاً ، ولم يبق إلا أنطونيوس ويوريماخوس ، وهما أكثر هذا الجمع قوة وأوفرهم فتوة .

ثم نهض راعى الخنازير ، يومايوس ، ونهض فى إثره صديقه الراعى الآخر ، فَحثّا الخُطَى خارج البهو لما شاهدا من يأس القوم . . . وقد تبعهما أوديسيوس . . . فلما كانوا بعيداً قال لهما : « أيها الحبيبان ، أإذا أرسلت العناية أوديسيوس فى هذه اللحظة ليبطش بهؤلاء المناكيد ، أفتحاربونهم معه ، أم تحاربونه معهم ؟»... فرمقه فيلوتيوس وقال : « ياللسماء ! تالله لو صحت أحلامك لرأيت كيف أفتديه منهم بنفسى ومهجتى ! وتالله لرأيت كيف يهتز سلاحى فيحصد رؤوسهم ويبعثر أشلاءهم !» وقال يومايوس مثل هذه المقالة . . ولما وثق فى إخلاصهما كشف لهما عن حقيقته فقال : « إذن فاعلما أنى أنا أوديسيوس ، وهذه هى الندوب التى أحدثها الخنزير فى ساقى ، وقد أبت إلى وطنى فجأة فلقيتكما أول من لقيت ، وأكرمت مثواى يا يومايوس وأنت لا تعرفنى ، ولم أشأ أن أبدو للقوم حتى أعرف عدوى من صديقى » ولم يكد يفرغ من قوله حتى انحنى الرجلان يشهدان الندوب ، فلما استيقناها ، ذهلا عن نفسيهما ، وجثوا عند قدمى مولاهما ، وطفقا يقبلانهما ويغسلانهما بدموعهما ، ثم نهضا فألقيا سلاحهما عليه ؛ بيد أنه أمرهما أن يصمتا حتى لا يفضح أمرهم أحد . . . وقال لهما : « لابد أن نعود أدراجنا إلى البهو ، وسأنطلق أنا قبلكما ، وسأطلب منك يا يومايوس أن تعطينى القوس لأقوم بنصيبى فى التجربة ، وسيرفض القوم أن أفعل ، ولكنك يجب ألا تبالى ، بل تناولنى القوس ، ثم تسرع بعد هذا إلى الحريم فتخبر النساء فيه ألا يذعرن إذا سمعن ضجة أو عويلا فى البهو ، أو شهدن حربا وقتالا . . أما أنت يا فيلوتيوس فتسرع إلى باب البهو فتوصده وتحكم

إغلاقه حتى لا يفلت منهم أحد أبداً ». ثم مضى فجلس مكانه لدى الباب ، وتبعه الراعيان .. وفى هذا الوقت كان يوريماخوس يحاول محاولته ، وكان من وقت إلى آخر يذهب بالقوس العظيمة فيعرضها للنار عسى أن يسهل عليه ثنيها ، لكن القوس أبت مع ذاك أن تلين ، فلما بلغ من يوريماخوس الجهد ألقى بها يائساً وقال :

« تباً لها من قوس عنيدة ، والعار الأبدى لنا جميعاً يا رفاق ! ما لنا ولهذا ؟ إن فى إيثاكا حساناً ، وإن فيهن أزواجاً تُرْباً أبكاراً لمن يشاء ! أوه ! يا للخزى ! أواه لو لم تقل الأجيال المقبلة إننا كنا دون أوديسيوس قوة وأقل منه فتوة حين عجزنا أن نثنى قوسه !! ياللخزى ... ياللخزى !»

ورُوِّع أنطونيوس ! وذهل عن أمره ، ولم يشأ أن يخزى نفسه بأن يحاول كما حاول غيره .. فوقف فقال : « ما أحسب القوس عنيدة ولا مستعصية كما تزعمون ... ولكن اليوم يوم عيد أبوللو رب القوس العظيم ، فأنى لنا أن نحمل قوساً اليوم ! دعوها ، واتركوا الأهداف مكانها ، فلن يجسر أحد أن يدخل بهو أوديسيوس فيمضي بها ، وفى بكرة الغد يحضر ميلانتيوس من قطعانه عنزات سماناً فنضحى بها لأبوللو ، ثم نتم محاولتنا » .

ولكن أوديسيوس هب من مجلسه فقال : « يا سادة ! مادمتم لن تحاولوا الرماية اليوم فأرجو أن تدفعوا إلىَّ هذه القوس لأجرب أنا أيضاً ولأرى هل لا تزال بقية من مُنَّة الشباب مخبوءة فى أعصابى ! أم أنها ذهبت بها جميعاً متاعب الحياة وكثرة التجوال فى أطراف الدنيا ...» وجن

جنون القوم لما قال أوديسيوس هذا ، وعجبوا كيف يجسر شحاذ فقير مثله أن يطلب أن يشارك السادات فى مباراتهم ... ومن يدرى ؟ لعلهم ذعروا أن ينجح هذا الفقير فيما فشلوا هم فيه .. قال أنطونيوس : « أخزن عليك لسانك أيها السليط الوقح ! ألا يكفيك أن يسمح لك بوجودك بين هؤلاء السادة الأخيار من أقيال البلاد حتى تطلب أن تباريهم !» وكانت بنلوب تطلع فلم تحتمل أن يؤذى ضيف ولدها هكذا : فقالت : « أنطونيوس ، أنى لك أن تؤذى تليماك فى ضيفه ؟ بل ينبغى أن يحاول الرجل كما حاولتم ، فأما أنك تخشى أن يظفر فيما فشلتم فيه .. فلا ضير ... إنه لا جرم أن يحلم مثلكم بأن أكون زوجة له ، فليفرخ روعك إذن ، ولتطمئنوا جميعاً » وقال يوريماخوس : « يا ابنة إيكاريوس ما دار بخلدنا قط أن تكونى زوجة له إذا ظفر ، ولكنا خشينا أن يفضحنا فى الناس فيقول : عجباً لسادات إيثاكا وما حولها ؟ يطمعون أن يتزوج أحدهم امرأة البطل العظيم أوديسيوس ثم لا يستطيعون رمى سهم عن قوسه ، ويأتى رجل شحاذ فقير فيثنى القوس ويرمى السهم وهم مع هذا لا يستحيون ! هذا ما خفنا أن يكون يا ابنة إيكاروس وهذا ما خشينا أن يذهب بشرفنا !» فقالت بنلوب : « لتطمئن يا يوريماخوس فليس فى مثل هذا يضيع شرفكم .. ولكن الرجل ذو جسم طوال ومظهر جبار ، وقد ذكر آباه فعُلم أنه كريم العنصر طيب الأرومة عريق المحتد ، فلم لا يعطى القوس لنرى ما يكون » وإنه إذا ظفر فسأخلع عليه وأدفع له سلاحاً وأرسله أنى شاء !» . ثم نهض تليماك فقال : « أماه ! إن القوس قوسى وإنى لصاحبها ، أعطيها لمن أشأ وأصونها عمّن أشاء ، ولن ينازعنى حقى أحد

من العالمين ، ولو شئت لأعطيتها الرجل فتكون حقاً خالصاً له ، وما سمحت لأحد أن يمنعنى . . . تفضلى أنت فغلقى عليك أبواب الحريم ، وانظرى فى أعمال البيت ، وصرفى شئون الخدم ، وخذى فى غزلك ونسجك ، وسننظر نحن فى أمر القوس ، وسأرى أنا لم تكون النوبة ، فإنى هنا سيد لا مسود !» . . . وشدهت بنلوب قليلاً ، إلا أنها عرفت أن ابنها قال حقاً ، فانسحبت ، وغلقت عليها أبوابها ، وانطرحت فى فراشها حيث وافتها مينرفا فسكبت فى عينيها غفوة هادئة لذيذة ، فاستسلمت لسبات عميق .

وتقدم يومايوس فحمل القوس وأوشك أن يذهب بها إلى أوديسيوس لكن الأمراء زأروا مغاضبين ، فخشى الراعى ، وألقى القوس ثانية ، فصاح به تليماك : « هات القوس هنا أيها الرعديد ، لشد ما أود أن أخلص منك ومن هؤلاء السادة الذين ترهبهم . . . !» وسخر الأمراء وضجوا ضاحكين . . . ولكن الراعى تقدم إلى القوس فاحتملها ، وذهب بها قدُما إلى مولاه . . . وانطلق بعد هذا إلى الداخل فنادى المرضع يوريكليا وقال لها : « إن مولاى يأمرك أن تغلقى جميع الأبواب ، ويقول لك إنه إذا سمع النساء ضجة فى البهو أو قتالا فليجلسن حيث هن ولا ينزعجن ، وليأخذن فى عملهن ، أتسمعين ؟» .

وغلقت المرضع الأبواب وبلغت رسالة مولاها . . . ثم هم فيلوتيوس فغلق باب البهو وأحكم أقفاله وربطه بِسَلَب[1] طويل كان لسفينة وألقى لدى

( ١ ) فى القاموس السلب لحاء شجر باليمن تعمل منه الحبال ونحسب أن منه إطلاق السلب فى الحبال الغليظة فى مصر فلم نر بأساً من استعماله بهذا المعنى .

الباب ؛ وعاد فجلس مكانه وعيناه لا تريمان عَن مولاه ....

وتناول أوديسيوس القوس فجعل يفحصها ويبحث فى أجزائها ، مخافة أن يكون السوس قد نخرها إذ هو ناء عن بلاده .. وزاغت أبصار القوم ، وجعلوا يُبَرِّقون فى الشحاذ الفقير ويقولون : « الهلُّوفُ[1] الزنيم ! إن له لَعَيْناً فاحصة كأن لها عهداً بالرماية ؛ وإنه ليبحث القوس كأنه يقتنى أمثالها !» ثم قبض أوديسيوس على القوس ، وشدَّ طرفها فى سهولة وفى يسر ، كما يشد الموسيقى وتراً من أوتار قيثاره ، ونظر إلى الأهداف المتراصة أمامه ، وأرسل سهماً اخترقها جميعاً ، وسُمع له صوت كسقسقة العصافير ...

يا عجباً !! لقد أراش أوديسيوس السهم ، وأرسل زيوس العلى زلزلة ورعداً مدوياً وثب له فؤاد البطل ، وطارت منه ألوان القوم ، وانقذف الرعب فى قلوبهم ..

ثم أخذ أوديسيوس سهماً آخر فثبَّته ، ثم أراشه فاخترق الأهداف مرة أخرى ...

قال أوديسيوس : « تليماخوس أيها العزيز ! إن ضيفك لم يخيِّب رجاءك ولا أضاع عشمك[2] ، ولقد أصبت الأهداف كلها على حداثة عهد بالرماية ... والآن ، هلم ... إن النهار يوشك أن يولج ، وإنه لينبغى أن نعد وليمة المساء للسادة الأمراء ، ولن يعدموا بعدها ما دأبوا عليه من رقص وعزف ، وقصف وغناء ...!»

---

(١) الهلوف بتشديد اللام وزان فردوس الثقيل الجاف البطين ونحسب أن منه نحت المصريون كلمة هلفوت وقد استعملناها لظرفها ومناسبتها كثيراً للمقام .

(٢) فى القاموس العشم الطمع .

وهم تليماك فألقى حمائل سيفه على كاهله ، وتناول رمحه العظيم . .
وسنرى !



# الانتقام الهائل

وألقى أوديسيوس أسماله ، وأطرح مزقه ، وبرز للملأ أوديسيوس القوى الحديدى الجبار ، وتناول كنانة الأسهم التى تهمهم فيها المنايا وتغمغم ، والقوس العتيدة العنيدة ، ووقف عند الوصيد حتى لا يفر أحد من أعدائه فينجو من الموت الذى هو ملاقيه ، ثم نثر الكنانة عند قدميه وهتف بالعشاق يقول : « وهكذا يا سادة تتم فصول المأساة ، وهكذا أيضاً تنتهى المباراة التى لم يفز فيها واحد منكم ... والآن ... أنظروا ... إنى لن أسدد سهامى إلى هذه الأهداف بعد ، بل إنى مسددها إلى غرض آخر ...» وشد الوت العُرُدّ ، وأرسل إلى حلقوم أنطونيوس سهماً مراشاً عجل به إلى هيدز . وكان العلج يوشك أن يحتسى كأساً ذهبية من أعتق الخمر ، فسقطت الكأس من يده الذاهلة ، وسقط وهو يتشحط فى دمه ، ويلفظ أنفاسه ، وذعر الآخرون حينما رأوا أخاهم يسقط إلى الأرض رمة لا نفَس فيها ولا حراك ، فهاجوا وماجو ، وهبوا يبحثون عن أسلحتهم .. ولكن ، هيهات ! لقد أخفاها أوديسيوس وولده ليلة أمس .. فأنى لهم بها !! وصاحوا بأدويسيوس : « أيها المجنون لقد أخطأت المرمى ! ماذا أصابك ؟ إنك تسدد إلينا ؟ لقد قتلت أنبل شباب إيثاكا ، ثكلتك أمك ! أبداً لن تحمل بعد هذه قوساً أبدا » .

وانكشف الستر ، وعاد إلى الشحاذ الفقير عنفوانه ، وانقذفت من فمه الحمم فقال : « أيها الكلاب ! فال[1] ما زعمتم أن أوديسيوس لن يئوب ! هاأنذا أيها العبيد ! لقد استبحتم حمى بيتى وأذللتم قدسه الحرام ،

(١) خاب .

وأوضعتم الفتنة فاعتديتم على نسائى ، ولم تبالوا أن تتعشقوا زوجى ، بينما رجلها حى يسعى على قدميه ، غير عابئين بمن يطَّلع عليكم فى السماء وهو بكم محيط ، ولا مبالين بما تضج به الرفات الكريمة فى ثرى هذه الأرض من فعالكم ، فويل لكم ، لقد حان حينكم !!» .

وارتعدت فرائص الكلاب كما دعاهم أوديسيوس ، وطارت حمرة الخمر من خدودهم ، ووقف يوريماخوس متخاذلا وهو يقول : « إن كنت حقاً ملكنا أوديسيوس فكلنا نعتذر عما ارتكبناه من الإثم فى بيتك . ولقد تكلمت فقلت الحق كل الحق ، ولكنك قد أرديت أنطونيوس الذى دعانا إلى كل ذلك والذى كان يطمع أن يتربع على عرشك ويملك كما ملكت ، فاعف عنا واصفح عن خطايانا ، فنحن بالرغم من كل ما حصل شعبك الأمين ، ورعاياك الأوفياء الأولياء . . . على أننا سنعوضك مما استبحنا مالاً بمال وعتاداً بعتاد » . فقال أوديسيوس : « يوريماخوس أيها النذل ! إنكم مهما ملأتم يدى بالذهب فلن تشفوا حَرَدى ولن تُذْهبوا غلتى حتى أنتقم منكم جميعاً لما صدر عنكم من إفك ، وما ارتكبتم من أوزار ! فاختاروا لكم ! الحربَ التى جدت بكم فجدوا بها ، والقتالَ الذى لا محيص منه ولا محيد عنه ، أو . . . . فالفرار الفرار . . . ولن تجدوا إلى الفرار سبيلاً . . . » وزُلزل الجميع زلزالا شديداً ، وجفت ألسنتهم فى حلوقهم فما عرفوا ماذا يحيرون ، ثم هتف فيهم يوريماخوس فجأة يقول : « أيها الإخوان ، لقد تحجر قلب هذا الرجل فلن يعرف سبيلا إلى الرحمة ، وها قد قبض على القوس بكلتا يديه ، ووقف عند الوصيد يذودنا عن الباب ، ولن يفلت أحد منا من سهامه قط ، بل إنه سيقنصنا واحداً بعد واحد . . . ولا أرى

إلا أن تفزعوا إلى سيوفكم فتخترطوها ، وإلى المناضد فتدرعوا بها ، ثم نهجم عليه كرجل واحد عسى أن نزحزحه عن الباب فننجو بأنفسنا ونلوذ بالفرار فإذا بلغنا المدينة فإننا سالمون !» ثم فرغ من صيحته واستل سيفه ، وهجم على أوديسيوس مرعداً مزمجراً ، ولكن أوديسيوس أصماه بسهم فى صدره فصرعه ، وخر اللئيم يعالج سكرة الموت ، وانتشرت ضبابة الفناء الأبدى على وجهه المقبوح فأطبقت عينيه ... وهنا ... هاج الأمير أمفينوم وماج وهجم على أوديسيوس بسيفه الذى تقطر من حده المنايا ... وكاد اللئيم ينال من خصمه منالا لولا أن قفز تليماك برمحه العظيم فأغمده فى صدره ورده عن أبيه وعاد مكانه دون أن ينتزع الرمح مخافة أن يتكاثر عليه الأعداء . وقال تليماك لأبيه : « أبتاه ! إنه يجب أن نستعد بسلاح أكثر ... وإنى ذاهب فمحضر ما نحتاج إليه وعائد بسرعة البرق » فقال أبوه وهو يقصد القوم بسهامه : « هلم يا ولدى وهات ما استطعت ، فلشد ما أخشى أن تفرغ هذه السهام فلا أستطيع أن أدفعهم عن الباب ... » وانطلق تليماك إلى غرفة السلاح ؛ فأحضر ما مست إليه الحاجة من رماح وسيوف وخوذات ، وادّرع بما هو حسبه منها ، ثم ألبس الراعيين الأمينين درعين سابغتين (١) وزودهما بسفين بتّارين ، ووقف الثلاثة إلى جنب البطل العظيم يمنعون تكاثر العشاق عليه ، بينما هو يرسل سهامه فتخترقهم وتستأصل شأفتهم واحداً فواحداً ، حتى إذا فرغت سهامه ، وقف الأبطال الثلاثة يذودون من دون الباب حتى لبس أوديسيوس دروعه ووضع على رأسه خوذته ، وأخذ رمحين عظيمين فى كلتا يديه ، وعاد إلى كفاحه ، وكانت فى

---

(١) ضافيتين .

الجانب الآخر من البهو بوابة صغيرة لم يفطن العشاق إليها ، فأرسل أوديسيوس راعي الخنازير ليحرسها وليحول بين العشاق وبينها . . . وضاقت الدنيا حتى عدت ككفة الحابل في أعين القوم ، وتجهمت لهم حتى غدت كالليل البهيم التي غواشيه فوق رؤوسهم ، وناء بكلكله على صدورهم . . . فقال قائلهم : « ألا يستطيع أحد أن يمرق من البوابة فيصيح بأهلنا ويستنجدهم لنا ؟» .

فانبرى له ميلانتيوس [٢] يجيبه : « هذا عبث لن يكون وراءه طائل فإن رجلا واحداً يستطيع أن يقفنا جميعاً لو فعلنا ، دون أن نبلغ الباب . . . بل لديَّ فكرة . . . إني أعرف أين خبأ أوديسيوس وابنه أسلحتنا ، وسأنطلق فأحضر لكم منها ما يقيكم منها . . . » ثم تعلق بحبال مدلاة من كُوّة في السقف وتسلق عليها حتى نفذ ثمت ، وانطلق إلى غرفة السلاح فأحضر اثنى عشر درعاً ورماحاً كثيرة وخوذات ، وظل يلقي بها من الكوة فيتلقاها رفاقه ويدرعون بها . . . ولو كان مع أوديسيوس سهم واحد يرسله إلى هذا العلج قبل أن يتعلق بالحبال لما استطاع أن يحضر هذه العُدد ، قال أوديسيوس : « أي بني لقد خاننا بعضهم ودل القوم على غرفة السلاح ، فانظر كيف يتضاعف عناؤنا ويزيد بلاؤنا » فقال تلماك : « كلا يا أبتاه ، إنه لم يخنا أحد ، والذنب ذنبي ، فقد تركت باب الغرفة دون أن أوصده . . . يومايوس ! إنطلق فغلّق باب غرفة السلاح وأحضر مفتاحها ؛ وأنظر هل خاننا أحد ، أو أن هذا من فعل ميلانتيوس كما أحْدِس !» وانطلق يومايوس فرأى ميلانتيوس ذاهباً إلى غرفة السلاح ليحضر عُدَداً أُخَرَ

(٢) هو الراعي الخائن الذي أصبح ضلعه مع العشاق ضد مولاه أوديسيوس .

ورماحاً ، فقال الراعى : « هاهو ميلانتيوس الوغد منطلق إلى الغرفة كما حدس مولاى » وهتف بتلياك : ها هو ذا ! ها هو ذا ! هل أحضره حياً ليلق جزاءه أم أقتله حيث هو ؟» فقال أوديسيوس : « بل اذهب أنت وأخوك الراعى فشدا وثاقه واحبساه فى الغرفة حتى يلق جزاءه ، وسأبق أنا وتلياك لنذود دون الباب » وانطلق الراعيان فوقف كل منهما خلف مصراع من باب الغرفة حتى إذا برز ميلانتيوس انقضا عليه وكبلاه ودفعاه داخل الغرفة ، ثم ربطاه فى عمود هناك ، وقال له يومايوس : « إهنأ يا صاح وارقد هنا إلى الصباح ، وأكبر ظنى أن الشمس لا تشرق عليك إلا وروحك فى عالم الظلال والأشباح ، فلا تراك قطعانك بعد اليوم » وأغلقا الباب وعادا أدراجهما إلى مولاهما وولده ، ووقف الأربعة يناضلون جحفلا بأكلمه . ثم بدت مينرڤا الحكيمة فى زى منطور وطيلسانه فعرفها أوديسيوس وفرح بها قلبه ، وهتف بها قائلا : « مِنطور أيها العزيز ، معونتَك وتأييدك ، فنحن صديقان منذ القدم !» وهتف العشاق ينادون : « احذر يا مِنطور وإلا فستلقى حتفك بعد أن نظفر بهذا الوغد . ولحظت مينرڤا ذعر أوديسيوس مما رأى من تسلح القوم فقالت تؤنبه وتحثه : ما هذا التقاعس عن الحلبة يا أوديسيوس ؟ هل فقدتِ شجاعتك وعنفوانك ؟ إنك ما أحجمت مثل ما تحجم اليوم طوال عشر سنوات حاربتها فى طروادة من أجل هيلين فهل يشق عليك أن تلق هذه الحفنة من عشاق بنلوب فى بيتك ، بل فى عقر دارك ؟ هلم ! قف إلى جانبى وانظر إذا كان منطور قد عق الصداقة القديمة !» .

وحاربت معه ساعة ، ولكنها تركته ليعمل للنصر بمفرده ، وانسحرت

فكانت عصفوراً من عصافير الجنة جعل يرف ويرف فى سماء البهو ؛ حتى وقف على إحدى خشباته . . . وفرح العشاق لِمَا رأوا من مفارقة منطور ، وعادت إليهم بعض شجاعتهم لَمّا رأوا المحاربين الأربعة يقفون وحدهم فى مدخل الباب الكبير . . .

وقال أحدهم يخاطب الباقين : « هلموا فليقذف ستةٌ رماحهم قذفة واحدة إلى صدر أوديسيوس ، فإنه إن سقط استرحنا منه ، فلن نلقى عناء من الباقين » ولباه أصحابه ، فقذفوا برماحهم فى صدر أوديسيوس ، ولكن . . . هيهات . . . إن واحداً منهم لم يصب غرضاً من الصدر العظيم . . . وهنا . . . هتف أوديسيوس برفاقه ، فانقض الأربعة على أربعة من المهاجمين فجعلوا فى صدورهم رماحهم ، ورد الله كيدهم فى نحورهم ، فقتل كلٌّ مهاجمه . . . ورِّوع الآخرون فارتدوا على أعقابهم ، وانزووا فى الركن السحيق من البهو ، وبهذا استطاع أوديسيوس ورفاقه انتزاع الرماح من صدور المقتولين . . . ولم يهتم الراعيان بما أصابهما من جراح بالغة ، بل وقفا يناضلان ويفديان سيديهما . . . ولما رأت مينرفا ما يلقى المحاربون الأربعة من تكاثر الأعداء ، رفّت فى الهواء ، ثم كشفت عن درعها الهائلة التى تجلب الموت إلى كل من يراها ، ووضعت خوذتها الرائعة ثم انبرت للقوم ، وهجم المحاربون الأربعة يطاردون الأعداء ، والأعداء يجرون من هٰهنا وهٰهنا مذعورين ذاهلين مما رأوا من درع مينرفا . . . وجعل أوديسيوس ورفاقه يصطلمونهم أربعة بعد أربعة . . . حتى لم يبق إلا المنشد المسكين فيميوس ، الذى قَسَره العشاق على الإنشاد لهم ، وتطريبهم تطريباً لم يؤثره ، ولم يؤجر عليه . . . لقد فزع المنشد المسكين من هول

الجزرة ... وانطرح تحت قدمى أوديسيوس يقول : « مولاى ! أوديسيوس العظيم ! ارحمنى واعْفِنى فقد قهرنى القوم على ما رأيت ! اصفح عن المنشد البائس الذى يدخل السرور على أفئدة الآلهة ، ويذهب الحزن عن قلوب الناس !» وهتف تليماك بأبيه يقول : « إصفح عنه يا أبى ، فإنه لا تثريب عليه ولا لوم ... وهلم ننقذ المنادى إن كان لا يزال به رمق ، فلقد كان يعنى بى إذ أنا صبى فى المهد !» وكان المنادى قد فزع مما رأى ، وخبأ نفسه تحت مقعد كبير ، ثم طرح عليه جلد ثور . فلما سمع تليماك يقول لأبيه هذا القول ، برز من مكمنه ، وتعلق برجلى تليماك ، وأنشأ يتوسل ويتضرع ، ويبكى ويتصدع . فقال له أوديسيوس : « لا تجزع أيها الرجل ؛ فلقد أنقذك ولدى كما أنقذ المنشد ... اذهبا فانتظرا فى الرحبة ، فعندى ما يشغلنى عنكما الآن ... وانطلق الرجلان وهما لا يصدقان أنهما نَجَوا ، وجلسا عند المذبح ينتظران قتلتهما فى كل لحظة ... ثم مضى أوديسيوس يبحث فى البهو وتحت المناضد عمن يكون به رمق من الحياة فيجهز عليه ، بيد أنهم خروا جميعاً مضرجين بدمائهم فى التراب ، وقد تكبكبوا فوق بعضهم كالسمك فوق الساحل يقذف به الصياد فى يوم صائف ... ثم قال لابنه أن يدعو المرضع العجوز يوريكليا ، فأقبلت ورأت أوديسيوس واقفاً كالمارد بين القتلى وقد لطخت الدماء يديه ورجليه وصدره ، فكادت المرأة تجن من الفرح لهذا النصر المبين الحاسم ، وأوشكت أن تصيح وتزغرد ، لولا أن ردعها أوديسيوس عن ذلك : « أيتها المرضع العجوز اكتمى فرحتك ، فإنه ينبغى ألا تكون شماتة فوق جثث القتلى ، وألا يكون صياح ، لأنها إرادة السماء قد نفذت فيهم بما أسرفوا من قبل وكانوا من

المفسدين !» ثم أمر بالجثث أن تحمل خارج القصر ، وبالدماء أن تغسل ، فتم ذلك فى أقصر وقت ، والتفت إلى المرضع يحدثها ويقول : « أرأيت ؟ اذهبى الآن فأحضرى ناراً وكبريتاً كيما نطهر الحجرة ، ثم أخبرى بنلوب أن تلقانى ههنا !». فقالت العجوز « سمعاً وطاعة لك يا بنى ! سأفعل ما أمرت ولكنى سأحضر لك ثوباً تلبسه قبل كل شىء فإنه لا ينبغى أن تظل واقفاً هكذا فى أسمالك هذه » بيد أن أوديسيوس أمرها أن تفعل ما أخبرها من فورها ، فانطلقت العجوز ، وعادت بالنار والكبريت ، وأخذ أوديسيوس فى تطهير البهو الكبير .

## بنلوب ... وأخيرا ... بنلوب !

وهرولت المرضع العجوز فصعدت إلى الطابق العلوى ، حيث كانت سيدتها المحزونة تتقلب على فراش الهموم والأحزان فهتفت بها وهى تضحك ، وتكاد تجن من الفرح : « هلمى يا بنيّتى فاشهدى بعينيك كيف حققت الآلهة أحلامك واستجابت لصلواتك ... هلمى ... لقد عاد أوديسيوس وبطش البطشة الكبرى بأعدائه فقتلهم عن بكرة أبيهم بعد ما كان من خباثاتهم ، وبعد ما استباحوا من حرماته وما أراغوا من خيره وهزئوا بولده ... إنهضى !» .

ولم تصدقها بنلوب ، وقالت مستهزئة بها : « لشد ما عدوت طورك وغبت عن صوابك أيتها المرضع العزيزة حين توقظيننى بمثل هذا العبث وذاك الحديث الملفق ! لقد حرمتنى من غفوة يا لها من غفوة لم تكتحل عيناى بأهدأ منها ولا أروح منذ أن فارقنا أوديسيوس إلى الأرض

المشئومة . . . تالله لو حصل مثل هذا ممن هن دونك سناً ومنزلة من الخدم لكان لىَ معهن شأن آخر . . . ولكن . . . لا عليك يا يوريكليا . . » فتبسمت المرضع ثم قالت : « وَىْ ! تالله إنه للحق ، ولا مرية فيما أقول . . . إنه هو الشحاذ الفقير الذى كلمك ، والذى عبث به القوم وقد كان يعرف تليماك كل ذلك ، ولكنه جعله سراً بينه وبين أبيه حتى يثأر من الأمراء ويستأصل شأفتهم !» فوثبت بنلوب من سريرها مسبوهة ذاهلة ، وطوقت بذراعيها عنق يوريكليا ، وأنشأت تقول : « خبرينى بالله عليك أيتها العزيزة . . . خبرينى بالله عليك . . . إذا كان ما تقولين حقاً فأنَّى لأوديسيوس أن يلقى وحده كل هؤلاء ؟ وأنى لواحد أنْ يهزم فيلقاً من مائة أو يزيدون ؟» فقالت المرضع : « لعمرك ما رأيت كيف حدث هذا الأمر ، ولكنى سمعت بأذنَّى أنين القتلى . . لقد كنا جميعاً جالسات داخل القصر ، وفرائصنا ترتعد من الفَرَق ، وكانت النوافذ كلها مغلقة بأمر سيدى ، حتى أقبل تليماك فدعانا إلى البهو ، حيث رأينا أوديسيوس واقفاً بين الرمم ، وهو الآن يطهر البهو من أدرانهم بالنار والكبريت ، والمدفأة تتأجج بلظى كالجحيم ، ولقد ارسلنى لأدعوك إليه حتى يفرح بك ، ويطمئن قلبك ، بعد طول العذاب » وكانت العجوز تتكلم وهى ما تنقطع عن الضحك والمرح ، فقالت لها پنلوب : « أيتها المرضع العزيزة لا يقتلك الفرج والصخب . . تالله إنه لن يفرح بأوديسيوس اليوم أحد كما أفرح به أنا وولدى تليماك . . هذا إن كان ما قلت حقاً . . . على أننى لا أصدق . . لا جرم إنه إله كريم أقبل لينتقم لنا من هؤلاء العرابيد جزاء

ما أنزلوا بنا من هوان فأبادهم جميعاً . . . أما أوديسيوس فلا ! لقد قضى أوديسيوس وقضى أوديسيوس إلى الأبد !» فقالت يوريكليا : « ألا تزالين غير مصدقة ياطفلتى ( ! ) العزيزة ؟ ألا فاسمعى ! هاك دليلا آخر ، بينما كنت أغسل قدمى الرجل الفقير اللاجىء تحسست يداى نَدَبة فى ساقه ذكرتنى بالندوب التى أحدثها الخنزير البرى فى ساقى سيدى أوديسيوس ، فلما كشفت عنها تبينتها ، وتأكدت أنه هو ، وأردت أن أصيح بك لأخبرك ، وأزف إليك البشرى . لكنه أطبق يده على فمى فلم أستطع أن أنبس . . تعالى ! هلمى معى الآن وانظرى بعينك لترىْ أن كنت كاذبة ، تعالى جعلت فداك ! » وانطلقنا معاً ، وأطافت الذكريات برأس بنلوب ، ولم تدر ماذا عساها فاعلة أذا كان ما أنبأت به المرضع حقاً . . . فلما دخلتا البهو جلست بنلوب على مقعد كبير قريب مِن المدفأة ، ثم طفقت تحدق بصرها فى أوديسيوس ، وكان جالساً وظهره إلى عمود من عماد البهو ، وعيناه تبحثان فى الأرض ، وكأنه كان ينتظر أن تتكلم بنلوب قبل أن يفوه هو بكلمة . . . بيد أنها لم تنبس ، بل كانت ذاهلة شاردة ، تنظر إليه مرة فتوشك أن تعرف فيه بعلها الحبيب ولكنها كانت إذا نظرت إلى مزقه وخرقه ، والأسماك التى لا تستر بعض جسمه الهائل عجبت ، وتولاها الدهش ، وانعقد لسانها فما يكاد يبين .

وقال تلياك آخر الأمر : « أماه ! لشد ما تحجّر قلبك وغلظت كبدك ! لم لا تنهضين فتعانق أبى !! أية زوجة ينحبس لسانها كما انحبس لسانك ، فما تكلم زوجها الذى آب من سفر سنين كلها أشجان وكلها

أحزان ، وكلها آلام متصلة ومتاعب تنوء بحملها الجبال !» فقالت أمه تجيبه : « تالله يا بنى لقد ذهلت عن نفسى وإنى لفى تيه فما أكاد أبين ... ولكن إذا كان حقاً أوديسيوس ، فإن لنا علامات هى سر ذات بيننا ، ولا يعرفها أحد سوانا » فتبسم أوديسيوس وقال : « لا عليك يا بنى ! دعها فستستبين حقيقتى حين أخلع هذه الأسمال » ثم انتحى وولده ناحية ، وأسر إليه أنهما ينبغى أن يتهيآ لما عسى أن يكون من تألب الإيشاكيين عليهما وشغبهم لما كان من قتل ساداتهم ، وما يتوقع من قيامهم بثورة عامة لا تبقى ولا تذر للانتقام من القاتل ... وذكر أوديسيوس أنهما يجب أن يقيما فى البهو فيأخذا مثل ما كان العشاق يأخذون فيه من قصف وعبث ومجانة ...

وحسِب المارة أن بنلوب قد اختارت بعلها من بين الأمراء .. « فهى لم تعد تطيق الوحدة ، ولا تحتمل الترمُّل ، ولا تقوى على حياة الآمال الكواذب التى تجرعت غُصصها مدى عشرين عاماً » أما أوديسيوس فقد مضى فاستحم وتضمخ بأحسن الطيوب ، وأضفى عليه من كل سابرىّ وفَوْفٍ موشى ، ثم تنزلت مينرفا فنفخت فيه من روح الشباب ، وسكبت فى عروقه من دماء الفتوة ، ومسحت بيديها الكريمتين على وجهه المجعد ذى الأسارير ، فأشرق وتألق ، وهدلت شعره على كتفيه غدائر فاحمة كقطع من الليل البهيم . ثم إنه انطلق إلى البهو فجلس تلقاء بنلوب وأنشأ يقول : « أيتها الزوجة المعجبة ! أما والله لقد ركّبت الآلهة بين جنبيك قلباً ليس كقلوب النساء ... وأى امرأة تنتبذ من زوجها مكاناً قصياً كما تنتبذين يا بنلوب ... بعد إذ عاد إليك من تجوال عشرين سنة كلهن قلاقل وأهوال ... يوريكليا ! هلمى فامهدى لى فراشاً بيديك الضعيفتين ،

مادام الحديد البارد الذى خلق منه قلبها لا يلين » ومع كل هذا فقد كان الريب يرين على فؤاد بنلوب ، فقالت تختبره : « مولاى ! إنى وأيم الحق لا معجبة ولا بى خيلاء ، ولكنى أذكر أحسن الذكر كيف كنت يوم همت بك سفينتك الجبارة إلى طروادة ... يوريكليا ! إذهبى أيتها المرضع فأحضرى سرير زواجنا من المخدع ، واجعلى عليه الوسائد والحسبانات ليستريح عليه مولاك كما أمرك » وعجب أوديسيوس لما تكلمت به زوجته ، فقال : « إنك يا زوجتى تمزقين نياط قلبى بما تقولين ! أنى لأحد ما من العالمين أن يحرك سريرى بله أن يحمله ، إن لم تكونى قد أطلعته على سره ؟ لقد صنعت مخدعى واتخذت سريرى فى جذع الزيتونة الهائلة .. فهل لا يزال سريرى فى موضعه ثمت ، أم أنَّ أحداً قطع الجذع العتيد واحتمل السرير إلى مكان بعيد ؟» وهنا ، مادت الدنيا برأس بنلوب ، وتأكدت أن الرجل زوجها من غير شك ، فخفق قلبها خفقانا شديداً ، وانطلقت تعدو نحوه ، ثم طوقت عنقه بذراعيها ، وراحت تبكى وتنتحب ، وتقول له : « لا تنقم علىّ إذاً يا أوديسيوس ، ولا يحزنك أننى لم اعرفك منذ أول نظرة ... أواه أيها العزيز ! لقد قضت الآلهة أن نفترق وأن نتعذب كل هذه السنين ، وما كان من شكى فهو أثر من احتراسى خشية أن يخدعنى أحد فيدعى أنه أنت ، ويزخرف على ويبهرج حتى ينالنى بالخداع والحب ... ولكن مادمت قد ذكرت لى سر المخدع والسرير والزيتونة ، وهو ما لا يعلمه أحد غيرى وغيرك وغير يوريكليا ، فالآن فاهنأ ، ولأهنأ أنا ، وليطمئن قلبى ... قلبى الوفى الذى أرده إليك كآخر عهدك به ، لا ينطوى إلا على حبك ، ولا يضمر غير الوفاء لك ...» وعانقها

أوديسيوس . . . وضم إلى صدره صدرها . . . والتف حول عنقه ذراعاها البضتان البيضاوان ـ وجمد عاجهما الناعم الأملس حول كاهله ، ووقف أوديسيوس على شاطىء الذكرى كما يقف السباح المتعب المنهوك على شاطىء اليم وقد بلغه بعد جهد ، فأعضاؤه متراخية ، وأعصابه موهونة ، وقلبه خَفِق ، وروحه نشوى وذراعاه مع ذاك معلقتان بالشاطىء وقد سُمّرتا فيه . . . وقال بعد لأى : « والله يا زوجتى العزيزة إنا ما بلغنا بعدُ نهاية أشجاننا وأحزاننا ، وإن أمامنا لأمداً بعيداً وهموماً أخر تنبأ لى عنها الكاهن تيريزياس حينما رحلت إليه فى هيدز ، وإنى لا أدرى ماذا يكون من أمرى . . . ولكن . . . لا . . . لننطلق الآن إلى مخدعنا العزيز الطاهر فإنى بى حاجة إلى الراحة والإستجمام . . . وإن بى لشوقاً مبرحاً ونزوعاً شديداً إليك ». فقالت بنلوب : « المخدع الطاهر النقى معد فى أيما لحظة أردت يا أوديسيوسى العزيز . . . بيد أنك أثرت شجنى وفزّعت شجوىَ بما ذكرت عما يتربص بنا من هم جديد ، فهلا ذكرت لى ماذا زعم لك تيريزياس فى العالم الآخر ؟ إنى مشوقة إلى ما قال ، فاذكره بحق الآلهة عليك » فأجاب أوديسيوس « عمرك الله لم تسألين عن أمر إن يبد لك يسؤك ؟! ولكن لا ضير . . . سأذكر لك ما نبأنى به تيريزياس » ثم وجم قليلا وقال : « لقد أشار أن أحمل مجدافا عظيما على كاهلى ، ثم أنطلق مهاجراً إلى ممالك نائية وأصقاع سحيقة ، حتى أكون فى قوم لم يسمعوا عن البحر قط ، ولم يروا فى حياتهم مجدافاً ولا سارية ، فإذا لقيت أول من يسألنى عما أحمل ، وهل هو مذراة مما ينسف به القمح ، غرست المجداف فى الأرض ، ثم تقربت إلى إله البحار نبتيون الجبار بقرابين تمحو ما بينى وبينه ، وتعقد بيننا

أواصر السلام والوئام ، كما تقربنى إلى أعوانه الآخرين من آلهة الماء ، فإذا فعلت استرحت من لأواء الحياة ، ونأت عنى أرزاؤها ، وعدت إلى شعبى وإليك ، وإلى ولدى وقصرى فعشت بينكم بسلام ، حتى يأتينى الموت ، هادم اللذات ، من أعماق البحر ، ولكنه سيكون موتاً طيباً لا مخوفاً ولا مرهوباً ، بل سكرة بين أَمَنَةٍ ونعاس . بعد إذِ الجسم موهون ، والقلب فارغ ، والرأس مشتعل والروح سالية قالية » .

وهكذا ظل الحبيبان المشوقان يتحدثان قطعاً من الليل ، بينما كانت المرضع وخادمة أخرى تمهدان الفراش على ضوء المشاعل . . . ثم أقبلت الوصيفة فذهبت تمشى بين أيديهما إلى المخدع ، وفى يديها المشعل المقدس يفيض نوراً ولألاء كما أفاض منذ عشرين سنة . . .

ولفهما ظلام الليل ، وسِتْرُ الهوى . . . وسكن البهو بعد ما ضج بالعزف والقصف ، وهدأ القصر فى سدول السعادة .

# أوديسيوس يصل الى ايثاكا

وهتف هرمز بأرواح القتلى فهمهمت ، ثم أشار إليها بعصاه فسحر الكرى مُقلها ، ثم أشار كرة أخرى فأهرعت فى إثره كما تهرع الخفافيش فى إثر دليلها :

وانطلق حبيب الآلهة فعبر عباب البَحر المحيط ، وعبرت الأرواح الهائمة فى إثره ، وجاز صخرة لوكيديا ، وبوابة الشمس الخالدة ، ثم انطلق ، والأرواح الهائمة من خلفه ، فى تيه الأحلام ، وعبر بها فى مروج آسفوديل ذات الأشباح ، حيث لقى القتلى أرواح ذويهم وأبطالهم من رجال هيلاس الذين سقطوا تحت أسوار طروادة ... وهناك ... وقفوا طويلا يتناجون ، وكلم ابن بليوس قائد الهيلانيين أجاممنون ورثا له ، فكلمه أجاممنون وتحسر عليه ، ورأوا روح بتروكلوس حبيب أخيل زعيم الميرميدون ، وروح أخيل نفسه ، وروح أجاكس العظيم ... وعرف أجاممنون روح أمفيديون العاشق المحروب الذى قتله أوديسيوس فيمن قتل من عشاق بنلوب ، فكلمه ، وكلمه أمفيديون فقص عليه ما كان من مأساتهم الغرامية وما كان من أوبة أوديسيوس المفاجئة واختلاطه بهم فى صورة فقير شحاذ ... إلى آخر القصة الدامية المشجية التى انتهت بقتلهم جميعاً ... وما كاد يفرغ حتى بدا العجب فى محيا القائد أجاممنون وطفق يثنى على وفاء بنلوب ، وشجاعة صديقه أوديسيوس ، ثم راح ينعى على زوجته الآثمة كليتمنسترا ما كان من غدرها ، وتدبير غيلته مع حبيبها الفاسق إيجستوس ...

وهكذا انتهت الأشباح الآثمة إلى ظلمات هيدز ... إلى مملكة بلوتو ... حيث تلقى جزاءها العادل من مخالب سيربيروس الحادة وأظفاره القواطع .

هذا ما كان من أمر تلك الفئة الباغية .

أما ما كان من أمر أوديسيوس فقد استيقظ فى بكرة اليوم التالى ، واستيقظت معه بنلوب السعيدة ، وهب من فراشه فارتدى ملابسه ، ووضع عليه سلاحه ، ثم أمر زوجه ألا تخاطب من الناس إنسياً حتى يعود ، وأن تغلق عليها أبواب القصر ، لأنه منطلق إلى أبيه ليزف إليه البشرى بنفسه . ودعا إليه تليماخوس ليصحبه ، وليصحبه الراعيان المخلصان الوفيان ، بعد إذ يسبغ كل منهما عليه دروعه ، ويستعد بسلاحه .

وانطلق الأربعة يطوون شوارع المدينة التى خيم عليها الصمت دون أن يشعر بهم أحد من أهلها ، حتى بلغوا الخلاء ، ومازالوا يذرعون حتى كانوا عند المزرعة المصون الناضرة ، وهناك ، نظر أوديسيوس بعينين مشوقتين ، وقلب ملتاع خفِق ، إلى البيت الصغير الذى يؤوى أباه الضعيف الشيخ ، حيث يقضى أيامه فى أسى ليس بعده أسى ، ويجتر همومه فى صمت كصمت الموتى ، ويذرف دموعه فى قنوط وسكون ... لا يراه أحد ، ولا يشكو بثه إلى مخلوق ، إلا هذه المرأة العجوز الحيزبون التى تخدمه فى رضى ، وتسهر عليه فى حب له ، وإشفاق من أجله .. وكان ليرتس ، الأب المحزون ، يتلقى بالعمل فى بستان قريب يشذب شجيراته ، ويهذب زهيراته ، فأمر أوديسيوس ولده ورأعييه أن يبقوا فى المنزل ليعدو غداء فاخراً ، وشواء سمينا ، لأنه يحب أن يلقى أباه فى البستان وحده ..

المنزل ليعدوا غداء فاخراً ، وشواء سمينا ؛ لأنه يحب أن يلقى أباه فى البستان وحده . .

وانطلق أوديسيوس إلى البستان ، فوجد الفلاحين قد انصرفوا إلى أعمالهم ، ووجد أباه يجوس خلال الأشجار كالشبح ، ويهوى بفأسه فيحتفر حولهن ، وهو بين الفينة والفينة يصلح من لباسه الخشن الذى اتخذه من جلد عنز ، كما اتخذ منه قفازيه وجوربيه . . . . وقف أوديسيوس تحت كمثراة باسقة وطفق ينظر إليه ، ويقلب فى السنين الطوال التى يرزح تحتهن عينيه ، ثم يتعجب للقلب الكبير الذى صمد لحدثان الزمان ولأواء الأيام فلم ينصدع ولم يهن ، وإن كان بعض حزنه لتنوء منه الجبال . .

وانبجس الدمع من عينى أوديسيوس ، وانهمر على خديه الحزينين ، وأوشك أن يمضى نحو أبيه فيأخذه فى حضنه ، ويفجأه بالبشرى القاتلة ، لولا خيفته على تلك الشيخوخة المتداعية أن تنقض حين لا تحتمل النبأ العظيم . . نبأ عودة قطعة القلب والكبد بعد يأس دام عشرين عاماً . . . لهذا آثر أوديسيوس ألا يفعل ، وآثر أن يلقى أباه كرجل غريب جوّاب آفاق ، ويحدثه ، ليعلم ما فى قلبه ، فذهب إليه ، ووقف عن كثب يكلمه :

- « أيها الشيخ : ويكأنك لا علم لك بأمور هذا الزرع ، وإن أثمر بستانك وآن أكله ! حقاً ، إنى لا أرى عشباً فى الأرض ، ولا شجر إلا وهى مثمرة ، ولا زهرة إلا وهى مسفرة نامية ، وماذاك إلا لسهرك عليها . . . بيد أنه لن يسوءك إن لاحظت أنك تعنى بهذا البستان أكثر مما تعنى بنفسك ، مع ما أنت من تقادم السن ولفحة الشمس ووطأة

المرض .. وما أحسب مولاك إلا قاسى القلب عليك ، قليل الاحتفاء بك والتوجع من أجلك ، مع ما لك من سيماء النبل ، ومظاهر الملوك ؛ فما كان أحجى بك ـ وأنت فى هذه السن ـ أن تستحم وتتضمخ وتنام ملء عينيك ، لا يزعجك عمل ، ولا تئودك أكلاف الحياة ! ولكن قل لى بالله عليك أيها الشيخ ، لم تنصب كل هذا النصب ، وبستان من هذا ؟ خبرنى ! لا تخفِ على أيها الأب ، فلقد لقيت من سألته فلم يأبه بى ولم يعُن بمسألتى .. ولقد ذرعت الرحب حتى وصلت هذه الأرض ، إيثاكا ، لأنى كنت أقدم فيما مضى من الزمان فأحل ضيفاً على أمير عزيز فيها ، ما أعرف إن كان لا يزال حياً يرزق ، أو مضى لا قدر الله إلى هيدز ،ولقد كان هذا الصديق يزورنى فى وطنى فأكرم مثواه كما يكرم مثواى ، ولقد كان يحدثنى الأحاديث عن أبيه ليرتيس ابن آزيرياس ... وما أنس لا أنس أيام كان يحمل إلى الهدايا فأردها إليه أضعافاً مضاعفة ، فمن ذاك أننى نفحته مرة بسبع بِدَر من خالص الذهب ، وبجالة من فضة مزدانة بأفواف الزهر ، واثنى عشر صداراً ، واثنى عشر دثاراً ، ومثلهن من أكرم البُسط ، وشىء كثير من ثياب القاقم والسنجاب ، ثم أهديت إليه أربع جوار كُنّس أبكارا اختارهن بنفسه ، مثقفات مهذبات ، يتخايلن فى الخز ، ويرفلن فى الديباج ».

وازدحمت الدموع الجِرار بكل الذكريات المشجية فى عينى الرجل الشيخ ، وقال يجيب أوديسيوس : « أيها الأخ لقد بلغت مناك ، فهذه هى إيثّاكا .. بيد أنها ـ واأسفاه ! ـ نهب مقسم بين فئة باغية ظالمة لا تخضع لقانون ولا تعرف شريعة ... أما صديقك فواأسفى عليه ... ويا ألف

أسفى على هداياك ! من لك به اليوم ليردها عليك أضعافاً مضاعفة يا صاح ! ولكن قل لى بربك واصدقنى : منذ كم سنة لقيت صديقك التاعس ، الذى هو ابنى !؟ إيه ... ! له الله ! ما أحسب إلا أن السمك قد اغتذى به ، أو أنه غدا يوماً جزر السباع وكل نسر قشعم ! أواه عليك يا أوديسيوس يا ولدى ! هكذا قضيت ولم أذرف على ثراك عبرة ، ولم تكتحل عينا أمك قبل أن تموت برؤياك .... ولا بنلوب ! ولا بنلوب أيضاً كانت إلى جانبك لتغمض بيدها أجفانك ... ولكن ... ولكن قل لى أيها الأخ من أنت ، ومن أى البلاد قدمت ؟ وابن مَن من الكرام الأكابر ؟ وفى أى الرفاق وصلت إلى إيثاكا وفى أى السفائن ؟ أم وصلت بك إحدى الجوارى المنشئات ثم غادرتك فى إيثاكا ؟» .

وقال أوديسيوس وهو يلفق ما يقول : « أما من أنا .... ف .... أنا إبيريتوس بن أفيداس بن پلويبمون من أمراء اليباس ، من أعمال صقلية ، ولقد هبت على سفينتى عاصفة هوجاء فدفعتنا نحو بلادكم وألقينا المراسى فى مينائكم ... ولقد لقيت أوديسيوس لآخر مرة منذ خمس سنوات ، وقد افترقنا وكلنا أمل أن نلتقى لنتبادل تذكارات المحبة وهدايا الصداقة والوفاء والود » .

وانعقدت سحابة مظلمة من مرارة الحزن فحجبت الضوء عن عينى ليرتس ؛ ثم إنه أهوى إلى الأرض فقبض قبضات من التراب وراح يحثوها على رأسه ، ويئن أنينا مؤلما . ولم يحتمل أوديسيوس أن يرى أباه فى هذه الحال ، بل كاد صدره ينشق من حسرة عليه ، فهرول وأخذه ملء ذراعيه وجعل يضمه إلى صدره ويقبله ويقول : « أبتاه ! أبتاه ! هو أنا ذا ! أنا

أوديسيوس عدت إليك بعد عشرين عاما فافرح وهدىء روعك ، ولتنته آلامك ، وإليك أحسن البشريات ! لقد قتلت أعدائى العشاق جميعا : قتلتهم فى بيتى ، وانتقمت لك ولى ولبنلوب ! » .

بيد أن ليرتس وقف ذاهلا عن نفسه ، ثم نظر إلى ولده وقال : « إن كنت حقا ولدى أوديسيوس ، فهات برهانك الذى يقطع شكى ! » :

فقال أوديسيوس : « ألا تصدق ! إذن فانظر إلى الندوب الخالدة التى أحدثها فى ساقى خنزير الفلاة إذ أنا حَدَث يا أبى ! ألا تذكر يوم كنا على جبل برناسوس ، وكان جدى أوتوليكوس معنا ثمة ، وكان يتحفنى بالهدايا واللهى ؟ وهاك دليلا آخر يوم مشيت معك فى هذه الحديقة ورجوتك أن تجعل بعض هذه الأشجار باسمى ، فمشيت معك ، ورحت أنت تسميها لى بأسمائها ، فجعلت لى ثلاثة عشرة كمثراة ، وعشر تفاحات ، وثلاثين تينة ، وخمسين صفا من الكروم الناضرة التى كان يزرع القمح بين عرائشها والتى كانت تدلى منها العناقيد من كل لون ! »

وانجاب الشك عن فؤاد ليرتس ، فأخذ ولده بين ذراعيه المرتجفتين وراح يضمه ويقبله ويصعد فى صدره الرحب القوى أنفاسه ، حتى إذا وهنت قواه أرسله ، وأخذ يحدثه فيقول : « ياللآلهة ! يا أرباب السموات الخالدة فى شعاف الأولمب ! أهكذا قضيت آخر الأمر أن ينصب جام غضبك وحُمم نقمتك على هؤلاء الكفرة الفجرة ! ولكن ! لشد ما أخشى أن يتألب الجمهور علينا ، فيهرعوا إلى هنا ، ويطلبوا ثار ذويهم . »

فتبسم أوديسيوس وقال له يطمئنه : « لا عليك يا أبى . . . هلم الآن فلنذهب إلى بيتك الجميل ، فلقد أرسلت تلياك ثمة ومعه الراعى ،

ويومايوس الوفى ، ليعدوا لنا طعاماً سريعاً خفيفاً » .

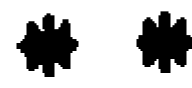
وأُعد الطعام ، ومزجت الخمر ، وذهبت الخادم العجوز فاعدت حَمَّاما لسيدها الشيخ ، ثم ضمخته وأضفت عليه ملابس نظيفة .. وتنزلت مينرفا الكريمة لمشت بيديها الإلهيتين على جسم ليرتيس فتدفق الشباب فى عروقه ، وعاد إليه رواؤه وحسن سمته ، فلما خرج من الحمام تعجب أديسيوس وقال له : « تالله يا أبت إنى لا أشك فى أن بعض الآلهة قد رد إليك صباك . وخلع عليك بُرْدة الشباب من جديد !! » .

ولم يكن عجب ليرتيس بأقل من عجب ولده ... « تعاليت يا جوف وتقدست يا مينرفا ! وسما جدك يا أبوللو ! لقد كسوتمونى نضرة الشباب التى كانت لى يوم ملكت مدينة نريكوس بمعونة السيفالينيين الشجعان ! أواه لو قُدِّر لى أن أقف إلى جنبك أمس يا بنى ، ليكون لى شرف مجالدة الأوغاد الذين قتلت ، إذن ، لحظيت بكوكبة منهم أضرج أديم الأرض بدمائها ، فأشفى منهم حَرَداً فى صدرى ، وغِلاًّ فى حشاشتى ! » .

وأكلوا هنيئاً وشربوا مريئاً ، ثم جلسوا على الأرائك متقابلين ... وكانت الخادم العجوز قد انطلقت إلى المزارع فدعت كبير الفلاحين دوليوس ، فأقبل فى رجاله الذين كدهم العمل وأنهكتهم المثابرة ... فلما رأوا ما ارتد إلى سيدهم من شبابه ، وهذا الرجل الغريب الذى يجلس بين العائلة المقدسة ، وقفوا مسبوهين مشدوهين ، لا يعرفون ماذا يقولون ... وحدجهم أوديسيوس ، ثم بدأ يكلمهم فى لطف وخبث ويقول : « إجلس أيها العجوز دوليوس فكل أنت ورجالك ... فليس ثمة متسع لدهش أو عجب ... إجلس قبل كل شىء فاملأ بطنك وبطون رجالك ... لقد

انتظرناكم طويلا ، لكنك استأنيتم !» ولكن سرعان ما عرف دوليوس مولاه حين سمع صوته ، فأقبل عليه ، وتناول يديه ، وطفق يغمرها بالقبل الباكية ويقول : « أوه يا مولاى ! هكذا والله تستجيب السماء ! لقد طالما جأرنا ولقد طالما دعونا فلها الثناء إذ ردتك إلينا ! فعش واسلم وسر وابتهج ... ولكن ... هل علمت الملكة بقدوم مولاى ؟ ألا ننطلق من فورنا فنزف إليها البشرى ؟» .

وطمأنه أوديسيوس ، فجلس الرجل مبتهجاً مسروراً ، وجلس أبناؤه معه ، وأخذوا فى أكلهم وشرابهم ، وأخذ أوديسيوس يلاطفهم ويداعبهم .. وهكذا عاد الحبور مرة أخرى إلى بيت ليرتيس !



وقرع آذان الناس فى المدينة ما كان من قدوم أوديسيوس ، وما حاق بالأمراء المعاميد من نكبة على يديه الجبارتين ، فأهرعت جموعهم إلى قصره صاخبةً ناعبةً ، ثم انطلقوا إلى حيث كدست أجساد القتلى فحرّق كل قتيله ، وأُرسلت جثث الغرباء إلى ذويهم فى أوطانهم فى سفن الصيادين من كل فج لتُحرّق ثمة ... واجتمعوا بعدُ ليتشاوروا بينهم فيما ينبغى أن يكون ... فنهض يوبيتيس والأسى يزلزل جوانحه وأنشأ يقول : « أيها الرفاق ! لقد كان هذا الرجل الطاغية حرباً دائمة عليكم فلم يصبكم منه إلا الشر ، ولم تثمر لكم فعاله إلا الندامة ! فلقد ساق شبابكم وخيرة أبطالكم الى طروادة المشئومة حيث قتلوا أجمعين ، وها هو ذا ينقلب اليكم اليوم ليذبح ساداتكم وذوى الصولة فيكم ... فهلموا إذاً ورَوْا رأيكم فيه قبل أن

ينطلق إلى بيلوس فيطلب العون عليكم ، وتصبحوا على ما قصرتم نادمين ! إنّا إنْ لم نثأر لضحايانا فأى عار يَسِمنا وأى خزى يصمنا يا قوم ! وأية حياة هذه التى تحيونها بعد ما حل بكم من هوان ومذلة .. لخير لكم أن تذبحوا أنفسكم فترحلوا إلى هيدز مع أرواح قتلاكم ولن تكونوا على ذلك من الآسفين !» ثم جلس وهو يتصدع من الحزن على صاحبه أنتينوس الذى كان أول ضحايا أوديسيوس ... وقام ميدون المنشد التاعس فقال : « أيها المواطنون أعيرونى آذانكم ! تالله إن أوديسيوس لم يرم سهامه إذ رمى ، ولكن بعض الآلهة كان يرسم له وينافح عنه ، ولقد رأيته بعينىَّ هاتين فى صورة منطور ، ووالله ما هو منطور ، ووالله لقد كان يمشى بين يديه ههنا وههنا فَيُرّاع العشاق وتفزع قلوبهم ويسقط بعضهم فوق بعض فتأخذهم سهام أوديسيوس ويروى من دمائهم سيفه !» وما كاد يفرغ ميدون ، وكان فيهم أميناً صادقا ، حتى طارت ألوانهم وامتقعت وجوههم ، ونظر بعضهم إلى بعض ، وادّاراوا طويلا ، ثم وقف هاليتير بطلهم القديم بن منطور ، وكانت له دراية بكشف أستار الماضى والحاضر والمستقبل ، فصَعَّر خده وقال : « أيها الإخوان ! يا أبناء إيثاكا ! إسمعوا وعوا ! تالله لقد طالما مهدتم للفتنة ، وإنها لثمرة أنتم غارسو شجرتها وأنتم اليوم جُناتُها ... أتذكرون يوم رجوتكم فألحفت عليكم فى الرجاء أنا وصاحبى ميدون هذا ، أن نذهب فنمنع القصر من شبابكم ، ونصون عرض أوديسيوس من أبنائكم ، ونصرفهم عن ولده وزوجه ومتاع هذه الحياة الدنيا ، فأبيتم أكبر الإباء ، ورفضتم أقبح الرفض ، وجعلتموها فتنةً كنت استعيذُ بالآلهة منها ؟! فعلام تغلى مراجل صدوركم يا قوم ؟ وفيم ائتماركم بالرجل وقد ثار

لعرضه ؟ ألا فاسمعوها كلمة مخلصة أسديها إليكم ... الرأى ألا تذهبوا ، وألا تجعلوها فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، بل اقعدوا ههنا آمنين ، ولا تكونوا كالذى سعى إلى حتفه بظلفه ، وأبطأت عليه المنايا فسعى قُدُماً إليها !» وما فرغ حتى زجر القوم وتصايحوا به ، وضجوا من كل مكان ... ثم إنهم سمعوا إلى شيطان يوبيتيس ففزعوا إلى أسلحتهم ، وأسبغوا عليهم من دروعهم ، وانطلقوا إلى المدينة فنظموا فيها صفوفهم ، وأقاموا يوبيتيس قائداً منحوساً عليهم ، وما جعلوه كذلك إلا ليلق حتفه بيد أوديسيوس ، وتعجل روحه إلى النار !

ومضت مينرفا إلى سيد الأولمب ، جوف العلى فوقفت ببابه تقول : « أبتاه ! أبِنْ عن سريرتك ، واكشف عن مكتوم قلبك ومكنون نفسك ! هل يحل على هذه الفئة الظالمة غضبك ؟ أم أنك مانحها محبتك ، ومحصنها بحمايتك ؟» فتبسم من قولها وأنشأ يجيب : « وفيم هذا التساؤل يا ابنتى ؟ ألم تَقْدُرى أنت أن يعود أوديسيوس إلى وطنه فيذبح بيديه أولئك العتاة الطغاة ، ويريح وجه الأرض من خباثاتهم ؟ ليكن ما تشائين ! إصنعى ما بدا لك ... ولكن نصحى أمحضك إياه يا مينرفا ! مادام أوديسيوس قد ثأر لنفسه من أعدائه ، فليكن السلام على الأرض ، وليحل الأمان فى ربوعها ، وليتقاسم الملأ على الود والصفاء ، وليحكم أوديسيوس بين الناس بالعدل ... وعلينا نحن أن ننزع ما فى صدورهم من غل فينسوا سخائمهم ، ويطرحوا ثاراتهم ، ثم لتكن لهم من أنفسهم أَمَنَة ، ولتجر البركات عليهم أجمعين ، وليصبحوا بحولنا أصفياء متحابين » .

وزفَّت مينرفا من السموات العلى إلى إيثاكا .

وفرغ أصحاب أوديسيوس من أكلهم فأمرهم أن يتحسّسوا آثار القوم ، فانطلق أحد أبناء دوليوس إلى المدينة فرأى من استعداد أهلها ما رأى ، وجاء إلى مولاه على عجل فقال له : « مولاى ! لقد تسلح الإيثاكيون وهم موشكون أن يقدموا إليك !» فنهض أوديسيوس فادّرع ، وادّرع أبوه وابنه وخادمَاه وأبناء دوليوس الستة ، وادَّرع دوليوس كذلك ، وادرع الفلاحون الآخرون ، وحمل كلٌ سلاحه ، وبرزوا إلى الطريق وفى مقدمتهم أوديسيوس .

وبدت مينرڤا فى صورة منطور وفى طيلسانه ، فلما رآها أوديسيوس فرح واستبشر ، والتفت إلى تلماك فقال : « أى بنى عليك أنت أن تحمينا اليوم فقد عرفت ما خاض أبوك من معامع ، وسنرى من يحارب خيراً من صاحبه اليوم !» فقال تلماك يجيبه : « اطمئن يا أبى فسترى كيف يحمى العسلوج فرعه ، وكيف يشب الفرع على أصله . تالله لن أفضحك فيما وكلت إلىَّ يا أبى ، ولن يخيب رأى أهلى فىّ !» وفرح الوالد بمقالة ابنه ، وشكر للآلهة وأثنى عليها .

واقتربت مينرڤا من ليرتيس ، وهى لا تزال فى صورة منطور ، فقالت له : « أوه أيها الجد الوقور ! صلِّ لمينرڤا وابتهل ، وتوسل إلى جوف ، أن يمنحاك القوة والجلد ، ثم اهجم بحربتك على يوبيتيس فروّها من دمه ، فالسماء كلها معك » ولمسته بيدها فتدفق شبابه فى قلبه ، وكان جيش الأعداء قد اقترب منهم فطار ليرتيس إليهم برمحه ، وأقصد يوبيتيس بضربة فى صدره ، فخرج سنان الرمح يلمع من ظهره ، ورأى أوديسيوس ذلك فطار إلى الملأ بسلاحه ورماحه ، وانقض تلماك فى إثره ، وهجم الآخرون

فى إثر تلياك ، ولم يطل القِراع ، فقد فزع الأعداء واختلط نظامهم ، فولوا الأدبار ، ولكن هيهات ! لا نجاة اليوم ! فلقد سد عليهم أوديسيوس ورفاقه الطرق ، وأخذوا عليهم المسالك ، فهم فى ضيق ، وهم ذاهلون !

وهتفت ابنة جوف العذراء بأوديسيوس ورجاله تقول : « السلام عليكم أيها المحاربون ! السلام ! السلام ! قبل أن تجرى دماؤكم أنهارا !» .

ثم بدت مينرڤا فى صورتها الإلٰهية المقدسة فارتعدت فرائص القوم ، وتخاذلوا فيما بينهم ، حتى أصحاب أوديسيوس ! لقد ارتجفت أعصابهم وعصف الذعر بسواعدهم ، وكادت سيوفهم ورماحهم تنتثر على الأرض . . . ولم يعبأ أوديسيوس ، بل هجم كالنمر على القوم المنهزمين يود لو يصعقهم ، وطفق يبرق ويرعد ، ويزأر بصوته المدوى العظيم ، فغضب سيد الأولمب ، وأرسل إحدى صواعقه نذيراً من لدنه إلى ميزفا ، فعجلت إليه ذات العينين الزبرجديتين ، وزجرته عن الناس وهى تقول : « لا يا أوديسيوس ! لا يا أبن ليرتس النبيل ، لا يجدر هذا بماضيك ! ضع حداً لهذه المجزرة المروّعة أو تجلب عليك غضب جوف العلى !» . .

وخَبَت أوديسيوس ، وسرَّت مينرڤا ، وعقد منطور الصلح بين الفريقين ، ودخل الناس فى السلم كافة . . . !

**تمت**

# الفهـــــرس

رقم الايداع
١٩٩٠/ ٤٥٠٦
الترقيم الدولى : ٨ - ٠٠٢٢ - ٠٨ - ٠٩٧٧

طبع بمطابع أخبار اليوم

# أوديسة

